ميشال زيفاكو

رواية بارد كليان

الجزء الأول

@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

ميشال زيفاكو

رواية
باردليان

ترجمة : طانيوس عبده

نور المعموري
Intellectualrevolution

الجزء الأول

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

— ١ —

الاخوان

المنزل كبير منخفض لا تعلو نوافذه أكثر من مترين عن سطح الأرض ، والنوافذ تطل على بستان كبير ، بل جنة فيحاء ، تناجت أطيارها بارق من نفحات العيدان ، وتهدج صوت النسيم فيهـــا ، فحنت أغصانها إلى معانقة الأغصان .

وفي إحدى الغرف المشرفة على البستان شيخ جليل جالس على كرسي ضخم وقد بيضت شعره السنون ، وبدت عليه دلائل الهرم وهو لم يتجاوز في حلبة العمر مبلغ الكهول .

كان هذا الشيخ ساهي الطرف ، مشتت البال ، ينظر الى البستان بعين تضطرب فتدمع ثم ينظر إلى حسن منبع بجواره فتتقد عيناه وتلمع . ثم يعود فيرسل طرفه الى البستان وتخرج من صدره أنة لولا تقادم العهد بشبابه لقلنا انها أنة وفاق . ويقول بعد هذا الأنين : إبنتي .. أين ابنتي ... وإنما يذكر ابنته بصوت يتهدج من الرفق والحنان .

وكان في هذه الغرفة خادمة تشتغل بترتيبها فسمعت قول الشيخ وقالت له:

إن الآنسة يا سيدي تجني الأزهار .

فابتسم الشيخ وقال : نعم ، إننا في زمن الربيع الباسم ، وكل ما في الوجود يبسم ويغنى ، ولكن ابنتي أجمل أزهـــار الربيع ، فهي في ربيع دائم

ثم أطلق نظره الى ذلك الحصن ، حصن أسرة مونتمورانسي ، وبرقت عيناه ببارق من الحقد وقال : أي مونتمورانسي ، صاحب هذا الحصن وأمير الجيوش ، إنك أخذتني أخذ العزيز القادر ، وثنيت عني عطف الرحمة ، فأثرت كمين ضغنك وسلبتني ضياعي العامرة ، فما أبقيت لي غير هـذا النزل الذي آوي اليه ، على انك قد يستفزك الحقد الى اغتيالي فيا اختلست ، فأبيت دون مبيت ... إبتناه ، إنك تجنين أزهار هذا البستان وقد يكون ذلك آخر ما تجنين .

ثم سالت دمعتان على وجنتي هـذا الشيخ القانط فمسحها بيديه وعاد الى النظر فاصفر وجهه فجأة . ذلك انه رأى فارسا بالملابس السوداء ورجل عند باب منزله ودخل اليه .

فقال في نفسه : ويلاه انه رسول امير الجيوش .

أما الرسول فانه دنا من الشيخ ووقف أمامه وقفة المتهيب وبيده ورقة مطوية ثم انحنى بملء الاحترام وقال : يا سيدي دي بيانس اني رســـول مولاي أمير الجيوش أتيت اليك بهذا البلاغ .

فارتعدت فرائص الشيخ وقال : بلاغ !

يعز علي يا سيدي ان أكون من نـــذراء السوء ، فقد صدر إلي الأمر بابلاغك نسخة من أمر البرلمان الصادر في باريس أمس ، أي في الخامس وعشرين ابريل سنة ١٥٥٣ .

فوقف دي بيانس ووضع يديه على صدره وقال : قل أيها الرجل ، أبقي في كنانة أمير الجيوش سهم لم يرمني به ؟ قل ما هي هذه النكبة الجديدة التي

قذفها بركان سقده .

فأجابه الرسول بصوت ضعيف كأنه يخجل مما يقول : مولاي ان أمر البرلمان يقضي بتجريدك من هذا المنزل الذي تقيم به وما يحيط به من الأراضي التي منحك إياها الملك لويس الثاني عشر ، ويقضي بردها الى أسرة مونتمورانسي في مدة شهر .

فحاول الشيخ ان ينجلد فخانه الجـــلد واصفر وجهه ، فنظر الى ذلك البستان العظيم الحدق بمنزله نظرة قنوط وقال : يا مولاي لويس الثاني عشر ويا أيها الملك الشهير فرنسوا الأول ، ألا تسمعان من قبريكما ما يقول هـذا الرسول ..

ألا تريان من العلى ما يصنع أمير الجيوش بن سفك دمه في أربعين معركة في سبيل مجدكما ومجد الوطن .

إنهضا من رقادكما وانظرا الى هذا الشيخ وهو غرس نعمتكما كيف يطرد من أرضه فلا يبقى له ما يسد به الرمق .. وانظرا إلى هذا البطل المنكود كيف يجازى بعد ان مات من كان يعرف قدر الأبطال .

فلما سمعه الرسول يكلم نفســـه بهذه الأقوال ، ورأى دلائل اليأس بادية بين عينيه ، وضع البلاغ على كرسي وانسل هارباً دون استئذان .

ولكن الشيخ لم يفطن له فقد كان في شاغل عنه بما داهمه من اليأس ، فجعل يندب حظه العاثر ويتوجع لنكبة ابنته وهي في مقتبـــل العمر ، ثم ينظر إلى حصن مونتمورانسي فيهيج ثائر حقـده ويقول : إن يد الله فوق يدك أيها الظالم ، فلتلق بعدي سبة الأبد ، ولتشق ببنيك ، ويشقى بنوك بأولادهم بعدك .

ثم مد قبضته الى ذلك الحصن مهدداً وسقط على الأرض مغمياً عليه .

ولقد كانت نكبة هذا الشيخ المنكود هائلة ، لانه كان سيد جميع بيكارديا ، فما زال مونتمورانسي أمير الجيوش ينزع منه الأرض بعد الأرض ،

والضيعة في أو الضيعة بما له من النفوذ في البرلمان ، حتى لم يبق له غير أرض مارجيني ، وهي الأرض التي يقيم فيها مع ابنته في أشد حالات الشقاء ، لا ثروة له يعيش من ريعها ، ولا قوة له يدفع بها عن ابنته شقاء الفقر ، ويا له من شقاء .

كانت سنة ابنة الشيخ دي بيانس في السادسة عشرة من عمرها وهي غراء الطلعة هيفاء القد سوداء العينين كأنها خلقتا للسحر بل كأنها هي الحسن مجسماً والجمال ممثلاً فلا تفتح العين على أتم منها حسناً .

وكانت قد ذهبت في ذلك اليوم الذي تبدأ فيه هذه الحكاية الى بستان المنزل في الساعة التي تعودت الذهاب فيها كل يوم ، فتوغلت في غابة الكاستنا وهي آخر غابات البستان تستنشق هواء المساء البليل ، وقد سارت بين تلك الاشجار وهي تتمتم قائلة : ترى أأجسر على ان أعترف له الليلة بهذا السر الهائل الدقيق .

وفيما هي تحدث نفسها وقد وضعت يدها فوق قلبها ، شعرت فجأة بيد جذبتها بلطف وبغم لثم يدها ، فارتعشت لهذه القبلة ثم ابتسمت الطف ابتسام وقالت : فرنسوا !

— ولكن ماذا ألم بك أيتها الحبيبة وما هذا الاضطراب ؟

— إصغ أيها الحبيب .. واعلم ..

ولكنها تلعثمت وقالت : أواه اني لا أجسر على التصريح ..

[redacted] الحب والحنان .

كان هذا الباغث فتى في مقتبل العمر لطيف الخلق متناسب الأعضاء صبيح الوجه يتألق في جبينه ضوء البشر والطلاقة

وهذا الفتى يدعى فرنسوا دي مونتمورانسي ، وهو أكبر أبناء أمير الجيوش الناقم على والد سنة والذي انتزع منه منذ ساعة آخر ما بقي له من آلات العيش .

وقد مشى مع الصبية يتشاكيان ويتناجيان ، وهي كلما مشت خطوة تقف ، فتصغي وتقول : إنهم يقتفون أثرنا ... إنهم يراقبوننا ... ألا تسمع ؟

فيصغي فرنسوا إصغاؤها فلا يسمع حساً ويقول : ربما كان ما سمعته صوت عدو أرنب سارح في البستان .

فتمشي هنيهة ، ثم تعود إلى الوقوف وتقول : فرنسوا ... فرنسوا ... إني خائفة .

فيتأمل الفتى ويقول : مما تخافين أيتها الحبيبة وأنا معك ومن يجسر ان ينظر اليك ما زالت يدي في يدك ؟

— إني مضطربة الحواس يكاد يشق صدري من الخوف وذلك منذ ثلاثة أشهر على الأخص .. فرنسوا إني خائفة .

— أيتها الحبيبة إنك امرأتي أمام الله منذ هذا الزمن الذي بدأ فيه رعبك ، فكيف تخافين وأنا أتولى حمايتك ... إنك ستكونين قريباً امرأتي أمام الناس ولا أكترث لهذا العداء القديم بين أبوينا ، فاذا كان هذا الذي يخيفك فاطمئني .

— لا ريب عندي فيما تقول ايها الحبيب ، لأن بين جنبيك قلباً طاهراً لا يعرف الدنس . وهب ان الله قدر ان لا نتمتع بهذه الأمنية السعيدة لكفاني من أماني الحياة اني لك يحملني ... حبني يا فرنسوا ، فإن حبك سلوتي وان قلبي يحدثني بان الدهر سيفاجئني بنكبة هائلة ، كأنما الصاعقة تنقض على رأسي .

— إني أحبك حباً ليس بعده غاية لمستزيد ، ولولا حذر الشرك بالله لقلت اني أعبدك كما أعبد الله . فما أرمى الى قلبك هذا الخاطر المحزن أيتها الحبيبة ؟ إنك ستكونين إمرأتي في أقرب حين ، وليس في الوجود قوة تحول دون بلوغي هذه الغاية .

وهنا حمل الهواء صوت قهقهة لم يسمعه العاشقان لاضطرابهما .

واستأنف فرنسوا الحديث ، وقال بلهجة العاتب : على اني أستشف من كلامك إنك تكتمين سراً يؤلمك ، ويهيج من قلبـــك مكامن الخوف ، فإذا كان ذلـــك ، فكيف تكتمين أسرارك عن عشيقك ... بل عن زوجك .

ـ نعم ، لقد أصبت ، فلا يحق لي ان أكتم سراً عنك . إذاً ، إعلم إني أنتظرك حين ينتصف الليل عند مرضعتي في منزلها .. نعم يجب ان تعلم كل شيء ، ولكني لا أجسر على الإباحة بسري إلا في الليل .

ـ ليكن ما تريدين ايتها الحبيبة ، فسأوافيك عند انتصاف الليل .

ـ والآن سر بأمن الله ، لأني عائدة الى المنزل ، فقد طال غيـــابي عن أبي .

فعانقها فرنسوا مودعاً وعاد من حيث أتى فوقفت جنة تشيعه الى ان توارى عن النظر فتنهدت ومشت عائدة الى المنزل .

ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى سمعت من ورائها وقع أقدام فالتفتت وامتقع وجهها للفور إذ رأت فتى يبلغ العشرين من العمر يتعقبهـــا وهو براق العينين تدل ملامحه على الحدة والكبرياء .

فوقفت الصبية وقالت بلهجة المتذعر : أهو أنت يا هنري !

فأجابها بصوت المستهزىء : نعم أنا هو ذلك الشقي بغرامك . وما هـذا الخوف مني ؟ أليس لي الحق ان أكلمك مثله ، اي مثل أخي .

فلبثت جنة مضطربة دون ان تجيب .

أما هنري شقيق فرنسوا فإنه ضحك ضحك الساخر وقال لها : اذا كنت لا تمنحيني هذا الحق فإني استمنحه لنفسي . نعم ، إني إذا كنت لم أسمع كل ما قلتماه فقد رأيت كل ما كان بينكما من [illegible] ، وبعد ، فما هذه الجفوة والاعراض ، وما بالك تقسين علي هذه القسوة وأنا اول من جاهر

لك بغرامه . وبماذا يفضلني أخي فترغبين به عني ؟

فبدت دلائل الانفة على وجه الفتاة وقالت له : إني أحبك يا هنري ، وسأحبك ما حييت حب إخـــاء ، لأنك أخو الذي وهبته حياتي . ودليل صدقي ، في حبي إياك ، وعطفي عليك ، إني لم أقل كلمة بعد عنك لفرنسوا .

— إنك تكتمين غرامي لك عنه حذراً عليه فإذا شئت فولي له اني أحبك ، وليأتني بحسامه فلدي أيضاً مثل ذلك الحسام .

— لقد جربت شوطاً بعيداً في تحقيري حتى بت أخشى ان أنسى من أنت وانك أخوه .

— لا تقولي أخاه بل خصمه ومزاحمه .

فضمت حنة يديها إلى صدرها وقالت : أواه يا فرنسوا إني أسألك العفو لسماعي هذه الأقوال الشائنة وسكوتي عنها .

فالتفت هنري ببارق من الحقد وقال : إذاً أنت لا تزالين مصرة على جفائي ... ما بالك صامتة .. ألا تريدين ان تحبيني . . ليكن ما تريدين ولكن إعذري .

فاضطربت الفتاة وقالت : أسأل الله أن تكون عاقبة هذا الوعيد الذي أقرأه بين عينيك على رحمي دونه .

فارتعش هنري وقد يئس منها وقال لها : إذاً إلى اللقـــاء أيتها الحسناء . أتسمعين ! إني لا أودعك لاننا سنلتقي .

ثم أطرق برأسه الى الأرض وابتعد عنها بين الغابات يمشي مشية الخنزير الجريح وفي قلبه تتأجج نار الانتقام .

ومشت حنة وهي تقول : رباه ! اذا أردت ان يفوز هذا الرجل بانتقامه فليكن فوزه علي .

وقبل هي عائدة الى منزلها تدعو الله لزوجها وحبيبها بالسلامة من شر

أخيه شعرت بحركة الجنين في أحشائها .

وذعرت ذعراً هائلاً ، وركعت على الأرض ، وهي تقـــول : رباه ! اني لم أعد وحيدة في هـــذا الوجود ، فإن في أحشائي جنيناً يريد أن يعيش ، ولا أدعه يموت .

- ٢ -

نصف الليل

كانت السكينة سائدة ، والظلمات مدلهمة ، وقد احتجب القمر عن وادي موانفرانسي .

وقد دقت الساعة الحادية عشرة فرقفت حنة تعد دقاتها حتى اذا انتهت من عدها عادت الى مناجاة ذلك الجنين بأعذب الألفاظ .

ثم صمتت هنيهة وعادت الى محادثة نفسها فقـالت : ما هذا الاضطراب الذي رأيته من أبي حين عودتي في هذا المساء . ولماذا ضمني الى صدره والدمع يترقرق في عينيه . العله أصيب بنكبة جديدة يكتمها عني ... اني لم أره مرة على مثل ما رأيته الليلة .. رباه ! أكتب لنا في لوح المقدور ان لا نهنأ طرفة عين ؟

ثم ركعت أمام صورة العذراء وجعلت تصلي ، حتى دنت ساعة انتصاف الليل فأطفأت المصباح وتشحت برداء ثم خرجت متجهة الى منزل قروي يبعد خمسين خطوة عن منزلها .

وبينما هي سائرة رأت شبحاً يسير مثلها فناداته قائلة : فرنسوا !
غير ان الشبح لم يرد فاطرقت برأسها واستمرت في مسيرها .

أما الشبح فانه سار الى منزل والد الفتاة وذهب توا الى النافذة كان ينبعث منها النور فطرقها .

وكان الشيخ والد حنة لم ينم بعد ، وهو يسير في أرض الغرفة ، جيئة وذهابا ، لا يفكر إلا بامر واحد ، ولا يسأل نفسه غير سؤال واحد وهو : ما عسى ان يكون مصير ابنته بعد ان يطرد من المنزل ، والى من يلجأ بها ؟

فلما سمع الطرق على النافذة وقف فجأة وقال في نفسه : هوذا نكبة جديدة دون شك .

ثم ذهب إلى النافذة ففتحها ونظر الى الطارق فخرجت من صدره آهة تشبه الزئير لأنه رأى هنري دي مونمرانسي ابن الد أعدائه .

فعاد لفوره إلى غرفة مجاورة كان يضع فيها أسلحته فانتزع سيفين من الحائط وعاد بهما فالقاهما على المائدة .

وكان هنري قد وثب الى الغرفة فجعل كل من الرجلين ينظر إلى الآخر نظرات نارية وهو لا يستطيع ان يفوه بحرف .

غير ان الشيخ أشار ، بيده العظمة ، الى السيفين الموضوعين على المائدة .

فهز هنري كتفيه ، وأمسك بيد الشيخ وقال له : إني لم أجيء الى هنا بغية مبارزتك ، وأية فائدة من ذلك ؟ لأني أقتلك لا محالة ، وفوق ذلك فليس لدي ما يدعوني الى قتلك لأني لا أكرهك ، ولا أحقد عليك ، وأي ذنب جنيته إذا كان أبي قد جردك من ثروتك ، وأصبحت فقيراً معدماً بعد ان كنت من كبار الأغنياء ، وغدوت من عامة الناس بعد أن كنت من الحكام .

فضرب الشيخ المائدة بقبضته وقال : إذاً ، ما جئت تعمل في منزلي ؟ قل فإني أعد وجودك عندي أعظم إهانة تصنعي بها . العل أباك أرسلك إذا لم يجسر ان يأتي بنفسه ، أم أنت قادم لترى إذا كنت لا أزال حيا بعد تلك النكبة التي رماني بها ؟... قل ، او أندفع مع تيار غضبي فأقتلك في الحال .

فمسح هنري العرق الذي كان يتصبب من جبينه وقال ، أريد أن تعلم السبب الذي حملني على القدوم اليك ؟ إذاً ، إعلم اني عارف بكل ما أصابتك به اسرة مونمرانسي من الكوارث ، وقد جئتك أيها الشيخ الجاهل لأقول لك ، اليس من العار الذي لا يمحى ان تكون ابنتك بعد هذا العداء خليلة فرنسوا دي مونمرانسي ؟

فاهتز الشيخ كأنما قوة كهربائية هزته ومرت على بصره غمامة حمراء ورفع يده ليصفع هنري .

غير ان هنري أسرع إلى تلك اليد فأوقفها عن الصفع وقال له أتشك بما قلته لك أيها الشيخ البليد .. ان ابنتك في هذه الساعة بين ذراعي أخي .. تعال .. تعال وانظر بعينيك .

ثم جره الى غرفة سنة ورفس الباب برجله ، فلما فتح لم يجد الشيخ ابنته فيها فرفع عينيه الى السماء وأن أنيناً موجعاً وعاد مطرق الرأس من اليأس والخجل الى قاعة الاستقبال ، فسقط على كرسي فيها سقوط الشجرة الضخمة تكسرها العاصفة .

فاغتنم هنري تلك الفرصة وهرب من ذلك المنزل الذي فضح فيه أخاه كما هرب من قبله قايين .

أما سنة فإنها ذهبت الى منزل مرضعتها فلم تدخل اليه بل وقفت عند بابه تعيد في نفسها ما أعدته من القول للاعتراف بسر حبها .

ولم يطل وقوفها إذ دقت الساعة الثانية عشرة ووصل فرنسوا فعرفته

[redacted] الشغف ، لأن الحب بينهما كان شديداً متبادلاً على السواء .

وعند ذلك قال لها فرنسوا : إن الدقائق أيتها الحبيبة معدودة علينا في هذه الليلة ، فقد أقبل منذ هنيهة فارس إلى الحصن يخبرنا ان أبي سيصل بعد ساعة ، ولا بد لي أن أكون في الحصن لاستقباله . فاعذريني يا أيتهـــا الحبيبة بهذا السر ، ولا تترددي في قوله مهما كان من أمره فإنك تكاشفين به زوجك .

— زوجي ... إن قلبي يوشك ان يطير فرحاً لهذه الكلمة الحلوة . أحق ما تقول يا فرنسوا ؟

— أقسم لك يا حنة بشرفي وباسمي المجيد الذي لم يتدنس .

— إذاً فاسمع .

ثم اتكأت عليه وأسندت رأسها على كتفه وحاولت ان تبدأ اعترافها ، فسمعت عندها صيحة هائلة اخترقت سكون الفضاء فرعبت رعباً شديداً وقالت: فرنسوا إن هذا الصوت صوت أبي .. فرنسوا ان صوته يشبه صوت المختنق.. فرنسوا انهم يخنقون أبي .

ثم أفلتت من ذراعي حبيبها وجعلت تعدو إلى منزل أبيها ، فبلغته ببضع ثوان ، ووجدت الباب والنوافذ مفتوحة ، فدخلت إلى القاعة الكبرى حيث كان النور . فرأت أباها جالساً فيها على كرسي ، وهو كأنه منصعق فطوقت بذراعيها رأسه المكلل بالشيب وجعلت تقبله وتقول : أبي .. أبي .. هذا أنا.. ابنتك حنة .

ففتح الشيخ عينيـه ، ونظر بهما الى ابنته المنكودة ، نظرة ملؤهـا الاحتقار .

فتراجعت منذعرة الى الوراء ، وهي لا تشك في أنـه عرف كل أمرها .

ثم جثت أمامه على ركبتيها فاعترفت له بأمرها وقالت له : أسألك العفو يا أبي عن حبه ، فقد دفعني إلى ذراعيه يد قوية مجهولة ، ولو علمت يا أبي قدر حبنا لكان هذا الحب لديك خير شفيع .

أما الشيخ فانه وقف حين فرغت من حديثها فكان يشبه الخيال وأخذ بيد ابنته وأنهضها .

فساءت الفتاة بلهجة السرور قائلة : أعفوت يا أبي عن ذنبي ؟

فلم يجبها بكلمة عن سؤالها ، بل سار بها حتى وصل إلى الباب ، فمد يده إلى خارجه وقال لها : إذهبي إلى حيث تشائين فلست أبيك ولم يعد لي بنوت .

فشعرت الفتاة ان الأرض تميد بها ، وحاولت الكلام فانحبس لسانها ، واختنق صوتها .

لكنها سمعت من وراثها صوتاً يقول : لقد أخطأت يا أبي فلا يزال لك ابنة وان ابنك يقول هذا القول .

وكان صاحب هذا الصوت فرنسوا موغورانسي ، فدخل بعد ان قال هذه الكلمات ، بينما كانت حنة قد صاحت صيحة رجاء ، وصاح الشيخ صيحة يأس ، وتراجع مندفعاً إلى الوراء هو يقـــول : عشيق ابنتي في منزلي ... يا للعار !

فدنا منه فرنسوا وقال له بلهجة يتبين منها الصدق : قلت لك يا سيدي انك منخدع فما تريد ان أكون ولدك وزوجاً لبنتك .

ـ رباه ، ماذا أسمع ، أنت ولدي .. أتريد ان تجهز علي بالتهكم الهائل بعد أن قتلتني بالفضيحة .

ـ لا عار يا سيدي ولا افتضاح ، فتفضل بقبولي زوجاً لابنتك .

ـ إني أرى الصدق بادياً بين عينيك ، ولكن الملك تجهل ذلك بل الملوك الجيوش .

– كلا ، ولا أجهل أيضاً ما بينك وبين أبي من العداء ، ولكن زواجي بابنتك كافل بزوال الحقد ، ومنع الظلام عنك ، قل يا أبي إن سعادتي وسعادة ابنتك بين شفتيك .

ففرح الشيخ فرحاً لا يوصف وكاد يبارك العاشقين .

ولكن خطر له فجأة خاطر هائل ، فقال في نفسه : إن هذا الفتى يرى أني بت على أبواب القبر ، فهو سيعبث بابنتي بعد موتي كما عبث بي في قيد الحياة .

فقال له : أحقيقة إنك تريد الزواج بابنتي ؟.. قل متى ؟.. وفي أي يوم ؟

فعلم فرنسوا ما يجول في خاطر الشيخ ، فانقدت عيناه باشعة الإخلاص وقال : غداً .

فأجابه الشيخ ، بصوت أجش : ولكني أكون غداً من أهل القبور .

فنظر فرنسوا الى ما حواليه ، فرأى الخدم قد صحوا من رقادهم ، واجتمعوا في تلك القاعة ، فتأبط ذراع حنة وأشار الى خادمين أن يحملا الشيخ على كرسيه التي كان جالساً عليها ، وهو بحالة تشبه النزع وقال : هلم بنا يا أبي الى الكنيسة كي يعقد لنا كاهنها عقد الزواج ، فيمحوا الحادثة من سواد عائلتينا .

فاضطرب قلب الشيخ حتى كاد يخرج من صدره ، وصاح صيحة فرح خرجت متقطعة كأنها أنة شقاء وسالت الدموع من عينيه فمد يده وبارك هذا الفتى الشريف .

وبعد عشر دقائق كان كاهن كنيسة مارجنسي يصلي صلاة الفجر ، وفي أوائل المصلين فرنسوا وحنة ، ووراثها والدها وقد حملوه الى الكنيسة على كرسيه ووراءه امرأتان وثلاثة رجال وخدام المنزل ، فكانوا شهوداً على

عقد الزواج .

ولما فرغ الكاهن من الصلاة عقد زواج العاشقين وباركهما ، ووصل بينهما بتلك الصلة الأبدية ، وعاد الزوجان الى منزل الشيخ يلتمسان بركته الأبوية فرأياه يحاول ان يرفع يديه ليباركهما فلا يستطيع ، ولكن دلائل الفرح كانت مرتسمة على وجهه .

وبعد هنيهة ابتسم لهما إذ لم يستطع الكلام ، وطبع الابتسام على شفتيه وقد صبغتا بالاصفرار فلم يفارقهما بفراق الروح .

ذلك ان هذا الشيخ قتله الفرح ، بعد ذلك اليأس ، فمات باسماً قرير العين .

- ٣ -

مجد الاسم

وبعد ذلك بساعة دخل فرنسوا الى حصن مونمورانسي ، وقد عهد بزوجته الثاكلة الى مرضعتها ، ووعدها ان يعود اليها عند الفجر ، بعد ان يرى أباه .

فلما دخل فرنسوا الى قاعة السلاح الكبرى وجد أباه أمير الطيوش جالساً على عرش عظيم يرقى اليه بثلاث درجات مفروشة بالمخمل ، والعرش محلى بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة .

وكان النور شديد التألق في هذه القاعة إذ كان فيها إثنا عشر عموداً من

النحاس رفوق كل عمود بثلثمب إثنا عشر مصباحا والجدران مغطاة بالسجاد الثمين وعليه الأسلحة المختلفة على جميع أنواعها .

وكان يوجد على هذه الجدران إثنتا عشرة صورة ، هي صور أجداد أمير الجيوش ، وتحت صورة كل منهم ما كان يستعمـــل في عصره من أنواع السلاح .

وكان أمير الجيوش جالسا على عرشه وهو مقطب الجبين ، وقد وقف حوله خمسون رجلا من خيار قواده سكوتا لا يتكلمون ، وعلى يســاره قرب العرش ولده هنري ، وهو عاكف في مهامه التفكير ، لا يشغله غير الكيد لأخيه .

ولم يكن فرنسوا قد رأى أباه منـذ عامين ، فتقدم حتى بلغ العرش دون ان يرى نظرات أخيه الدموية ، فانحنى أمام أبيـه ، بكل الاحترام .

فلما رأى امير الجيوش ولده البكر ، وتكامل شبابه ، ابتسم له ولم يحدثه بكلمة .

وعندها أشار بيده الى الحضور وبدأ حديثه فقال :

– إنكم تعلمون ما أصيب به الأمبراطور شارلكان من الانكسار تحت أسوار مينز في شهر دسمبر الماضي . فان المرض والبرد قد فتكا بجيشه فتكا ذريعا حتى حسبنا انه قضي على المملكة الأسبانية القضاء المبرم ، وانها لا تقوم لها قائمة بعد هذا الانكسار .

وما زالت اسبانيا قد تضعضع شانها والهوكينوت أيدوا بحسامي ، فقد خيل الينا ان السلم قد تقرر في هذا الربيع وأخذ جلالة الملك هنري الثاني يعد العدات مستبشراً بهذا السلام الأكيد .

غير ان الأبطال وحذاق أهل الحروب يستفيـدون من انكساراتهم ، كما يستفيدون سوائم من النصر . فإن شارلكان خرج من تلك المعركة الهائلة منقبض

الصدر دامع العين .

نعم إن هذا الأمبراطور يبكي بدمع غزير حسين فارق معسكره ، وقد ترك ٢٠ الف جثة ، و ١٥ الف مريض و ٨٠ مدفعاً ، ولكن هذا الرجل الحديدي لم يضعضعه ذلك الانكسار ، فعـــاد إلى الحرب ، وهو يزحف الينا الآن .

ثم نظر أمير الجيوش نظرات النسر إلى قواده واستأنف الحديث فقال :

ولقد تلقينا في الساعة الثالثة أمس أول نبأ عن زحفه وغـايته ، فهو يحاول الاستيلاء على بيكارديا بعد أن نظم جنده وحشد الجيش العظيم . أما الآن فان فيلقاً من المشاة والمدفعية يزحف إلى تيروان ، فإذا تمكن من إفتتاحها فهو كأنه قد افتتح فرنسا بأسرها .

ولذلك اتفقت مع جـــلالة الملك أن يحتشد جيشي في باريس ، وأن يسير بعد يومين ، وبعد ذلك أرسل فرقة مؤلفة من الفي فـارس ، فتسرع إلى تيروان وتحاصر فيها فتدافع حتى الموت كي توقف زحف العدو .

وصاح جميع القواد بصوت واحـــد يشبه قصف الرعود ... حتى الموت !..

وعاد أمير الجيوش إلى الحديث فقال :

— ويجب أن يكون لهذه الفرقة قائد فتى جسور لا يرهب الموت وقد اخترته ، فهو ولدي البكر فرنسوا .

فذعر فرنسوا وقال بلهجة القنوط : أنا ؟

— نعم أنت ، لقد وقع عليك اختياري وأنت الذي تتولى إنقاذ ملكك وأبيك ووطنك في وقت واحد . إن الفرقة التي عينتهـــا لهذه المهمة هي خارج الحصن فتهيأ للسفر بعد ربع ساعة واذهب فلا تقف إلا في تيروان ، حيث يجب أن تفوز أو تموت

ثم التفت إلى ولده الثاني فقال له : وأما أنت يا هنري فيجب أن تبقى في الحصن وتعد فيه كل معدات الدفاع كي لا يؤخذ على غرة .

وعض هنري على شفته حتى أوشك أن يدميها كي يستطيع التغلب على عواطف فرحه وقال في نفسه : وأطرباه ، إن حتفه باتت لي .

أما فرنسوا فقد ذعر ذعراً شديداً ودنا خطوة من أبيه وقال له : عساذا تقول يا أبي .. أنا .. أنا ..

ثم تمثل له بسرعة التصور ما يكون من شقاء زوجته إذا غادرها وحيدة ، فهم بموت أبيها ودمدم : يا للهول .. كلا .. إن هذا محال .

فتطلب أمير الجيوش حاجبيه وقال له بصوت رنان : فرنسوا اسرع إلى جوادك واصدع بما أمرت .

– أبي أتوسل اليك أن تمهلني ساعتين ، بل ساعة واحدة .

ووقف امير الجيوش وقد ارتجفت وجنتاه من الغضب وصرخ بصوت يتهدج :

– أراك تناقش في اوامر الملك وأوامر رئيسك .

– أبي ساعة واحدة ، وأعدوا بعدها عدواً إلى الموت .

وتفجر الشيخ من الغضب ونزل عن عرشه وصرخ : فرنسوا دي مونمورانسي ! إني أقبض عليك بيدي .. لقد أهنت الاسم الذي تحمله .. فرنسوا ، إنك أول رجل من أسرة مونمورانسي ، خاف الموت ، منذ خمسة أجيال .

وقد كانت الاهانة شديدة هائلة لا يسع فرنسوا بعدها غير الانتحار أمام الجواد كي ينفي عن نفسه تهمة الخوف . ولكنه فضل أن يموت موت الأبطال فشهر سيفه ، وقد أحست من قلبه خيالات الحب وأماني الغرام وقال : لتنقض الصاعقة على من يجسر أن يقول بأن ابن مونمورانسي يخاف الموت . إن شرف الاسم الذي لقب به يدعوني إلى الامتثال ، وسأسافر بعد ربع ساعة كما

أمرت ولكني إذا عدت حياً أنافشك الحساب ، وسيكون حساباً هائلاً .
إستودعك الله .

ثم إجتاز صفوف الجواد وخرج من تلك القاعة واليأس ملء فؤاده ، فأمر أن يعدوا له معدات جلاده .

وكان جميع الحاضرين يتوقعون أن يصدر أمير البلوش الأمر بالقبض عليه ، غير انهم رأوه رجع إلى عرشه يبتسم ، وسمعه القريبون منه يقول لا شك ان الدم الذي يجول في عروقه دم مونمورانسي .

وبعد ذلك بعشر دقائق كان فرنسوا متأهباً للسفر ، فنادى خادماً وأمره أن يدعو له أخاه هنري .

فأسرع هنري إلى دعوة أخيه وقال له : إني آت لتوديعك يا فرنسوا ، فقد أمرت بالبقاء هنا .

فأخذ فرنسوا بيده بين يديه وقال له : أيمكن الاعتماد على إخائك يا هنري ؟

فارتعش هنري واحمر وجهه وقال . ما يحملك على الشك بي يا أخي ؟

ـ لا تؤاخذني لما بدر مني ، فإني شديد الشقاء فاعلم إني مسافر وقد لا أعود ، ولكني غادرت هنا شقاء عظيماً لا حيلة لي بإتقائه

ـ أي شقاء هذا ؟

ـ اصغ إلي يا هنري ، فإن عزيمتي لا تصح إلا بعد جوابك . أتعرف حنة إبنة السيد دي بيانس ؟

ـ نعم أعرفها

ـ إذاً فاعلم شقائي ، إني أحبها وتحبني منذ ستة أشهر ، وكانت لي وكنت لها منذ ثلاثة أشهر ، وهي تدعى حنة مونمورانسي منذ ساعتين .

فتظاهر هنري بالانفعال العظيم كأنه لا يعلم شيئاً من غرام أخيه ، فقال له فرنسوا لا تعجب يا هنري فستخبرك هي غداً كيف كان عقد زواجنا ، ولكن

ليس هذا كل ما أريد أن أقوله لك .

فإن حنة تبكي الآن فوق جثة أبيها ، وقد مات أبوها وكانت آخر نظرة نظرها إلي وإلى ابنته كإنه يوصيني بها خيراً غير إنك تعلم أن منزل هذا المكدود وأرضه وكل ما يملك قد بات لنا ، وقد تركت امرأتي وحيدة لا معين لها ولا نصير ولا مال ولا مأوى ، أفهمت الآن علة شقائي ؟

– نعم فهمت كل شيء ولكن أنسيت إني أخوك وأنه صدر الأمر إلي بالبقاء هنا .

– بورك فيك يا أخي ، إذن ساعتمد عليك ، أتقسم لي برعايتها والحرص على راحتها .

فارتعش هنري ارتعاشاً بينا ، ولكنه أجاب دون أن يتردد ، نعم أقسم .

– وإذا سلمت من الموت في هذه الحرب وعدت إلى الوطن أتقسم لي إني أرى امرأتي في منزل أبيها لا يعوزها شيء من أسباب الراحة ؟

– أقسم !

– وإذا قدر لي أن أموت ، أتقسم لي بالإبقاء بهذا السر لأبيك وإعطاء أرملتي كل أموالي كي تعيش بها من بعدي ؟

– أقسم

فعانق فرنسوا هذا الأخ المزاحم وقال : لم يبق الآن ما يحول دون سفري ، فاذكر يا أخي إنك أقسمت لي ثلاث مرات .

ثم امتطى جواده وسار لرئاسة الأبطال الذين ينتظرونه .

والتفت إلى منزل امرأته فبكى وقال : الوداع !

وعند ذلك لكز بطن جواده فاندفع به حتى بلغ فرقة الفرسان فاستقبلوه بالهتاف ، فقال لهم : هلموا بنا إلى الموت !

فصاحوا جميعهم بصوت واحد كهزيم الرعود ، إلى الموت ! فسار في

طليعتهم إلى حيث أمره وأبوه .

أما أبوه فانه لما سمع ذلك الهتاف رأيقن ان ولده قد سافر مع الفرسان ، فتنهد تنهداً طويلاً ثم امتطى جواده وسار في طريق باريس ، وبقي هنري وحده لحراسة الحصن .

— ٤ —

يمين الاخ

كانت جثة والد سنة موضوعة على مرتبة عالية في وسط قاعة الاستقبال الكبرى حسب اصطلاحهم في ذلك العهد وقد البسوه ملابسه الرسمية ووضعوا حسامه بجانبه وقبضته بيده .

وكان الصبح قد طلع وحنة لا تزال ساهرة على أبيها ، فقامت إلى النافذة وأطلقت نظرها إلى عجائب الربيع البادية في ذلك البستان كأنما كانت تلتمس تفريج كربتها بالنظر إلى تلك الأشجار المزهرة والسهول المفروشة بالنبت الأخضر والطيور المختلفة الألوان ، ولكنها لم تجد بين تلك الأشجار الباسمة ما يشبه ابتسام أبيها فعادت اليه تبكي بالدمع الغزير وتناجيه بارق الالفاظ .

وفيما هي على ذلك سمعت وقع حوافر جواد فقالت في نفسها : هو ذا فرنسوا قد أقبل ، وسارت لاستقباله ، فلم تكن تبلغ الباب حتى وقفت حائرة مبهوتة ، ذلك إنها رأت هنري دي موتورانسي قد جاء بدلاً من أخيه .

أما هنري فانه دنا منها وقال لها : اني قادم اليك بنبأ أقسمت على أن
أبلغك اياه في هذا الصباح ، ولولا ذلك لما وجدتني قادماً اليك في هذه الساعة
التي تنتظرين فيها سواي .

فارتعشت جسمه وحدثها قلبها بوقوع مصيبة جديدة ، فقالت له :
ماذا حدث ؟

— ان فرنسوا قد سافر

فتنهدت تنهداً يشبه الأنين وقالت : كيف سافر ؟.. ولكنه سيعود
دون شك .

— بل انه لا يعود .

وقد لفظ هذه الكلمات القاسية كما يلفظ القاضي الصارم الحكم على مجرم
بالاعدام . فوضعت جنة يدها على قلبها وقد اوشكت ان تسقط على الأرض
إذ خطر لها ان فرنسوا قد تخلى عنها ونظرت إلى هنري نظرة السائل دون
ان تجسر على السؤال .

فنظر اليها هذا الأخ المنافق نظرة المنهكم وقال لها ان الحرب قد عادت
إلى اللشوب ، فالتمس أخي فرنسوا أن يكون في طليعة المحصورين في تيرران
كي يوقف جيش شارلكان العظيم ، وليس لديه غير الفي فارس ، فكأنه قد
التمس الموت .

ولا بد لي من ابداء ما علمته من السبب في عزمه على هذا الانتحار ،
وهو انه شعر بما ارتكبه من الخطأ فاستكبر انكار زوجه ، وخشي اذا
انكشف به غضب ابيه امير الجيوش ، ففضل الانتحار المجيد ، وهو الموت
تحت الأسوار .

فامتقع وجه جنة حتى بات أشد اصفراراً من وجه ابيها الميت وخرج من
صدرها انين هائل فسقطت جاثية على الأرض لاضطراب ساقيها ونظرت إلى
السماء وقالت : رباه ماذا اصنع بولدي ومن يعوله

ولبثت على ذلك مدة طويلة وقد نسيت وجود هنري ونسيت موت ابيها فلم تذكر في هذا الغنوط غير ذلك الجنين الذي اصيب بهذه النكبة الفادحة قبل أن يولد

ثم وقفت فرأت هنري لا يزال واقفاً ينظر اليها دون أن تبدو على وجهه شيء من علائم الاشفاق .

فقالت : حيث يكون الزوج تكون المرأة ، فأنا ذاهبة إلى تيروان

ـ ولكنك لا تعلمين انها مدينة محاصرة لا سبيل إلى ولوجها ، بل انك تقتلين قبل الوصول اليها .

ـ بل سأذهب .

ـ كلا ، انك لا تذهبين .

فهاجت المنكودة لما سمعته وقالت : من يمنعني عن الذهاب ؟

وكان هنري هائماً بها هياماً عظيماً دعاه إلى ارتكاب الجريمة فزادها يأساً ودموعها جمالاً في عينيه .

ـ انا أمنعك ، ثم أسرع فضمها إلى صدره

وقال . حنة . . انه سافر وتخلى عنك وقد جبن عن المجاهرة بحبك فهو لا يستحق منك هذا الحب .

أما أنا فاني أعبدك وأحبك حباً أقتل من اجله ابي بيدي اذا اعترضني فيه .

فليمت فرنسوا موت الجبناء لأنه جبن عن الاحتفاظ بك . ستكونين زوجتي أمام العالم أجمع ...

حنة .. كلمة رجاء من فمك الجميل ...

لا تقولي هذه الكلمة ، وانظري إلي نظرة واحدة تحملني على هذا الرجاء . فاذا رضيت بأن تفتحي لنفسي ابواب هذا النعيم ابتعدت عنك سعيداً مطمئناً فلا أعود إلى حين تأمرينني أن أعود ، وعند ذلك أكون بين يديك أشد وفاء من الكلب في حراسة المنزل وأشد قوة من الأسد في الدفاع عن العرين .

موقع قاموس الرياحين

وكان يكلمها وهي لا تزال بين يديه وقد بذلت كل قواها كي تتخلص من ذراعيه ، حتى إذا أفلتت منه ابتعدت عنه ونظرت اليه نظرة هائلة كادت تصعقه وقالت له بملء العظمة والكبرياء إرفع قبعتك أيها الرجل فإذا كنت لا تحترم النساء فاحترم الأموات .

وارتعش هنري ونظر إلى قبعته يحاول انتزاعها إحتراماً للميت ، ولكن يده لم تكد تصل إلى القبعة حتى سقطت إلى موضعها ، وتغلبت عليه الكبرياء والتمعت عيناه ببارق من نار فقال : ألا تعلمين يا سيدتي اني هنا في منزلي ، وان من كان في منزله لا يتقيد بهذه القيود .

ولم تفهم حنة مراده وقالت له : أنت هنا في منزلك ؟

ـ نعم اني في منزلي ، فقد صدر أمر البرلمان برد منزلكم وأراضيكم الينا ، ولا أحتمل أن أرى المقيمين في منزلي .

ولم تدعه حنة يتم حديثه إذ أسرعت إلى صندوق صغير كان أبوها يضع فيه أوراقه ففتحته وأخرجت منه نسخة ذلك الأمر الصادر من البرلمان فقرأته مسرعة ، ثم القته إلى الأرض ونادت الخدم بصوت مرتفع قائلة : يا جاك ، ويا غيليوم ، ويا رودريك ، ويا بيير ادخلوا ... أدخلوا جميعكم .

وحاول هنري أن يتكلم ولكنها لم تصغ لحديثه ، وسمع الخدم صوتها وأقبلوا مع بعض الفلاحين .

فقالت لهم : ادخلوا جميعكم واعلموا هذا النبأ الجديد وهو اني لست هنا في منزلي ..

فقال لها هنري بلهجة المؤنب : سيدتي ..

ودنت حنة من جثة أبيها وأمسكت يده الباردة وهزتها قائلة :

ـ أليس كذلك يا أبي . ألم يطردونا من منزلنا ويغتصبوا أرضنا ..

قل يا أبي ، أيمكن البقاء ساعة بعد ، في هـذا المنزل الذي نحتقر

وتهان فيه ...

وأنتم ألا ترون ان هذا المنزل لم يعد لنا، بل لتلك الأسرة الظالمة .

ألا ترون كيف يطردون منه جثة أبي ...

اخرجوها من هذا المنزل ...

أسرعوا فلا أريد أن تبقى دقيقة فيه لأنها لم تهن في الحياة فلا تهان في الموت ..

ثم اندفعت تحث الخدم والفلاحين على إخراج الجثة وقد ابيضت شفتاها واحمرت عيناها وتهدج صوتها ومنع اليأس سقوط دمعها ، فحمل الخدم سرير الفقيد على أكتافهم ومشوا وفي طليعتهم حنة .

أما هنري فانه وقف وقفة المبهوت ، وقد رأى الخدم يحملون جثة الشيخ ، ورآهم خرجوا بها من القاعة تتقدمهم ابنته ، ولبث حائراً مبهوتاً إلى أن توغل الموكب في القرية ، فضرب الأرض برجله وخرج حانقاً مغضباً وامتطى جواده وأطلق له العنان ، فمرق به مروق السهم وهو لا يعلم إلى أين يسير .

أما حنة فإنها لبثت تعارك اليأس حتى وصلت جثة أبيهـــا إلى منزل مرضعتها ، وهناك خارت قواها وتغلب سلطان اليأس وسقطت مغمياً عليها دون أن تذرف دمعة .

وتلا هذا الاغماء حمى شديدة أضاعت رشدها ولم يبق عليها من دلائل الحياة غير ما كان يعتريها من الهذيان .

* * *

أما هنري فقد كانت ليلته هائلة ، وكان يذكر ما فعله فيندم ويخجل ثم يذكر احتقارها إياه وغرامه بها يهيج ثائره وينسى ذلك الندم .

ولما أشرق الصباح عاد إلى منزل حنة وهو عاقد نيته الفاسدة على إحداث كل مكروه والاقدام على كل منكر حتى على القتل .

ولما وصل إلى المنزل علم ان حنة مشرفة على الموت ، وكان هذا الخبر وقع اليم من نفسه السافلة وجعل يردد كل يوم حول منزل المرضعة المقيمة فيه حنة مستطلعا أخبارها .

مضى على ذلك عدة شهور لم يكن غرامه إلا ليزيد اتقاداً .

وقد اتصل به يوماً ان مدينة تيرنوان المحصورة قد سقطت في يد شارلكان وأن الهامية قد ابيدت ، وإن أخاه فرنسوا قد اختفى .

فقال في نفسه : انه اختفى وربما بات قتيلا .

وتولد الرجاء في نفسه لاسيما بعد أن مر بوادي مونمورانسي بعض الذين تمكنوا من الفرار من المدينة المحصورة فاخبروه بتفاصيل الحصار وتلك المذبحة الفائقة التي حدثت فيها ، وكيف أباد السيف والنار الهامية وكيف ان فرنسوا مونمورانسي قائد الهامية قد اختفى ولم يعلم بمصيره أحد ، ولكن الرأي العام كان مجمعاً على انه مات .

وقد حدثه أحدهم انه رأى أخاه مرة وراء متراس ضعيف يهاجمه ثلاثة آلاف من جنود شارلكان ، ثم لم يعد يراه بعد ، فأيقن هنري إن أخاه بات قتيلا ، وجعل يردد حول المنزل المقيمة فيه حنة وهو آمن مطمئن ينتظر شفاء تلك المنكودة .

إلى أن اتفق يوماً أنه رآها من نافذة ذلك المنزل ، وذلك بعد أحد عشر شهراً من سفر أخيه ، فاضطرب قلبه لمرآها بما استدل به انه لا يزال والهاً بها أشد الولوع .

وقد رآها بملابس الحداد ، ولم يعلم إن كان حدادها على زوجها أو على أبيها ، ولكنه رأى بين يديها طفلاً تقبله وتضمه إلى صدرها بحنو الأمهات ، فعاد يشي الهوينا وهو يعد في قريحته الجهنمية خطة هائلة ، وهي ان حنة

شفيت من علتها ، وصار يسهل عليه ان يختطفها ويمضي بها الى الحصن كما يفعل الأقدمون .

وقد رسخ هذا الخاطر في ذهنه فاطمأن له وعاد إلى الحصن وهو يفكر بطريقة الأختطاف .

ولما وصل الى الحصن رأى فارساً مغبراً بالغبار ترجل عن جواده ودخل إلى الحصن فارتعش لرؤياه ولم يعلم السبب في هذا الارتعاش ، ولكنه رأى علائم البشر على وجه هذا الفارس ، فأيقن انه قادم ببشارة سارة ولم يجسر على سؤاله .

ولكن هذا الفارس لم يلبث أن رآه حتى أسرع اليه فانحنى أمامه بملء الاحترام وقال له : أبشركم يا مولاي ، إن مولاي فرنسوا دي سوفورانسي قد نجا من الأسر وسيصل بعد غد إلى حصن آبائه وقد أرسلني كي أبشر بذلك أخاه العزيز ومن يحبهم .

فأطلق هنري سراح الفارس بإشارة كي يخلو له الجو بالاسترسال إلى غضبه ثم تصاعد الدم إلى عينيـــه وهدد السماء بقبضتيه وسقط على الأرض كما يسقط الثور في المجزر .

وحده فاضربه
منتدى البلاس

- ٥ -

لويزا

أقامت حنة في غرفة مرضعتها أربعة أشهر، وهي تعارك الموت وبعارکها وقد تكشفت منها الحمى وأجمعت الآراء على أن هذه الحمى ستذهب بحياتها أو بعقلها.

ولكنها لم تمت ولم تفقد الصواب، بل تغلب شبابها على الداء فزال عنها الخطر في الشهر الرابع وانقطعت الحمى كل الانقطاع

غير أن المرض أنهك قواها فهزلت ولم تستطع لضعفها مبارحة الفراش، وكانت إذا خلت إلى نفسها تتكلم بصوت الهامس، وتلفظ الفاظا يلفت منتهى الرقة والحنان، ولا يعلم سامعها إلى من توجه هذا الحديث ولكنها تعلم من تعنى به

ودامت على ذلك شهرين أيضا إلى أن دخلت أشعة الشمس في صباح يوم من أيام الخريف إلى غرفتها، وكانت تلك الأشعة جميلة لطيفة كأنها تودع الصيف، فشعرت حنة بقوة وانتعاش وطلبت أن تغادر الفراش.

وألبستها المرضع ثيابها وهي تبكي لفرحها بشفائها.

وقامت حنة تحاول الخروج من الغرفة لما مشت فيها خطوتين حتى وضعت يدها على أحشائها وصاحت صيحة ألم شديدة، ذلك ان ساعة ولادتها قد دنت فأعادتها المرضع إلى السرير.

وكانت ساعة هائلة كادت روح حنة تخرج من صدرها حتى انتهى الأمر ولما فتحت عينيها قالت لها المرضع وهي تضحك وتبكي في حين واحد ... انها فتاة .

– بل هي لويزا ، فإني أدعوها منذ الآن باسم أمي .

ثم أخذت ابنتها بين ذراعيها ونظرت اليها نظرة تشف عن السرور والحزن معاً فقبلت رأسها وقالت : أحق يا ابنتي انك ستكونين من غير اب ؟

* * *

وجعلت لويزا تنمو نمو الزهرة حتى اذا تبينت تقاطيع وجهها أيقنت أمها انها ستكون مفرغة في قالب الجمال وآية من آيات الحسن . ولم تعد حنة تعيش لنفسها ، بل من أجل طفلتها فإنها كانت ترى كل نظرة من نظراتها سحراً ، ولم تكن تحب ابنتها بل كانت تعبدها ، فكانت هي تمثل حقيقة الأمومة ، كما كانت بنتها تمثل حقيقة الجمال .

ولكنها في المساء حين كانت بنتها تنام في حضنها ويدها الصغيرة في شعرها كانت حنة تنقطع عن التفكير بها وتنصرف بأفكارها إلى ذلك الزوج ، بل الى ذلك الأب الذي وهبته حياتها بحملتها قبل ان تهبها لتلك المولودة الجديدة ثمرة ذلك الغرام القديم

وكانت تناجي نفسها به فتقول : أحق انه هجرني عنتجاً بالحرب كي ينجو من العار ؟ أحق انه هجرني إلى الأبد فلا أراه بعد اليوم ؟ وما بال أخباره قد انقطعت عن الناس ، العله مات ؟

وكانت تسترسل إلى هذه الأفكار فينقطع قلبها قنوطاً وتسيل الدموع من عينيها فتسقط أحياناً على وجه ابنتها فتوقظها .

وعند ذلك تعود حنة اما فتنقطع عن البكاء والتأوه إلى تنويم تلك الطفلة

تنسى بها الوجود ومن فيه .

وفي الشتاء وحنة ملازمة البيت لا تخرج منه إلا في القليل النادر ومتى خرجت لا تتجاوز الغرفة حذراً من ان تلتقي بإنري دي مونمرانسي ، لأنها كانت اذا افتكرت به اقشعر جسمها واضطربت كأوراق الخريف .

وجاء الربيع وبلغت ابنتها الشهر السادس من عمرهما وكان كل شيء في الوجود يبتسم بجمال الربيع ما عدا قلب هذه الأم الطريدة المنكودة .

ففي يوم من أيام مارس ذهبت المرضع مع زوجها للاحتطاب من الغابة وبقيت حنة في المنزل تنظر الى ابنتها بملء الحنو وقد نومتها في سريرها .

وكانت الغرفة المقيمة فيها تشرف على الحديقة من نافذة كانت مفتوحة في تلك الساعة .

وفيما هي تتمعن بجمال ابنتها سمعت قرع الباب فخرجت من غرفتها وذهبت لترى من الطارق فوجدته شيخاً يتسول فدخلت إلى المطبخ وجاءته بقطعة من الخبز ، ودفعتها اليه معتذرة وتلقاها الفقير بالشكر والدعاء والعرفان .

وأقفلت حنة الباب وعادت الى غرفتها ، وكان أول ما وقع نظرها على السرير الناقلة فيه ابنتها .

ولكنها لم تلبث ان نظرت إلى ذلك السرير حتى صاحت صيحة هائلة .. صيحة لبوة فقدت أشبالها .. صيحة لا تصل الى وصفها الأقلام ، ذاك لأن حنة الأم المنكودة الشقية لم تجد طفلتها في السرير .

وحدة فاضلة
منتدى الياسين

- ٦ -

عودة الاسير

لقد تقدم لنا وصف حنو حنة على ابنتها ، وكيف كانت تعبدها ، فلم تكن تبحث عنها بعد فقدها بحزن وقنوط ، بل بحث من فقد روحه ولا حياة له بغير الروح .

ولبثت على ذلك أربع ساعات تبحث ولا تجد ، وتلتمس الموت فيوقف يدها الرجاء بايجاد تلك الضالة ، فتقطع شعرها وتمزق جلدها باظافرها وتطوف من غرفة الى غرفة طواف المجانين .

وفيما هي على ذلك وقد كاد يفتك بها اليأس سمعت حساً في الغرفة التي كانت نائمة فيها ابنتها فأسرعت الى تلك الغرفة وثباً فوجدت فيها هنري دي مونمرانسي ، شقيق زوجها وقد دخل اليها من النافذة .

فنظرت اليه نظرة هائلة وقد جمد الدم في عروقها وقالت له : أهذا أنت ! أنت الذي لا اراه الا في أشقى ساعات حياتي .

فأسرع هنري اليها وقبض على يديها وقال لها بصوت منخفض : إنك تبحثين عن ابنتك منذ ساعات فلا تجدينها ، ولن تجديها الا اذا أردت ، فأنا الذي اختطفتها والويل لك ان لم تصغي اليّ .

فزأرت حنة زئير الأسود وقالت له : أيها الشقي اختطف ابنتي ثم تجسر على المثول أمامي . سوف تعلم أيها السافل ما تفعل الأمهات .

وحدة فاضية
ستقدم ليا دبس

ثم تحركت حركة عنيفة تريد الافلات منه ، ولكنها لم تستطع فشد
على يديها وقال لها : اسكتي واصغي إلى ما أقوله لك ان اردت إن
لي بنتك .

فلم تسمع الأم من أقواله غير كلمته الأخيرة ، ورأت أنها لا تستطيع
الافلات منه ، فجعلت تتوسل اليه وتقول : رحماك رد إلي بنتي إني أقبل
لموطيء قدميك إذا فعلت ... إني أكون عبدة لك ما حييت ... رد إلي
ابنتي يبارك الله .

أصغي إلي : ان ابنتك في قبضة رجل من رجالي قد قلبه من حجر
أصم ، وقد اتفقت واياه بشأنها .
أصغي إلي و تتحركي ...

إني اتفقت مع هذا الرجل العائل أن أقف عند هذه النافذة وأرفع قميصي
حيث يراها ، ومتى رآها أغمد خنجره وأغمده في صدر ابنتك .
ثم تركها ردنا من النافذة .
فقال لها دافعي إذا شئت بعد الآن .

فسقطت تلك الأم المنكودة على ركبتيها وحاولت الاستغاثة فلم تستطع ،
ولكنها رفعت يديها إشارة إلى الخضوع والامتثال .
فنهضها هنري وقال لها : لقد عرفت الآن موقف ابنتك فهل عزمت
على الخضوع .
فأومأت برأسها اشارة الى القبول فقال لها : اصغي إلي الآن . ان فرنسوا ..
أخي فرنسوا ، في قيد الحياة ، وقد عاد الى الحصن ، اتسمعين ؟

إني سأحدثه أمامك أحاديث كاذبة عنك ، فإذا لم تكذبي مما أقول
وتبقي الصمت ترد اليك ابنتك في هذا المساء ، وإذا فهت بكلمة واحدة
تناقض قولي أشرت بقميصي إلى الرجل فأغمد خنجره في قلب بنتك ...
هنري هوذا فرنسوا قادم .

فنظرت حنة فرأت فارساً ينهب الأرض بجواده ، فتثبتت انه زوجها وصاحت بملء صوتها تقول إلي ، إلي يا فرنسوا !

فلما سمعها هنري تستغيث ذهب بسكينة وحشيه ونظر الى حنة نظرة هائلة تبينت منها صدق عزيمته وقال لها : أنت أردت قتل ابنتك ، فلتمت !

ثم مد يده الى قبعته يحاول الإشارة بها حسب اتفاقه مع ذلك الرجل

فتمثل الخطر لحنة فركعت أمامه وقالت له رحماك لا تفعل .. سأصمت ولا أبوح لزوجي بشيء ولا أكذبك بحرف .

وعند ذلك فتح فرنسوا الباب ودخل وهو سكران من الفرح والحب .

* * *

عاد فرنسوا دي مونمورانسي بعد أن لقي الاهوال في حصار تلك المدينة ، وبعد ان حسب أبوه وأخوه وقومه انه من أهل القبور .

ولقد كان سافر بالفي فارس كما تقدم فبلغ تيرنوان بسبعماية منهم ، وقتل الباقون في الطريق .

فدخل بهم المدينة عند المساء قبل أن يحاصرها الأعداء .

وفي الليلة نفسها هاجمها جيش من الالمانيين والاسبانيين والفوا أسوارها باللغوم .

وفي الصباح أعادوا الكرة بجيش آخر ، فكان الجنود وأهالي المدينة يتلهبون تحمساً بما كانوا يرونه من بسالة قائدهم الأكبر ، فان فرنسوا كان يقدم بفرسانه على الأعداء هجوم المستميت ، فتمكنوا من صد خمسة عشر هجوماً على قلة عددهم وكثرة جيوش المحاصرين ومعداتهم .

ودام الحصار ثلاثة أشهر دون أن يتمكن جيش شارلكان من افتتاح المدينة عنوة ، فبدأت عند ذلك المخابرات وأقبل وفد من الجيش المحاصر ليعرض على المحصورين شروطاً شريفة للتسليم .

فاستقبلهم فرنسوا على الأسوار يحيط به أركان حربه وهم ممزقوا الملابس مشوهوا الوجوه بالبارود .

وبينما كان الوفد يعرض اقتراحات الامبراطور وفرنسوا يتأهب للجواب ، سمعت صيحات هائلة وأصوات الفرنساويين يقولون إلى السلاح ، فتجيبهم أصوات الاسبانيين إلى الموت إلى الموت !

ذلك ان جيشاً من الاسبانيين فتح الأسوار منفذاً وهجم منه على المحصورين خلال المخابرة دون أن يتلقى أوامر رؤسائه كما يقول المؤرخون .

وبعد دخول هذا الجيش شبت النار في المدينة ، فحدث مزيج هائل بين اشتعال لسان النار وتفجر اللغوم ودوي رصاص البنادق .

فلما أمسى المساء لم يبق من أولئك المحصورين الأبطال غير ثلاثين بطلا يدافعون عن نفوسهم دفاع القانطين ، وفي طليعتهم رجل كان يقاتل بسيفين ، فما زال يقاتل ويقتل حتى أصيب بضربة على رأسه ، فسقط على الأرض وكان بسقوطه ختام الدفاع .

ان هذا الرجل كان فرنسوا دي مونمورانسي ، وقد دافع عن المدينة حتى الموت كما وعد أباه .

وفي الليل وجدته الجنود الطوافة في المكان الذي سقط فيه ، فعرفوه ورأوا أنه لا يزال في قيد الحياة ، فحملوه إلى القائد العام فأمر بمعالجته مع الأسرى الجاريح .

ودامت الحرب بعد سقوط تيرنوان فكانت سجالا بين الفريقين إلى أن عقد الصلح بينهما فاطلق سراح جميع الأسرى .

أما فرنسوا فانه لم يمت كما أشيع بل شفي من جراحه ولبث في معسكر الأعداء إلى أن عقد الصلح وبشروه باطلاق سراحه ، فعاد إلى حصن أبيه مع خمسة عشر من رجاله ، وأرسل واحداً منهم يتقدمه ويبشر

قومه بعودته ، ثم واصل السير وهو يود لو كان له أجنحة فيطير
إلى من يحب ، فلمـــا ظهر له حصن أبيه الشامخ خفق قلبه وأدمعت عي
وأطلق لجواده العنان .

* * *

كانت أجراس الكنائس في مونمورانسي تدق مستبشرة بعودة نجل أمير
الجيوش ومدافع الحصن تدوي فيرتج بدويها الفضاء وأهالي المدينة محتشدون
في المكان الذي سيمر به فرنسوا وهم يهتفون له بالدعاء وجنود الحامية وقوف
على أبواب الحصن بالسلاح لاستقبال ابن أميرهم ، وحاكم المدينة يتقدم الجمع
ليتلو خطاب الاستقبال .

فلما وصل فرنسوا كان أول ما سأله « أين أخي » ؟

فبدأ الحاكم خطابه قائلا « أن هذا اليوم السعيد من .. »

فقاطعه فرنسوا قائلا : سأسمع خطابك في الحصن ، فقل لي الآن أين أخي
وكيف لم يحضر لاستقبالي ؟

— أنه في مارجنسي يا مولاي .

فلكز فرنسوا بطن جواده وقد أضطرب لوجود أخيه عند زوجته ولعدم
حضوره لاستقباله .

وما زال يسابق الرياح بجواده حتى وصل الى منزل والد جنة فنزل عن
الجواد ودخل الى فناء المنزل فوجده مقفلا .

وكان هناك خادم شيخ فناداه ، وقبل أن يسأله مد الشيخ يده الى منزل
مرضعة جنة وقال له :

— أنك تجد هناك التي تبحث عنها يا مولاي .

— لماذا تدعوني مولاك ؟

— أجاب ليس هذا المنزل لكم الآن ؟

فلم يسأله فرنسوا أكثر من ذلك واسرع مهرولا إلى منزل المرضعة وهو
يتوقع مصيبة هائلة ، إذ كان أول ما خطر له أن جنة ماتت .

فلما وصل الى ذلك المنزل فتح بابه بعنف فلقي جنة فيه وصاح صيحة فرح
وقد بسط ذراعيه لمعانقتها .

ولكن جنة لم تلبث أن استرخت ولم يلبث هذا الفرح أن استحال الى ذعر
فاضطرب قلبه إذ رأى جنة رافقة وقوف الاصنام ، وقد اصفر وجهها وبدت
عليها علائم الرعب ، فقال في نفسه : لعل ذلك من تأثير تقريع الضمير .

ومشى ثلاث خطوات الى امرأته وناداها باسمها .

فأجابته تلك المنكودة بتنهد عميق وحاولت أن تهجم على زوجها فتعانقه
ولكنها نظرت الى هنري فرأت قبعته بيده كأنه يتأهب للاشارة بهـــا من
النافذة ، فجمدت في مكانها وتنهدت تنهداً كاد ينشق به صدرها .

فصاح بها فرنسوا صيحة هائلة بلهجة القانط قائلا .. جنة ...

ثم نظر الى هنري وقال له : أخي .

فجعل الأخ والزوجة ينظران اليه دون أن يتكلما نظرات كاد يجن لها ،
فوضع يديه عنـــد ذلك ببطء فوق صدره ، ثم تنهد تنهداً خرج من صدره
كالزفير وقال بلهجة الكئيب المبتئس ما يأتي .

— أن قلبي لم ينبض منذ عام إلا بهوى المرأة التي ملكتها قلبي والزوجة
التي تدعى باسمي ، فما كنت انظر في ساعات اليأس غير وجهها المعبود ولا
يشغل فكري في المعارك إلا اليها ، ولما سقطت في معمعة القتال ذكرت اسمها
وكنت اعتقد أنه آخر كلمة تخرج من فمي .

فما صحوت من اغمائي ووجدت نفسي أسيراً محروماً كان خيالها عزائي
الوحيد ، وكنت إذا قلقت عليها لاني غادرتها وحدها أذكر أن أخي المخلص
الحبيب أقسم لي على العناية بها فاطمئن ويهدأ خاطري المضطرب . والآن

عدت وقلبي يخفق خفوق أجنحة الطائر من الشوق اليها وأنا أحسب أن ا
قد بسم لي والسعادة باتت طوع يدي ، فماذا لقيت ؟ لقيت تلك الزوجة
مني ، ولقيت ذلك الأخ لا يجسر أن ينظر إلي ..

ولا يعلم غير الله ما كانت تكابده تلك المنكودة في هذه الساعة ا
الرهيبة فأن شقاءها لا يصفه قلم بليغ ولا يدرك حقيقته فكر انسان
كانت تحب زوجها حب عبادة ، فبينما تدفعها شعائر قلبها الى معانقته تنظر
قبعة ذلك الرجل الجهنمي في يده فترتد لاشفاقها على بنتها من القتل الفريع

وقد كانت تسمع كلام زوجها المؤثر ، ولكن فكرها لم يكن معه
لما قاله لها هنري « وهو اذك إذا فهت بكلمة أو كذبتني بلفظ قتلت ا
دون اشفاق » .

ابنتها ، وهي تلك الطفلة الظاهرة البريئة ثمرة أحشائها وغاية أمانيها
هذا الوجود . أنها في قبضة وحش مفترس ينتظر إشارة وحش مفترس
ليغمد خنجره الهائل في قلبها الصغير .

في قلب تلك الطفلة التي لم تجر عليها غير الثغور بقبلات الحنو فكير
تطيق تضحيتها وهي أمها .

أيتها الأم الشقية انك عظيمة في شقائك عظيمة في صبرك عظيمة
كتمانك .

وعضت حنة شفتها حتى أدمتها ، وذلك كي تتمكن من ضبط نفسها ول
فرنسوا حديثه حتى نظر اليه أخوه نظرة الذئب وليث واقفاً بجانب الثا
المفتوحة وقبعته بيده كي يشير بها عند الاقتضاء وقال له . أيها الأخ المك
أن الحقيقة محزنة ولكن لا بد لك من الوقوف عليها .

ـ قل ، أني أريد أن أعرف كل شيء .
ـ إذاً فاعلم أن هذه المرأة ...
ـ كيف تقول هذه المرأة وهي امرأتي .

ذاك وتكلم أيها أخوك قد طردتها .
الجدار حذر السقوط ، وأنت حنة أنيساً لا يصفه
لإنسان لأن بكيتها لم يرد لها نظير في تاريخ الانسان .

استأنف هنري الحديث دون ان يتزحزح عن النافذة فقال : أيها الأخ
المظلوم ان هذه المرأة لا تستحق ان تتشرف باسمك إنها خائنة فلم أجد بداً
من أن أخونها وأن أطلق من طردها .

وقد كانت الشكوى ظاهرة جلية ، وكان عقاب الزانية في ذلك العهد
يتم بالسياط في الساحات العمومية ، او الشنق دون محاكمة . فكان بوسع
فرنسوا ان يعاقبها هذا العقاب ، وهو الحاكم المطلق في غياب أبيه فكان
موقف الثلاثة منجماً بعد هذه الفضيحة . فإن هنري كان متأهباً لكل طارىء
وهو واضع إحدى يديه على قبضة خنجره وممسك قبعته بالأخرى كي يشير
بها عند الاقتضاء .

وقد كان ينظر إلى فرنسوا وحنة نظرات تدل على السكينة ، ولكنه
كان حاسماً على قتل الاثنين إذا كذبته حنة ، بينما عامله يقتل طفلتها
بعد إشارته .

وأما حنة فإنها حين سمعت هذه الشكية الهائلة ، هاجت كبرياؤها ،
وتغلبت فيها عواطف الشرف على عواطف الأمومة . فمشت خطوة إلى
فرنسوا وهمت أن تبوح لزوجها بكل ما حدث .

ولكن هذا العزم لم يكد يجول في خاطر تلك المنكودة حتى رأت هنري
يبتسم ابتسام الساخر ورأت يده بدأت ترتفع بقبعته . فتراجعت منذعرة
الى موقفها ، وأطرقت برأسها الى الأرض ، وألجمت لسانها عن القول ، وهي
لا تدري ماذا تصنع . فقد كان مثلها مثل الواقف في مكان ضيق شاهق
بين وادين عميقين ، إذا مشى خطوة الى الأمام أو خطوة الى الوراء سقط في
الهوة الهائلة

وأما فرنسوا فقد هزته النكبة ، كما تهز العاصفة الشجرة ، وأ
لقلبه النبيل في تلك الساعة الرهيبة ان يندفع مع تيار الغضب
حاول ان يسكن هياج غضبه ، ويكون أكبر من المصيبة
نكب بها .

فلما تمكن من ضبط نفسه وشعر انه بات قادراً على اتقاء بوادر غضبه و
إذا حدث امرأته لا تدفعه الحدة الى خنقها مشى اليها وعيناه تقذفان بلهب
نار وقال لها : أحق ما يقول ؟

فنظرت حنة الى هنري نظرة منكسرة ثم لزمت الصمت وهي ترجو أن
زوجها لتستريح .

وعاد فرنسوا إلى السؤال فقال : أحق ما يقول ؟

وهنا خارت قوى تلك الشقية ، لأنها بشر ، وما نكبت به كان فو
قوة البشر .

فسقطت ولكنها لم تسقط على ركبتيها مستغفرة نادمة كما كان يشتهي
فرنسوا ، ولم تبسط حقيقة أمرها كما كان يخشاه هنري ، بل سقطت على الأرض
وقد صدعتها النكبة .

فكان آخر ما نظرته يد ذلك الشقي وقبعته ، وآخر ما قالته أو توهمت
انها قالته : (لأمت ، ولتحيى ابنتنا) ، ولم يبق عليها من دلائل الحياة
غير خفوق قلبها .

ونظر اليها فرنسوا لأول وهلة نظرة آدم الى الجنة حين طرد منها ، وكان
يرجو ان يسقط صريعاً قرب تلك المرأة التي طالما أحبها . ولكن الحياة انتصرت
فيه على الموت .

فخرج من ذلك المنزل دون ان يفوه بكلمة ، ومشى مشياً بطيئاً وهو لا
يعلم أين يسير .

أما هنري فإنه تبعه على مسافة قصيرة دون ان يكترث لحنة ، فقد ذاق

أنها إذا عاشت فستكون لي ، وإذا ماتت أكون قد أرحت نفسي
من مطاردة الغيرة ، فلا أحيى الليالي ساهراً منكداً بينما هي مع أخي يجني من
عناقها ثمار الغرام .

وقد أدرك في تلك الساعة حقيقة بغضه لأخيه ومبلغ انتقامه منه ولكنه
لم يكن قانعاً بما فعل بل كان يريد ان يكابد ذاك الأغ النبيل نفس ما كابد قلبه
الباقل من الآلام خلال غرامه الفاسد مدة عامين .

ولذلك كان يسير في اثر أخيه بملء الصبر والسكينة ، وهو يترقب
الفرصة المناسبة .

أما فرنسوا فكان يسير وهو مطرق الرأس مضطرب الحواس ضيق الأنفاس
فيمشي الى حيث تدفعه قدماه .

وبعد ذلك بعدة ساعات وانتبه فرنسوا من غفلته ورأى ان الشمس قد غربت
وانه يسير في غابة من الكستناء فجلس عند جذع شجرة وحمل رأسه بين يديه
وجعل يبكي بكاء اليماً .

وقد طال بكاؤه ، وكأنما الدموع قد ردت اليه هدأة ، فأخذ يتمعن في ما
صار اليه ويذكر ماضيه .

فذكر غرامه واجتماعه مع حنة في منزل مرضعتها ، وما جرى له مع أبيها
وكيف عقد زواجه عند انتصاف الليل وسفره الى تيرنوان ، وأخيراً هذه
النكبة الهائلة التي فاجأته حين رجوعه .

ثم هاج العواصف ، وأومض البرق في عينيه ، فقال في نفسه : ترى
من هو هذا السافل الذميم الذي سلبني شرفي ونعيمي ؟ . ويح لنفسي
إني حاولت الرحيل بجرحي الدامي ، قبل ان أنتقم من هذا الرجل
وأقتله بيدي .

وقد كان فرنسوا كريم القلب ، شديد الرفق ، ومع ذلك فقد تعزى
بالقتل والانتقام

ونهض واقفاً وتنفس تنفس المتفرج وقال يجب ان أعرف هذا الرجل حياته كما سلبني امرأتي ونعيمي .

ولما وقف التفت فرأى أخاه هنري قريباً منه ، فلم يستطل وكلمه بلهجة البساطة ، كأنه يتم حديثاً دائراً بينهما فقال له : أخبرني بحقيقة ما جرى .

فأجابه هنري بلهجة المشفق : أية فائدة يا أخي من أن أقص عليك التفاصيل المؤلمة ، فلا دواء يشفيك الآن .

— لقد أخطأت يا هنري لأن الدواء الشافي موجود .

— ما هو ؟

— هو قتل الرجل الذي خدعني .

فارتعش هنري واصفر وجهه قليلا ، ولكن ذلك لم يدم غير لحظة ثم بعده عيناه ببارق غريب وقال له أتريد ان تعلم ؟

— نعم أريد فلقد أقسمت لي ان تعتني بامرأتي ، وأن تكون وكيلي في قضاء حاجاتها .. فوجب عليك أن تخبرني بحقيقة الم وباسم الجـــاني ... نعم ، إن ذلك يجب عليك ، وإذا أبيت أ أن تتكلم .

— أتأمرني بحق الأخوة أم بحق السيادة في غياب والدنا ؟

— بحق السيادة .

— إذاً ، أمتثل ... فاسمع ، إنك لم تكد تـبرح حصن مونمورا الى الحرب ، حتى أظهرت مدموازيل دي بيانس ، لذلك الرجل ، ف بغيابك .

— إبدأ باسم هذا الرجل لأني أريد معرفة اسمه قبل كل شيء .

— صبراً يا سيدي ، واعلم ان هذا الرجل كان يشاركك في نعيمك بل تحبه حباً صادقاً ولا تحب منك غير الجاه واللقب ، والآن إعلم إذ لم يكن

ان هذا الرجل ظفر بعنة قبل ان تظفر بها أنت وكانت خليلته

ان تكون خليلتك

فأن فرنسوا أيضاً خرج من صدره كالزئير وكانت هيأته هائلة حتى ان هنري

وقف عن إتمام الحديث

غير ان فرنسوا نظر اليه نظرة نارية وقال له : تكلم .

— إني أتم الحديث امتثالاً لأمرك ، فاعلم ان العلائق بقيت متصلة بين الرجل

وعنة بعد سفرك ، بل زادت تمكناً ، لان عنة اغتنمت فرصة غياب الزوج

وكانت مع عشيقها على أبدع ما يصفه الشعراء !.

— كفى كفى أيها الشقي انك تقتلني .

— إذاً أسكت ؟

— كلا ، تكلم تكلم .

— وان هذا الرجل كان يراقبك يا سيدي فلما علم بوصولك عمل ما تعمله أنت

وكنت في مكانه ، فإنه أراد غليك من هذه العشيقة وأشفق على بيتكم ان يطول

تلوثه بمثل هذا العار فطرد منه الزانية .

فشعر فرنسوا أنه أصيب بدوار ورأى ان الهاوية أعمق مما تصورها فنظر الى أخيه نظرة الجاحدين

أما هنري فقد تمثل قلبه الحـــاقد بين عينيه ، فقال لأخيه بلهجة التهكم المتقم

— إنك تريد ايها الأخ العزيز ان تعرف اسم هذا الرجل ، إذاً فاعلم ان عشيق عنة دي بيانس ، قبل ان تكون زوجتك ، يدعى هنري دي مونمورانسي .

- ٧ -

باردالیان الاكبر

(هو أحد بطلي هذه الرواية ، وإنما دعوناه باردالیان الاكبر للتفريق وبين ابنه المدعو بهذا الاسم أيضاً ، فسيكون لهما في وقائع هذه الرواية يدهش المطالعين) .

لم يكن هنري كاذباً حين أنذر حنة بقتل ابنتها ، فقد كانت الطفلة سجينة بين يدي رجل يراقب إشارته ، وقد رضي ان يغمد خنجره في صدر الطفلة حين يرى الاشارة .

وقد كان هذا الرجل الذي رضي بقضاء تلك المهمة العظيمة يدعى باردالیان او الشفالییه دي باردالیان .

وخلاصة تاريخ هذا الرجل انه كان من سلالة أسرة عريقة النسب ، بدأ مجدها منذ القرن الثالث عشر ، وانقسمت من ذلك العهد الى فرعين فرع مشى في طريق الفخر ، فزين بعض رجاله صفحات التاريخ ، فخرج منهم مونتلسبان الشهير ، والدوق دي أنغين ، الذي سمي باسمه أحد شوارع باريس .

وفرع لبث تاريخه مبهماً وبقي رجاله فقراء معدمين .

وقد كان الشفالییه دي باردالیان من هذا الفرع الأخير . فكان حين البدء في هذه الرواية في الخمسين من عمره ، شاب مفرقه في الحروب ، وهو

وذلك الجندي الاقاقين ينخرط في كل معركة ويسعى الى الحرب من كل باب يصطلي الحر والعطش في الصيف ويكابد مشاق البرد والجوع في الشتاء ، وهو تارة ينتصر وتارة يخذل .

وقد طرت آثار الجراح في جميع جسمه ، ولوحت الشمس وجهه ، فهو طيب القلب بالفطرة ، ميال الى الخصام بالعادة ، يرى كل ما يفعله واجباً فلا يفرضه الضمير .

وعلى الجملة فما هو من أهل الشر وما هو من أهل السلامة ، وكان أخص ما فيه انه إذا تنازع اثنان على استخدام حسامه انتمى الى أكثرهما جوداً ، وهو في كل أدوار حياته من أفقر الفقراء

وقد كان لقيه مونمورانسي أمير الجيوش ، خلال حروبه في أرمنياك ، فأعجب بجرأته وبسالته فجاء الى حصنه وعينه لخدمة ولده هنري ، حسب عادة الاسياد في ذلك العصر ، لان كل نبيل كان يعين لكل فتى من بنيه كهلا من كبار المحاربين .

فلما سافر أمير الجيوش الى الحرب وسافر ولده فرنسوا الى تيرنوان بقي باردالیان في الحصن مع هنري .

وحذر هنري خلال تغيب أخيه انه قد يحتاج الى رجل شديد الاخلاص فلم يلق أمامه غير باردالیان . فجعل يتملك نفسه بالعطايا ، ويقيده بالاحسان ويحامه خير محامية ، حتى امتلك رقبته ، وبات باردالیان متأهباً كل حين لافتداء هنري بنفسه .

فلما ذاع في الحصن خبر عزم عودة فرنسوا ، في اليوم التالي ، بعد ان يئس الجميع من رجوعه ، أخذ هنري باردالیان ، وهو مقطب الجبين ، وسار به الى منزل المرضعة الذي تقيم به ، وأمره ان يختطف لويزا بنت حنة .

وبعد ساعة رجع باردالیان الى حيث كان ينتظره مولاه ، وهو يحمل

بين يديه تلك الطفلة

فأمره عند ذلك هنري بما عرفه القراء ، وأعطاه خاتماً ثميناً من فأخذ باردالیان الهدية مكرهاً، وتلقى تلك الاوامر مستفكراً ووقف يشرف على نافذة الغرفة المقيمة فيها حنة ، بحيث يستطيع أن يرى هنري الهائمة .

أما هنري فانه اجتمع بحنة ، وقد عرف القراء ما حدث في الاجتماع .

وأما باردالیان ، فقد رأى فرنسوا دخل الى المنزل ، فوقف إلى النافذة ، وقد اصفر وجهه ، والطفلة نائمة بين يديه . فلم يجسر ينظر اليها .

فلما رأى فرنسوا خرج من المنزل ، وتبعه اخوه هنري دون ان يـ تلك الاشارة الهائلة ، تنفس الصعداء ، واشرق وجهه بعد العبوس وق لقد احسن هذا الوحش بعدم إبداء الاشارة ، لاني كنت عازماً على عد والعودة الى معيشتي السابقة . فمن يجسر على الفتك بهذه الطفلة البائسة الوحوش الضارية تشفق عليها .وفي كل حال احمد الله على ما اتفق فقد اصبـ كهلا وتعبت من مشاق الحياة . اما ان احتفظ بهذه الطفلة شهراً او شهرين امرني فلا اجد في ذلك بأساً .

ثم وضع لويزا في ردائه وسار بها مطرق الرأس الى منزله الكائن ب باب الحصن ، فأسرع لاستقباله غلام يبلغ الخامسة من عمره ، كان يلعب فناء المنزل .

فابتسم باردالیان وقال له : لقد جئتك يا جان بطفلة صغيرة ، تكو اختاً لك .

ثم نادى خادمته ودفع اليها لويزا وقال لها : إني اعهد اليك بهذه الطفلة على ان تعتني بها كل الاعتناء وحذار ان تبوحي بامرها لاحد .

اما هذا الغلام الذي ناداه باردالیان باسم جان فقد كان في الخامسة من عمره تقريباً وقد دل عياه على ذكاء متوقد ، وهو متين العضلات كالذئاب خفيف الحركات كالقط .

كان هذا الغلام ابن باردالیان اقامه مع مرضعته في ذلك المنزل عند باب الحصن وكان يأتي كل يوم اليه ليراه .

وقد عرف كل سكان الحصن انه ابن باردالیان ، ولكنهم لم يعلموا من اين اتى به ، لانه لم يكن له امرأة معروفة ، ولم يذكر هو كلمة عن مولد ابنه لاحد .

فلما دفع الطفلة الى الخادمة اخذ ولده واجلسه على ركبته وجعل يلاعبه وعيناه تضيئان بشعاع الحنو .

غير ان الغلام افلت من ابيه ، ووثب عن ركبته الى الارض ، واسرع الى لويزا ، التي كانت وضعتها الخادمة فوق سريره ، فضمها الى صدره ضماً عنيفاً وعانقها .

وما كانت الفتاة ، ولكنها فتحت عينيها الجميلتين وجعلت تنظر منذعلة الى الغلام

اما باردالیان فانه نهض فجأة وخرج من المنزل مطرق الرأس مفكراً مهموماً إذ كان يفكر في تلك الساعة بوالدة الطفلة ويأسها لاختطاف ابنتها ويقيسها التي نفسها لو خطفوا ولده فيشفق عليها ويتوجع لمصابها كما كانت تدل عبراته المتساقطة على خديه وهو يسير .

وبعد ساعة كان تحت نافذة غرفة حنة فرأى وسمع ما يلين له قلب الجماد من تلك المرأة ، التي استفاقت من إغمائها ، فعلمت انها فقدت حبيبها ولدها

وسمعت بعض يديها من اليأس وتلعن تلك الساعة التي وافقت فيها على الحصن وكتمت امرها عن زوجها .

ولكنها تفتكر بابنتها فيخفت صوتها وتقول: اني لو فهت بكلمة
ابنتي فأكون قتلتها بيدي ...

على ان هذا النمر الكاسر أقسم لي أن يرد لي ابنتي ، إن أطعته
ولم أكذبه فيما يقول ، وهو سيردهـا لي ، دون شك ، أليس
يا لويزا ؟

لويزا ، اين أنت يا ملاكي الحارس ويا كل نعيمي في هذا الوجود الا
الليلة يداك الجميلتان بشعر أمك ...

فرنسوا ، لا تصدق ما قال ، إنه من الكاذبين ...

فرنسوا ، إنه نذل سافل تجاسر ان يختطف ملاكنا الصغير ...

أيها الظـالم الدنيء ، رد إلي ابنتي .. إلي إلي .. لويزا ... إبنتي الا
نداء أمك ؟

وكانت تخلط في أقوالها بين محادثة زوجها وابنتها ، بكلام يتطير ان
من الاشفاق .

وأين للأقلام أن تمثل عواطف أم تبكي ولداً فقدته .

فلما سمع باردليان هذه الأقوال التي علم منها كيف يكون اليأس ، ور
وجه تلك الأم الشقية وقد أدمته أظافرها ، ورأى نظراتها التي كانت ت
نظرات حيوان يقتلونه ، فهي تارة تلتهب بنار الوعيد فيرتعد لها البطل و
تذبل ذبولاً يكي عيون الجلاد .

إنه لما سمع ورأى ما كان من هذه الأم شعر انه أب فاصطكت أسنا
هول ما رآه وتراجع على مهل كي لا تشعر بوجوده ثم أسرع بالسير حتى بع
عنها فجعل يعدو عدو المجانين .

ولما وصل الى منزله ، كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان و
في نفس الساعة التي كان فرنسوا وهنري يتباحثان فيها في الغابة
تركناهما .

وكان والت سان نائماً في سريره ، وبجانبه لويزا ، وقد القت رأسها
على ذراعه كلاء الثقة . فدنا من السرير وأخذ منه الطفلة دون ان يوقظها
فيما يرتاح .

ثم نادى الخادمة وقال لها : أوقظي ولدي ، والبسيه ملابس السفر ،
لأننا مسافرون سفراً طويلاً بعد ساعة ، وقولي لخادمي يعد لي جوادي ،
ويحضر الى هنا

وعندما ذهب بالطفلة عائداً الى حيث تقيم أمها وترك الخادمة وهي في أشد
حالات الاندهاش لهذه الأوامر .

وأما هنا فقد كان اليأس أنهك قواها وهد حيلها ، فانطرحت على
كرسي وجلست مرضعتها أمامها تعزيها وتتوجع لنكبتها ، ثم رأت ان
الثلج أضناها

فقالت لها : كفى يا سيدتي بكاء وادخلي الى مضجعك .

فلم تجبها حنة على كلامها وقالت : لويزا .. لويزا .. إنها قادمة .

= إنها تأتي دون شك فادخلي يا سيدتي واستريحي بالرقاد .

= لويزا ، يا ابنتي تعالي ونامي بين ذراعي .

وعندما وقفت حنة فجأة ودفعت المرضعة في صدرها ووثبت إلى الباب
وهي تصيح لويزا ... لويزا !

فصاحت المرضعة صياح اليأس وقالت : رباه لقد ذهب عقلها .

أما حنة فقد خرجت من الباب ، تصيح وتنادي ابنتها ، وكان
الظلام حالكاً ، فرأت عند خروجها شبحاً ، وان هذا الشبح يحمل جسماً
يغطيه ، فهجمت عليه واختطفته ودخلت به إلى غرفتها ووضعته على كرسي
وركعت أمامه .

كان هذا الشبح باردليان ، والجسم الذي يحمله لويزا ، وقد ركعت تلك
الأم أمام طفلتها دون ان تذرف دمعة او تفوه بكلمة او تقبل تلك الطفلة التي

كادت تجن لاختطافها .

ثم خطر لها خاطر سريع فجعلت تنزع ثياب الطفلة بسرعة وتقول

أرجو ان لا تكون أصيبت بسوء .

ولما نزعت ثيابها جعلت تفحصها من مفرق رأسها إلى قدميها ، حتى إذ

وثقت من سلامتها تفجر قلبها حنواً فلم تعد تعلم أين تقبلها .

كل ذلك والطفلة تبكي لحرارة التقبيل والأم تغسلها بدموع الفرح وباردليان

واقف وقوف المأخوذ يريد ان ينصرف فلا يستطيع .

ولما روت حنة غلها من تقبيل ابنتها التفتت فرأت باردليان فرحمت

ركبتيها اليه وأخذت يده وقبلتها .

وجذب باردليان يده وقال : سيدتي ماذا تفعلين ؟

— إني أقبل تلك اليد التي ردت إلي ابنتي قل لي اسمك يا سيدي لأبارك

إلى آخر أيامي .

— إني جندي قديم يا سيدتي ، جوالاً لا يقيم في بلد ، وأية فائدة من

معرفة اسمي .

— ولكن كيف عثرت بابنتي وكيف جئتني بها ؟

— الأمر بسيط يا سيدتي ، إني لقيت رجلاً أعرفه يحمل طفلة فسألته عنها

وعلمت أمرها فجئتك بها .

— إذاً قل لي اسمك كي أذكرك ما حييت ولا أنسى إحسانك

— أسألك العفو يا سيدتي لا فائدة من معرفة اسمي .

— إذا كان ذلك فقل لي اسم الآخر .

فاضطرب باردليان وقال : اسم الذي اختطف الطفلة ؟

— نعم ، فقد قلت انك تعرف هذا الرجل السفاك ، الذي رضي أن

يقتل ابنتي .

— أتريدين مني .. انا .. ان أقول لك اسم هذا السفاك ؟

— نعم نعم قل لي اسمه لألعنه الى الابد كما أباركك

فارتعد باردليان وتردد هنيهة ، وهو يبحث عن اسم يختلقه ، ثم

خطر له خاطر سريع ، وقرعه ضميره تقريعاً مؤلماً ، فاصفر وجهه وقال :

أتريدين ؟

— نعم أريد معرفة اسم هذا السافل السفاك لالعنه إلى الأبد .

إذاً ، إعلمي يا سيدتي ان هذا السافل السفاك ، يدعى الشفالييه

باردليان .

وقد ذكر اسمه بصوت مختنق وهرب مسرعاً كأنه لا يطيق ان يسمع

سقوط اللعنة عليه من فم تلك الام .

— ٨ —

السفر الى باريس

والعود الآن الى الاخوين ، لقد تركناهما في غابة الكستناء وقد توارت

الشمس في حجابها .

وكان آخر ما سمعناه من هنري قوله لاخيه ، وقد كاد ان يقتله صبراً :

« إنك عشيق حنة دي بيانس ، قبل ان تكون زوجتك ، يدعى هنري

دي مونمورانسي » .

وإنما قال هنري هذا القول ورضي ان يتهم نفسه بالجريمة كي لا يبقي مجالاً

لنفس التهمة ومبالغة في إثبات الخيانة على حنة .

وصرح لأخيه باسم عشيق امرأته وهو يتوقع ان يرى اليأس
في صدر أخيه ، وينهال عليه بالشتم واللعن . ولكن فرنسوا لم يفعل شيئ
ذلك بل انه وضع يده على كتف أخيه وقال له بصوت أبح متغير
مائت فتأهب .

فوثب هنري لفوره وثبة الى الوراء وجرد حسامه وقال له: تريد ان تق
أيها الأخ العزيز ان واحداً منا سيقتل في هذه الغابة ؟

— كلا ، بل قلت انك ستموت .

وكانت لهجته خطيرة ، حتى خيل لهنري انه قاض يحكم عليه
بالاعدام .

ورجع فرنسوا ايضاً خطوة الى الوراء رجوع الاسد حين يتحفز للهجوم
وجرد حسامه وانقض به على أخيه .

والتحم السيفان وانقدت العيون بنظرات نارية كان يتأجج فيها الحقد
ويتطاير شرر اليأس من تلك العيون فيزيدها اتقاداً .

وكان الليل قد هجم فلم يكن الخصم يرى خصمه بل يستهدي اليه من بريق
حسامه وتوقد عينيه .

والغريب في هذه المباوزة الدموية انه بينما كان هنري يثب على أخيه الوثبة
بعد الوثبة ، وهو شديد التيقظ والهياج ، لا يفتكر إلا بأن يجد منفذاً لحسامه
إلى قلب أخيه . كان فرنسوا يتلقى ضربات أخيه وهو مشتت البال كأنه
غائب في شكل حاضر فيدافع عن نفسه وقد تاه في مهامه التفكير ، فجعل
يحدث نفسه ويقول :

— إذاً هو أخي الذي خانني بمن أحب واي شقاء اشد من هذا الشقاء . وإذا
كنت لا أستطيع الركون الى اخي فالى من بعده يصح الركون .

واقد كنت أحسب ان خيانة هذه المرأة بلغت بي الى أقصى حدود
اليأس ، ولكن بقي علي لتكد طالعي ان اعرف اسم هذا العشيق الذي

ني من أجله كي أخفف اليأس بالانتقام .
يا ليتني اصبت بالخرس ويا ليتني فقدت الحياة قبل ان أسأل معرفة هذا
الاسم وأقف على هذا السر الرهيب .
نعم إني سأقتل أخي ولكن اذا عشت بعده من يشفيني من يأسي وماذا يكون
عزائي حين افتكر ان الذي خانني اخي .

وكان هنري قد وثب في خلال ذلك على أخيه مغتنماً فرصة ذهوله فجرحه
في عنقه جرحاً خفيفاً أسال دمه .

فتنبه فرنسوا من غفلته ببطء ، وإنما نقول ببطء لان الثواني في تلك البرهة
الهائلة كانت تعد كالساعات .

وقد توجه الدم الى ما هو فيه فنسي ذلك الحديث الذي كان يناجي نفسه
به ونسي ان خصمه أخوه فلم ير به إلا عشيق زوجتـــه . فزأر زئير الاسود
الضارية ومشى اليه فاصطدم السيفان ، فكانت ساعة هائلة لم يسمع فيها غير
صوت قراع الحديد وتنفس المتبارزين .

وبعد هنيهة سمع صوت هنري وقد لفظ كلمة سباب ، ثم ساد السكوت
قليلا ثم سمعت صيحة فصوت سقوط جسم على الارض .

ذلك ان حسام فرنسوا كان قد أصاب صدر هنري من الجهة اليمنى فاخترقه
من فوق الضلع الثالث .

فركع فرنسوا عند ذلك قرب اخيه الصريع وعلم انه لا يزال في قيـــد
الحياة فجرد خنجره ورفعه الى فوق رأسه قائلا: مت ايها الخائن الشقي فذلك
ما يستحق ان يجيى .

ولكنه قبل ان يغمد خنجره في قلبه تألق بارق في السماء فأنار الكون
ورأى فرنسوا وجه هنري المصفر وصاح قائلا بلهجة الجنون : أخي ...
أخي .

كأنه لم يعرف إلا من هذا البرق انه يحاول قتل اخيه

وعند ذلك ذعر وظهرت علائم الرعب على وجهه فالقى
مسافة بعيدة كأنه ناقم عليه ووقف وقد عادت اليه
الحوادث الهائلة فقال : ولكنه هو الذي خانني بعد ان
الذي اعترف بجريمته دون استحياء ، وهو الذي كان يريد
ماثل بين عينيه ، فاذا قدر له ان يموت فقد نال جزاءه ؟ وإذا شئ
جراحه قتله الخجل .

وعند ذلك التفت فرأى رجلين من الحطابين في تلك الغابة
السيوف فأسرعا ليعلما الخبر وهما يحملان مشعلا فدنا فرنسوا منهما وأشار
إشارة محزنة الى جسم اخيه دون ان يفوه بكلمة .

ثم اطرق برأسه الى الارض ومشى مشيا بطيئا دون ان يلتفت الى
الرجل الذي كان اخاه .

وبعدها بساعتين وصل فرنسوا الى الحصن ولما رآه حارس باب ذلك الحصن
صاح صيحة دهش ورعب، لأن شعره الذي كان في الصباح اشقر كالليل غدا
الشيب فبات رأسه كرأس الشيوخ .

وقد استقبله احد الضباط فقال له . إننا اعددنا لك يا مولاي
وجلبنا ...

فقاطعه فرنسوا قائلا بصوت اجش : ليحضروا لي جواداً .

- اليس في نية مولاي المبيت في الحصن ؟

فضرب الارض برجله واجاب : كلا فليحضروا لي جواداً .

فأسرع الضابط الى تلبية امره وبعد هنيهة جاء الخادم بالجواد فعاد الضابط
الى محادثة فرنسوا .

فقال له : ان مولاي سيعود قريباً فيما أظن ؟

فوثب فرنسوا الى ظهر جواده ، وهو يقول : إنه لا يعود
الى الابد .

ثم انكر على الجواد وتوارى عن الأنظار

وفي ذلك الحين نفسه سمع صوت يقول فرنسوا .. فرنسوا ..

وكان نداء يأس ظهرت بعده امرأة بين ذراعيها طفل وهي تعدو في
أثر الجواد وتكرر النداء .

ولكن فرنسوا لم يسمع دون شك هذا النداء فلم يلتفت ، وركض جواده
بسابق الرياح ، فكان وقع حوافره يسمع من بعيد ، وصوت المرأة يبعده
المدى حتى انقطع صوت المرأة ، وتوارى الفارس بجواده فلم يسمع لوقع
الحوافر صوت .

وقفت المرأة عند ذلك من ثلة من الجنود كانوا واقفين عند باب الحصن
يودعون أميرهم بالنظر وهم منذهلون لهذا السفر الغريب الذي يشبه الفرار .

فقالت لهم بصوت مختنق : إلى أين ذهب ؟

فأجابها واحد منهم قائلا من يعلم يا سيدتي ؟

متى يعود ؟

- لقد قال انه لا يعود إلى الأبد

- إلى أين تؤدي الطريق التي سلكها ؟

- إلى باريس .

فشكرت حنة الجندي وسارت وابنتها بين يديها في نفس الطريق الذي
سار فيه زوجها .

* * *

بعد أن أرجع بارداليان لويزا إلى أمهـا وبعد أن ذكر لها اسم الذي
اختطفها وخرج خروج القانطين ، أخذت حنة بنتها وسارت في طريق حصن
مونتورانسي وحدهما ، فلم تأذن لمرضعتها أن تصحبها بالرغم عن الحاحها ، فان
الأم ما زالت في يديها لا يستطيع أحد اختطافها منها ، وما زالت ابنتها

وحدة فاخرية
مشتركي ايلاف

معها فانها تستطيع أن تبوح لزوجها بكل مـــا جرى لها مع ذلك السافل ، وهي تستطيع الآن كشف النقاب عن أعماله دون أن تخشى ابنتها الموت .

فكانت تسير في ظلام الليل وهي تناجي حبيبها فتقول : يا حبيبي الحبيب اني وهبتك حياتي ، وأنت الآن ماثم علي قيد لو خسفت في الـ وابتلعني جوفها .

ولكني لا أبالي بذلك فستعلم الحقيقة وتعود كما كنا ...

ولكني مشفقة عليك أكثر من اشفاقي على نفسي ، وأود تكريس حياتي سبيل هنائك كي أمحو أثر تلك الساعة الهائلة التي سحقت قلبك .

ويح لنفسي ما أشد شقائي ...

ألا أخونك يا فرنسوا ، ولولا خوف الشرك لما عبدت سواك ؟

ولكنك عالم بشعائري ، واقف على دقائق نفسي فإذا كشفت لك ذلك ألا تثق بأقوالي ...؟

انك تثق بها دون شك ...

اني لو كذبت ذلك الخائن بكلمة لأعمد الخنجر في صدر طفلتنا ...

فرنسوا انك لا تعرف ابنتنا ، ولكنك ستفقدو أسعد انسان حين وا وستدمع عيناك حتماً حين أقول لك ، فرنسوا هذه هي بنتك فعانقها .

وما زالت تمشي مسرعة وهي تناجي من تحبه بمثل هذه الأقوال حتى على قيد مائة خطوة من الحصن ، فرأت جماعة من الجند واقفين عند با وبأيديهم المشاعل ، ورأت فارساً مرق بجواده بينهم مروق السهم .

فقالت : رباه هذا هو .

ثم ركضت اليه وجعلت تصيح بأعلى صوتها وتناديه . ولكن كتب ف المقدور لهذين الزوجين أن يعيشا شقيين . فلو تقدمت أو تأخر بضع ثوان لاجتمعت به وأوقفته على سر المكيدة .

ولما علمت من الجندي انه سار في طريق باريس قالت . لأقفون أثره ولو اضطررت أن أجوب فرنسا في أثره ماشية على الأقدام .

وتسللت خلف زوجها وخلف ابنتها فاخترقت الغابات في ظلام الليل ، وسارت بين تلك الأشجار التي أحنى النسيم أغصانها ، فكانت كأنها تحيي بانحنائها تلك الزوجة الطاهرة وتبدي لها فروض الاحترام .

وقد تملكها اليأس من قلبهـــا حتى انه لم يعد يخطر لها الخوف في بال ، فلم تخش اللصوص ولا الحيوانات الضارية ولا قطـاع الطريق الذين يكمنون للسافرين في الغابات ، إذ لم يعد للحياة قيمة عندها بعد ذلك اليأس .

وسارت على عجل وابنتها بين يديها وهي ليس لديها غير الملابس التي تلبسها وليس في جيبها قطعة من النقود ، ولا تعرف باريس ولا أحداً من قومها ، ولكنها لم تكترث لذلك بل لم يخطر في بالها ، فكانت تسير وعيناها محدقتان إلى الأمام ترى بهما خيال ذلك الزوج الهارب فتهتدي به سواء السبيل .

* * *

بلغ صوت فرنسوا بساعة مجاء الرجلان يجسم أخيه محمولاً على لوح من الخشب والدم يقطر من جرحه فاضطرب كل من في الحصن لهذا الحادث الجلل واسرعوا فحملوه إلى فراشه وجاؤه بجراح القصر .

فحص الطبيب جرحه وقال للضباط الواقفين من حوله انه يعيش ، ولكنه لا يستطيع قبل ستة أشهر أن يبرح الفراش

وكان الرجلان اللذان حملاه إلى الحصن قد عرفا أخاه فرنسوا ، ولكنهما استغربا ذلك الأمر وخشيا عاقبة التصريح فلم يجسرا على الإباحة بشيء .

أما أهل الحصن فقد تبادر إلى ذهنهم ان هنري توغل في الغابة للصيد

فباغته اللصوص إذ لم يخطر لهم في بال أن يكون ذلك من صنع فرنسوا دي مونمرانسي .

* * *

في الساعة نفسها برح الحصن ايضاً الشفالييه باردالیان دون ان يعلم شيئاً جرى ، ولو علم بما أصاب هنري لما بقي دقيقة في ذلك الحصن ، فانه كان يعرف هنري حق المعرفان ، وانه ليس في قلبه ذرة من الاشفاق والرحمة

وكان يقول في نفسه انى أرجعت الطفلة إلى أمها فإذا علم هنري بذلك ينقم علي أشد النقمة ويعذبني عذاب المجرمين فالفرار خير لي وأبقى .

ثم امتطى جواده ووضع ولده أمامه وأشار إلى الحصن إشارة وداع وانطلق بجواده في طريق باريس .

وبعد هنيهة دخل إلى تلك الغابات العظيمة التي تمتد إلى أبواب باريس لاتساعها .

فلم يسر فيها بضع خطوات حتى رأى بعينه النقادة شبحاً ، ثم اتضح له انه شبح امرأة ، فأسرع بجواده حتى وصل اليها فعرفها واضطرب .

وكانت هذه المرأة حنة فواصلت سيرها كأنها لم تسمع وقع حوافر الجواد .

غير أن باردالیان ناداها برفق قائلا سيدتي .

فوقفت حنة وقالت له أليست الطريق التي أسير عليها يا سيدي هي طريق باريس ؟

— نعم يا سيدتي ، ولكن مسيرك ليلا في هذه الغابات خطر عليك ، ألا تسمحين لي أن أصحبك ؟

فهزت حنـــة رأسها إشارة إلى عدم اكتراثها بالأخطار ، فشكرته بصوت ضعيف .

— كيف ذلك يا سيدتي أتريدين أن تسيري وحدك ؟

، اني لا أخاف شيئاً في هذا الوجود ، ثم استمرت في سيرها .

فنظر اليها باردالیان نظرة المعجب المشفق ثم هز كتفيه كأنه يريد أن يقول انه لا سبيل إلى مقاومة يأسها ، ومشى في سبيله .

غير انه لم يسر بضع خطوات حتى عاد اليها وقال لها ولكن ألك أقرباء في باريس . أتعلمين إلى أين تذهبين ؟

كلا ، ليس لي أحد ولا اعلم اين أسير .

أسألك العفو يا سيدتي لجسارتي في سؤالك . ألديك من النقود ما يكفي لمثل هذا السفر ؟

— ليس لدي درهم وفي كل حال أشكرك لما تبديه من الاهتمام بي على غير معرفة سابقة .

فتردد باردالیان هنيهة كأنه في نزاع شديد ثم ذهب التردد وظهرت عليه دلائل العزم الأكيد فدنا من حنة ووضع على صدر بنتها شيئاً لماعاً وأطلق لجواده العنان مسرعاً في الفرار بعد أن قال لها هذه الكلمات :

« سيدتي أرجوك ، أن لا تزيدي في لعن الشفالييه دي باردلیان فهو من أصحابي » .

فعلمت حنـة عند ذلك ان هذا الرجل هو نفس الرجل الذي رد لها ابنتها ونظرت إلى تلك الحاجة اللماعة التي وضعها على صدر ابنتها فرأتها خاتماً ثميناً من أفخر أنواع الماس .

أما هذا الخاتم ، فقد وصل إلى باردلیان من هنري ، وقد أعطاه أجرة اختطافه الطفلة .

وحده قاضيه
مقتدى ليلاس

التضحيـــة

كان الشيخ مونمورانسي امير الجيوش يسير ذهاباً وإياباً في قاعة الشرف الكبرى في قصره في باريس .

وكان رجال بطانته الأشراف من حوله بعضهم جالسين على المقاعد وبعضهم وقوفاً وهم يتحدثون بأصوات واطئة بأمور غريبة .

وكان امير الجيوش قد أطل منذ هنيهة من النافذة ورأى امرأة واقفة أمام باب القصر الأكبر وهي مضطربة مصفرة الوجه وبين يديها طفل

فأصدر امير الجيوش امره بادخال هذه المرأة الى القصر فأدخلوها الى غرفة عاذية للقاعة الكبرى واقامت تنتظر فيها .

وفوق ذلك فان ابن امير الجيوش الذي كانوا يحسبونه مبيناً قد عاد إلى باريس فجأة في الليل ، وخلا بأبيه خلوة طويلة ، ثم سافر بعد هذه الخلوة إلى مكان لا يعلمه أحد .

ووردت الأنباء من حصن مونمورانسي تفيد ان هنري ابن امير الجيوش الثاني هوجم في الغابة وأصيب بجرح بالغ .

وآخر تلك الأنباء ان جلالة الملك هنري الثاني كان عازماً في الساعة الرابعة من ذلك اليوم على زيارة صديقه القديم ، وأمير جيوشه ، فاستنتج من هذه الزيارة أنهما يريدان التأهب لحرب جديدة ، وان الملك مقبل لهذا

مع الأمير
وكان جميع من في القصر منهمكين انهماكاً عظيماً لاستقبال الملك بما يليق
بمقامه من الاجلال إذ لم يبق لموعد زيارته غير ساعة وهو من أشد الناس حرصاً
على الصدق في المواعيد .

أما قصر مونمورانسي فقد كان مقره بازاء اللوفر على مسافة قريبة
من البحيرة .

وكان القصر على أتم مظاهر الفخامة والاجلال في عصر لم يكن أتى فيه
بعد الكردينال ريشيليو ، فكبح جماح أولئك النبلاء الذين كانوا يشبهون
الملوك بمظاهر القوة والجلال ، ويزيدون عليهم بالثروة واكتناز المال .

وكان في قاعة الشرف التي نحن في صددها نحو ستين نبيلاً من بطانة
أمير الجيوش ، وهي حاشية عظيمة ، لم يخف ذلك الشيخ السياسي من أن
يظهر أمام الملك ، في حين أن مولاه لا يعد مثل هذه الحاشية على كونه
ملك فرنسا .

ولكن أمير الجيوش لم يكن في ذلك الحين يفتكر في هذه الأمور بل كان
يسير مضطرب الخطى وهو يدنو من حين إلى حين من باب تلك الغرفة
المجاورة فيها المرأة ، حتى إذا وصل اليها تراجع مغضباً وضرب الأرض
برجله وعاد إلى المسير ذهاباً وإياباً في تلك القاعة وهو مشتت البال لا يتهنأ
بعزم

إلى أن زال ذلك التردد وظهرت عليه دلائل العزم الأكيد ففتح باب الغرفة
فجأة ودخل .

وكان في وسط هذه الغرفة إمرأة واقفة وقفة المنتظر وقد وضعت طفلها
النائم فوق مقعد وجعلت تنظر اليه بملء الجنو .

فدنا أمير الجيوش خطوتين منها وقال لهـــا وهو عابس الوجه مقطب
الجبين ماذا تريدين أيتها السيدة ؟

فبدت على المرأة علائم الدهشة والذعر معـــاً ، حين رأته وقتـ
مولاي الأمير .

فأجاب بعنف وجفاء إنك لم تتوقعي أن تريني اليس كذلك ؟ وانك
من أن ترى ذلك الابن الأبله ، الذي يمكن خديعته كل حين بزخارف الق
رأيت ذلك الوالد الذي لا يخدعه لين النساء .

فنظرت اليه حنة ، وقد عرف القراء انها هي دون شك ، وأجابته
شفت عن عواطف قلبها الرقيق : لا أنكر عليك يا سيدي اني كنت أ
أن أرى فرنسوا ، ولكن امـرأة من أسرتي لا يمكن ان تجفـل إذا را
والد زوجها .

فأطبق الشيخ قبضتيه وأجاب : ماذا تقولين : زوجك ؟ اني أحرق
لا تعيدي هذا القول أمامي ، فلقد أخبرني فرنسوا بكل مـا جرى
الليلة . أسمعت ، انه أخبرني بكل ما جرى ، لقد علمت انك التفت
أبيك على ولدي وأكرهتماه على الزواج بك .

وأي زواج هذا . انه عقد بعد انتصاف الليل خلسة فهو سرقة محضة
بل هو اغتصاب شائن ..

وحاول الشيخ ان يندفع مع تيار غضبه ويسترسل في شتائمه ، ولكن
صيحة بدرت من حنة أوقفته عن تتمة حديثه ، فقد اصفر وجهها من الانفـ
ومدت اليه يدها بملء العظمة والكبرياء ، فقالت له : انك كاذب أيها الشيـ
وعار على النبلاء أن يكونوا من الكاذبين .

فاضطرب أمير الجيوش اضطراباً عظيماً وأجاب : من يقول عن هذا
القـول ؟ .

— أنا ، وهي كلمات مرة ولكنها حق ، ومـــا زال القول الحق يقرع
الأسماع ، ولكني أزيد عليها فأقول :

« انك كالقبور المكلسة ظاهرها أبيض ناصع وليس في باطنها غير الجيـ

انك ليس لك من النبل غير ملابس النبـلاء . وان تاج شعورك البيضاء لم
يكن يحميك من الصفع لو كان أبي الذي قتلته بيدك الظالمة قتلا بطيئـاً
موجوداً الآن معي .. وانك تهين امرأة تحمل اسم أسرتك فأنت تهـين
نفسك بذلك .

فدهش أمير الجيوش لما رآه من كبريائها ، ولما سمعه من حديثها ، فاحمر
وجهه في البدء ، ثم اصفر واضطربت شفتاه من الغيظ حتى أوشك أن
يصدر أمراً .

ثم ضبط نفسه ورأى انه مغلوب وأنه أهانها إهانة تستوجب هذا الدفاع ،
فانحنى أمامها دون أن ينبس ببحرف .

أما حنة فإنها استأنفت حديثها بعد ان حاولت تسكين اضطرابها فقالت :
« لقد أخبرني يا سيدي منذ هنيهة انك عارف بكل شيء ، فدلني كلامك على
أنك تجهل شيئاً لا سبيل إلى السكوت عن ردعه ، وما زال القدر دفعني اليك
فلا أجد بداً من الكلام ..

« كلا يا سيدي انك لا تعلم كل شيء كما تقول ، بل إنك تجهـل الحقيقـة
كلها ، تجهلها رئيسي وزوجي ، والرجل الذي ملكته نفسي . ولا بد لك
من معالجة الحقيقة صيانة لشرفي ، وحفظاً لهناء ولدك وحياة هذا الطفل البريء
الطاهر المستظل الآن بسماء بيتك وهو من دمك . »

فزاد اندهاش الشيخ مما رآه من نبل تلك المرأة ، ورأى ظواهر السلامة
والصدق منطبعة على وجهها الجميل فانحنى أمامها أيضاً وسألهـا : تكلمي
يا سيدتي .

ثم أطلق نظره إلى الطفلة النائمة على المقعد .

ورأت حنة أنه ينظر إلى ابنتها نظرة تكاد تشف عن الحنو .

فابرقت عيناها بأشعة الرجاء ، فذهبت إلى ابنتها فقبلتها ..

ثم حملتها بين ذراعيها ، ودنت بها من جدها ، وهي تبتسم وتبكي في

في حين واحد .

فرق قلب الشيخ لهذا المنظر ومد يديه لأخذ الطفلة وقال لها هذا الطفل ؟

– انها تدعى لويزا .

فظهرت علائم الاحتقار على وجه الشيخ وبين شفتيه وأرخى يديه كاره أنف من أن يضم تلك الطفلة وهو يحسب أنها غلام .

فأدركت حنة قصده وعلمت ما جال في نفسه فتراجعت مصفرة الوجه .

أما الشيخ فانه لم يحن قلبه في البدء إلى المولود إلا لحسبانه غلاماً يحمد بيته في الأيام القادمة .

وكانت عادة تفضيل الذكور على الاناث شائعة في ذلك العهد فقال لها اني وعدتك يا سيدتي أن أسمع حديثك فقولي ما تشائين وابسطي تلك الطفلة التي تدعينها هائلة فاني مصغ اليك .

فأيقنت حنة أن ذلك الوقاق الذي أملت ان يصل بينهـا وبين أسرة مونمورانسي انقطع ، ولكنها لم تعد تكترث لهذا الاتصال في تلك الساعة التي وقفت فيها موقف المتهمين ، وكان كل ما يشغلها الدفاع عن شرفها وبرئـة نفسها لدى والد زوجها كي يصل حديث البراءة الى الزوج .

وعند ذلك حكت له جميع ما اتفق لها مع ولده فرضوا عنه نظرهـا النظرة الأولى الى حين عقد زواجهما .

ثم ذكرت له وعيد هنري وولادة لويزا ، وتلك النهاية الهـائلة التي عرفها القراء .

بحيث روت له كل ما حدث دون ان تنقص حرفاً .

فسمعها الشيخ بملء الاصغاء دون أن يبدو على وجهـه شيء من علائم التأثير .

وكانت حنة تفحص ملامحه علها تجد في عينيه ما يدل على العطف والرقة

رجاؤها فركعت امامه على ركبتيها واليأس ملء فؤادها :

أرى يا سيدي لتكذيب مطالعي اني لم أفز باقتناعك واني لم أستطع ان ما قلته بعبـارات تثبت حقيقته ، ولكني اقسم لك بنفسي الطاهر ، بل بحياة ابنتي اني لم اقل غير الحق فلماذا لا تثق بصدقي يا سيدي ولماذا هذا السكوت .

الك والد فرنسوا وهذه الطفلة ابنته فهي حفيدتك ، الا تشفق يا سيدي على هذه الأم المنكودة .

واذا كنت لا تريد ان ترحمها الا ترحم هذه الطفلة وهي بريئة طاهرة فلا ذنب لها

وكانت تقول هذا القول بلهجة كئيبـة تدل على ان قواهـا بلغت غاية الانحطاط .

فكان الشيخ يسمعها وعيناه تضطربان مما يدل على انـه كان يبحث عن حيلة تنقذه من هذا الموقف .

فلما أتمت حديثها ، قال لها : انهضي يا سيدتي فقد بت واثقـاً انك تلوين الحق .

فصاحت حنة صيحة فرح وقالت :

– لقد نجت لويزا فليتبارك اسم الله .

وقد اضطرب الشيخ لهذه الكلمـات لحظة ، ثم ضبط نفسه وعاد الى الحديث فقال : إني لم اكن اعلم بشيء مما حدثتني به عن فرنسوا وهنري ، فان فرنسوا لم يكلمني بشيء ، وحين قلت لك اني عالم بكل الامر ، كنت اريد بذلك اني كنت عالماً بذلك الزواج السري الذي اهـانني واضر مصالح عائلتي وأسرتي ، فاعلمي يا سيدتي ان هذا الزواج مستحيل .

فذعرت حنة وقالت له : إن الزواج لا يقال فيه انه ممكن او مستحيـل وهو كذا .

فهاج ثائر غضب الشيخ وكادت تبدر منه بوادر الحدة ولكنه كظم غ
ومشى في الغرفة هنيهة في يقمع فتنة نفسه الثائرة ، حتى اذا وثق من سكون
عواطفه عاد الى تلك المنكودة فأخرج من جيبه ورقتين مطويتين فدفع احداهما
فدفعها الى حنة وقال لها : إقرأي هذه .

فأخذت حنة تلك الورقة ، ولم تكد تتم قراءتها حتى اصفر وجهها ، وثارت العواصف في قلبها الكسير ولم تستطع ان تفوه بكلمة .

لكنها نظرت إلى ذلك الشيخ ، كما ينظر الحمل الى الجزار حين يجرد السكين لذبحه .

أما الورقة فقد كانت تتضمن ما يأتي :

« صدر الأمر إلى قائد حرسنا بالقبض على فرنسوا كوفت دي مرجيو ويكدر أسرة مونمورانسي والكولونيل في جيشنا السويسري والذهاب به إلى سجن فامبل ، حيث يقيم فيه إلى أن يدعوه الله اليه . »

ولكن سكوتها لم يطل فانها ما لبثت ان ثابت الى رشدها بعد تلك الصدمة الهائلة حتى نظرت الى ذلك الظالم وقالت له بلهجة التوسل : أية إساءة اسلفها اليك فرنسوا فتعاقبه بالسجن الأبدي ؟

فقال لها الشيخ : انظري يا سيدتي إلى الأمر تجدي انه لم يوقع عليه بعد ولكن الملك سيزورني بعد هنيهة في هذا القصر ، وانت تعلمين اني امير الجيوش واعظم عظيم في فرنسا بعد الملك ، فاذا التمست من جلالته ان يوقع على الأمر فعل دون شك فيسير فرنسوا غداً إلى السجن ويبدأ عذاب ذلك الذي تحبينه .

— ولكن ذلك شديد هائل ، فماذا اجرم هذا المنكود فاستحق هذا العقاب ؟

— إنه تزوج بك .

— اتعد الزواج جريمة ؟

— رحماك يا سيدي والق صواعق غضبك علي دون فرنسوا فلا ذنب له..

— الله عادل رحيم ، الا يوجد في هذه الأرض عدل ورحمة واشفاق ؟

— اتقاني يا سيدي ما زال الحب يعد جريمة فقد أحببت ، ودع فرنسوا إله ولك .

فرقت عينا الشيخ ببارق من الرجاء فأخذ الورقة الثانية وقال لها :

— والآن اقرأي هذه الورقة فانها صك اختياري يتضمن فسخ الزواج بينك وبين ولدي .

فصاحت حنة صيحة منكرة واجابت .

— كلا ، معاذ الله ان افعل ، فاقتلني اذا شئت ان يفسخ الزواج ، واما ان افسخه بيدي فلا .

— اني اعلم مقدار صعوبة الطلاق عندنا ، ولكن الملك يساعدنا ، فيسهل ويذلل

فركعت حنة وجعلت تبكي وتقول ارحمني واشفق علي .

— ولاسيما إن قداسة البابا قد وافق على فسخ الزواج ولم يبق الا توقيعك على الصك

— رحماك ، دع لي فرنسوا ودعني أحبه .

— وقعي يا سيدتي على الصك ، والخير الأعظم يلغي الزواج .

— واسفي يا سيدي ... إنها بنت فرنسوا .. انها حفيدتك ، اتسرق منها ابنها ؟ اختلس منها اسمها .

— كفى يا سيدتي ، فلا بد لي من تقديم إحدى هاتين العريضتين بعد هنيهة الى الملك فاذا لم توقعي على العريضة ولم استطع ارسالها الليلة الى رومه بات فرنسوا غداً في السجن فلا يخرج منه حياً ، فوقعي يا سيدتي اذا كنت تريدين له السعادة

ثم دفع اليها القلم فاختنق صوتها بالبكاء .

– كلا ، كلا .. لا افعل .

وعند ذلك سمع صياح الجنود ، في فناء القصر يكررون
ليحيى الملك !

ذلك ان الملك هنري الثاني كان قد دخل القصر ، فأسرع احد
امير الجيوش ، وقال له :

– مولاي ان جلالة الملك قد وصل .

فالتفت الشيخ إلى حنة وقال :

– استودعك الله ، فمزقي عريضة الطلاق اذ لم يبق فائدة من
اعرض على جلالة الملك العريضة الثانية القاضية بسجن فرنسوا إلى الأبد

ثم هم بالخروج مغضباً وعليه دلائل صدق العزيمة فأسرعت اليه وقالت
قف فقد رضيت ان امضي . رضيت ان اموت فداء لمن احب .

ثم وقعت على الصك والقت القلم ، لأن يدها لم تعد تستطيع ضبطه
سقطت على الأرض لا حراك بها ، وقد بسطت يدها دون ادراك الى
ابنتها كأنها تريد ان تحميها .

اما الشيخ فانه اخذ الصك فوضعه في جيبه وخرج لمقابلة هنري الثاني

فتلقاه النبلاء والجنود بالصياح قائلين : ليحيى الملك ، وليحيى
الجيوش !

– ١٠ –

ذات الملابس السوداء

وصل الصك الى قداسة البابا ، فحكم ببطلان ذلك الزواج السري ،
وبطلاق حنة دي بيالتس من فرنسوا دي مونمرانسي ، فكان لذلك وقع عظيم
في الأندية الخاصة ، اذ كان الجميع يعتقدون ان الملك سيعارض في هذا الطلاق
وبابا كل الابا .

وفي سنة ١٥٥٨ بات فرنسوا دي مونمرانسي امير الجيوش الأكبر بدلاً من
ابيه المتوفى ، وتزوج ديانا دي فرانس ابنة الملك ، ولكنه قبل ميعاد الزواج
بأسبوعين ذهب الى تلك الأميرة فخلا بها .

وقال لها ما يأتي :

اني لا اعلم يا سيدتي حقيقة منزلتي من قلبك واسألك المعذرة والعفو عما
سأقوله لك ، فانك لا تسمعين من يكلمك بهذه اللهجة الهمجية غيري

أنهم يريدون يا سيدتي تزويجنا ، وانما رضيت هذا الشرف امتثالاً لأوامر
الملك الذي اراد هذا الزواج لأسباب سياسية .

ولكن اليوم الذي يبارك فيه الأسقف زواجنا يكون قلبي بعيداً عن تلك
الطفلة ، فاني لا احبك ولن احبك

ولا انكر يا سيدتي اني اتجاسر على اهانتك في ما اقول ..

فقاطعته ديانا قائلة : كلا ، وانا أرجوك أن تمضي في حديثك بملء الحرية

كأنك تناجي نفسك

— ولكني لو كان قلبي لي لما وهبته لسواك ، فإنك قتلت العيون وأ
موصوفة بين الحسان .

— إذاً أنت مقيد بحب سواي ؟

— كلا يا سيدتي فقد أخطأت التعبير لأن قلبي قد مات
الغرام ، وإذا كنت لا أزال في قيد الحياة فليس ذلك بفضلي
القيت نفسي إلى الموت في غمار المعارك .

ثم ابتسم ابتسام قنوط وقال :

— ولكن الموت كان يهرب مني ، وهذه هي يا سيدتي حقيقة أمري ، فإ
زواجنا لا يمكن أن يراد به غير اتحاد الاسمين ، فإذا كان الحب الأخوي
والاخلاص الطاهر والخضوع الأكيد تعدل كفتها كفة الحب قدمت لك على
الاحترام هذا الاخاء وهذا الخلوص .

والآن يا سيدتي إني بحت لك بمكنونات قلبي ، واطلعتك على حقيقة لا
ريب فيها فلم يبق علي إلا انتظار أوامرك .

وكانت ديانا جميلة على ما وصفها فرنسوا وهي على جمالها ذ
فوقفت حين أتم حديثه وقالت له برفق : إني لو سمعت ما قلته لي الآن من
سواك لما حسبت قوله إلا اهانة ، ولكني غفرت كل هفوة تبدر منك فامتثل
لأوامر ملكك ، وليحتفظ كل منا بقلبه . أليس هذا الذي تنتظره مني
يا حضرة المارشال ؟

فاصفر وجه فرنسوا لأنه كان يتوقع أن يسمع غير هذا الجواب وقال لها :

— يا سيدتي . .

— انصرف الآن واعلم إني سأحترم حداد قلبك .

فانحنى فرنسوا أمامها وقبل يدها وهو يبتسم ابتساماً يشف عن
سويداء

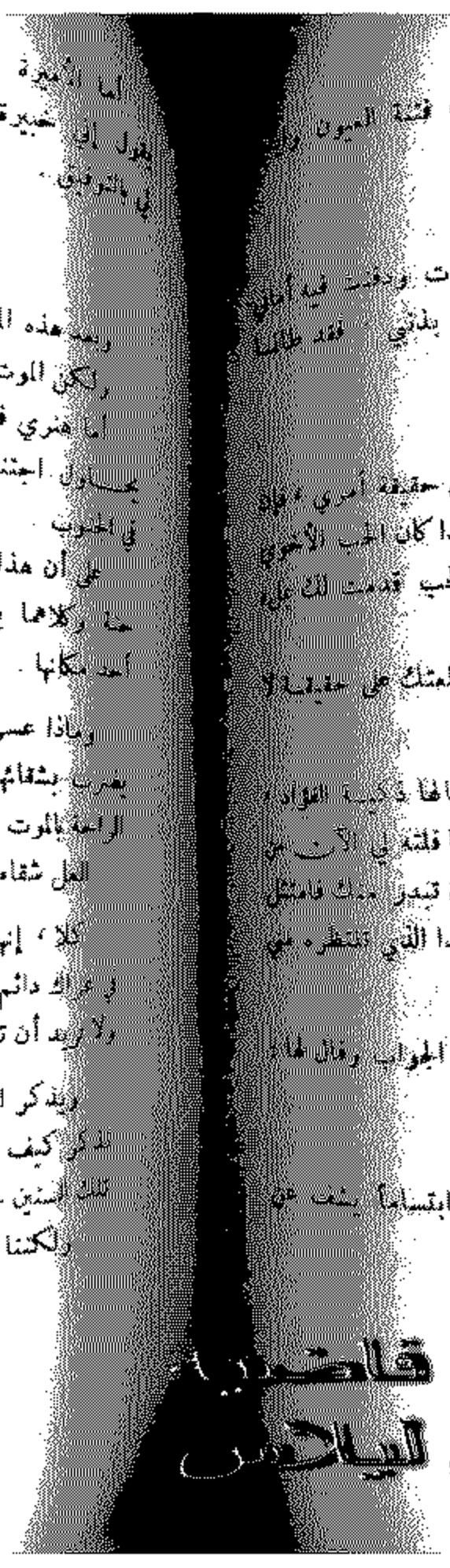

أما الأميرة فإنها ودعته ضاحكة وهي تقول : أن الطبيب بارع
يقول إن
في التوفيق

* * *

وبعد هذه المقابلة جعل فرنسوا يعرض نفسه للموت في كل معترك .
ولكن الموت كان يفر منه كما يقول .
أما هنري فانه لم ير أخاه بعد تلك المبارزة ، وكان كل من الأخوين
يحاول اجتناب الآخر ، فإذا حارب فرنسوا في الشمال حارب هنري
في الجنوب
على أن هذا اللقاء لم يكن بد منه ، فإن الأخوين كانا لا يزالان يهويان
حبا ولاهما يبحثان عنها ، ولكن ابحاثها ذهبت سدى فلم يعرف
أحد مكانها .

وياذا عسى أن يكون قد أصاب هذه المرأة المنكودة التي يصح أن
يعبر بشقائها الأمثال . العلها كانت أسعد حظاً من زوجها فرنسوا فوجدت
الراحة بالموت .

العل شقاءها بزوجها وابنتها ويأسها من الحياة دفعا بها إلى الهاوية الأبدية ؟

كلا ، إنها لا تزال في قيد الحياة ، ولكنها حياة مرة يفضلها المرت ، فهي
في عراك دائم مع اليأس تقضي الليالي الطوال باكية تندب ذلك النعيم الذاهب
ولا ترجو أن تعيش إلا لابنتها .

ويذكر القراء انها بعد أن وقعت على صك الطلاق سقطت مغمياً عليها ولا
تذكر كيف استيقظت وكيف كان خروجها من ذلك القصر ، وكيف عاشت
تلك السنين حذر الاسهاب في ما لا يفيد .

ولكننا ندخل بذهن القارىء إلى منزل حقير كانت تقيم فيه في شارع

سانت دنيس ، وهو منزل صغير مؤلف من ثلاث غرف مفروشة ببسيط فرش ، ولكنها باتم النظافة والترتيب .

خرجت حنة من إحدى هـذه الغرف إلى غرفة كانت جالسة عند نافذتها المطلة على الشارع فتاة حسناء .

وقبل أن تدخل إلى الغرفة وقفت عند مرآة فجعلت تنظر فيها وتحدث نفسها فتقول :

« كيف يجدني لو رآني الآن . العله يعرفني .؟ واأسفاه لقد ذهب العهد القديم وزالت نضرة الشباب وأين أنا الآن مني حين كنت القب بحورية الربيع .. إني بت الآن القب بالمرأة السوداء للابسي السود ، وما هي إلا الحداد على بختي العاثر .

غير أن حنة كانت مخطئة في ما ادعته من ذهاب نضرة جمالها ، فانها كانت لا تزال آية في الجمال ولم يكن اصفرار وجهها إلا ليزيدها حسناً .

ودخلت وهي تتنهد إلى غرفة الفتاة فوجدتها تشتغل بالتطريز ، وهي منهمكة فيه حتى إنهـا لم تنتبه لدخول أمها ، فان هـذه الفتاة كانت لويزا .

وقد وضح السبب الآن في بقاء حنة في قيد الحياة فانها قـد لقيت من الشقاء ما لم تلقه زوجة من قبلها .

ولكنها على نكبتها كانت أماً وقد زادها شقاؤها بزوجها تعلقاً بابنتها ، وكانت تحبها وتعبدها وهي طفلة في المهد ، فكيف يكون حبها لها الآن وقد ترعرعت وخرجت كأمها لطفاً وجمالاً يدهش الابصار .

وكانت لويزا بالغة في ذلك العهد ستة عشر ربيعاً وهي زرقاء العينين تشبه زرقتها لون السماء الصافية ولها شعر ذهبي يلمع كالتاج رقعت عليه أشعة الشمس وكل ما فيها حلو جميل ، وكل كلمة من كلماتها العذبة قصيدة .

ولكنها على هذا الجمال الفتان وعلى مـا فيها من نضارة الشباب ، كانت

تلقي عليها مظاهر السوداء فلا تنقطع عن التفكير ، فهل كتب في لوح المقدور لهذه الفتاة ما كتب لأمها ؟

وحدد فتاة مقتنعة للبلاغ

ولما دخلت أمها ووقفت أمامها انتبهت لها فنظرت اليها مبتسمة وقابلتها أمها بمثل ذلك الابتسام .

ولو نظر الناظر الناقد اليهما لما قال انهما أم وبنتها ، بل قال انهما اختان بينهما بضعة أعوام على أن الأم تزيد البنت بقدر عمرها .

وجلست حنة تجاه لويزا فأخذت طرفاً من الوشاح الذي تطرزه وجعلت تساعدها في التطريز .

فقالت لها لويزا : كفاك عناء يا أمي واستريحي ، فأنا أتم هذا الوشاح إذ لم يبق منه غير القليل .

قالت : العلك نسيت يا ابنتي انه يجب علي تسليم الوشاح في هذا اليوم الى تلك السيدة الغنية .

— نعم ولقد ذكرت لي اسمها فهي ماري توشيت ، اليس كذلك ؟

نعم يا لويزا .

لماذا لم تخلق أغنياء يا أمي مثل هؤلاء الذين نشتغل لهم فنكتفي مشقة العمل ، وانما أقول ذلك من أجلك فاني سعيدة بقربك ويكفيني ذلك .

فنظرت حنـة إلى لويزا بنتهـا نظرة شفت عن الكآبة وقالت في نفسها تخاطب ابنتها :

إنك لا اسم لك ولا لقب ، ولكنك لو علمت إنك ابنة مونمورانسي فما كنت تقولين .

ثم ذهبت في مهامة التفكير فقالت لها لويزا بما تفكرين يا أماه ؟

فارتعشت حنة واغرورقت عيناهـــا بالدموع فقالت : افكر يا ا
بانك ما خلقت لهذا العمل الشاق ويسوءني ان تخز الأبر يديك البيضاوين .
وأخذت يدي بنتها وجعلت تقبلها .

فضحكت الفتاة وقالت لها : أتظنين يا أمي ان يدي تشبه أيادي الأميرات ؟

فزاد اضطراب حنة وأجابتها قائلة : من يعلم يا ابنتي لولا مساعدة الرجلان الشقيان ..

ثم توقفت فجأة عن الحديث فقالت لها لويزا :

متى تقولين لي يا أمي هذا السر الهائل المثقل على حياتك ، ومتى تذكرين لي اسم ثاني الرجلين الذي نغص عيشك هذا التنغيص ، فإنك لم تذكري لي غير اسم واحد .

— نعم يا لويزا ، وهو الشفالييه دي باردليان .

— إني لا انسى هذا الاسم وساكرهه ما حييت فقد كان السبب في شقائك ولكن اذكري لي اسم الاخر .

فسكتت حنة ولم تجب واحترمت البنت سكوت أمها فسكتتا على العمل حتى تم الوشاح .

وعند ذلك أخذته حنة وذهبت به الى تلك السيدة وهي ماري انطوانيت .

أما لويزا فإنها وقفت بعد ذهاب أمها تنظر من النافذة ، وقد أرسلت نظرها إلى فندق يقابل منزلها وقلبها يخفق بالرجاء .

وكان في نافذة إحدى غرف ذلك الفندق فتى جميل ، فلما رأى الفتاة أطلت من الشباك أرسل لها قبلة من يده .

فاحمر وجه الفتاة ثم اصفر ولبثت هنيهة وعيناهـا محدقتان بهذا الفتى ، فكانت هذه النظرات شبه اعتراف بموافقتها على الحب .

ولم تكن الفتاة تعرف هذا الفتى ، ولكنها لو عرفت اسمه لما وقفت في

تلك النافذة ، ولما نظرت اليه هذه النظرات وللعنته أشد لعن ، فان هذا الفتى كان يدعى الشفالييه دي باردليان الأصغر .

أي أبن باردليان الأكبر الذي عرف القراء أمره فيما تقدم من سياق الحديث

وحده قاضيه
منتدى الياليس
— ١١ —

باردليان الاصغر
جواده وكلبه وحسامه

كان باردليان الأصغر يقيم منذ ثلاثة أعوام في غرفة من أجمل غرف فندق دفيير تشرف على شارع سانت دينيس الذي تقيم فيه حنة وابنتها لويزا .

يسرى كيف تمكن هذا الشاب على فقره المدقع من الأقامة في هـذا الفندق الذي كان يعد من أشهر فنادق باريس في تلك الأيام .

ولا بد لنا قبل ذلك من أن نصف باردليان ، فقد عرفناه طفلا صغيراً قوي البنية خفيف الحركات ، وهو الآن في العشرين من عمره ريان الشباب ممتلىء البدن شديد الأعصاب لين العريكة .

وكان يلبس لباساً واحداً في الصيف والشتاء ، وهو من المخمل الأزرق وقبعته تختلف عن قبعات جميع الناس ، فهي مستديرة وعليها ريشة ديك ، وقد استعمل هـذه القبعة هنري الثالث فعم انتشارها ، ولكنها كانت من

مخترعات باردليان دون شك .

وكان عالي القامة براق العينين ولنظراته حلاوة ورهبة ، إذا التسم أ غضب ، وعلى الجملة فقد كان جميلا مهيبا في حين واحد .

وقد لقب نفسه كأبيه بلقب شفاليه ، فكان جميع سكان شوارع سانت دينيس وتامبيل وسانت انطوان ، وفي جميع خمارات الفلسان الأشرار يعرفونه ويخافونه .

وطالما رآه الأرواج ومعه نساؤهم يمر بهم وهو معتز كالملوك ، فيهرعون من لقائه بل طالما كانت السيدات يرفع سجوف مركباتهن لتشيعنه بالنظر

أما هو فقد كان طاهر القلب فلم يكن ينتبه لشيء مما يحيط به من اعجاب الناس ، بل كان يسير غير مكترث وانفه مرتفع للهواء كأنه ذئب يبحث عن مغنم ، وما غنمه غير معركة يثيرها أو خصم يبارزه وحادثة غرام تسليه .

وكان الجنود يخافونه فلا يعاملونه إلا باللطف والابتسام ، وقطاع الطريق الأشداء يعجبون به ويعرضون عليه أن يتولى رئاستهم فيأنف منهم . فكان جميع الناس يعجبون به على اختلاف الطبقات .

أما هذا البطل فلم يكن يمتلك شيئاً في الوجود ، إلا ما أنعم عليه به الله من صحة وظرف وقوة ، وحصان يدعى كالور وكلب يدعى بيبو وحسام طويل يدعى جيبوليه .

هذه هي كل ثروته ، وسنعود إلى حديث جواده وكلبه وسيفه فان لها شأناً في هذه الرواية .

ولنعد الان إلى حديث باردليان فنقول : انه قبل أن يرسل إلى لويز تلك القبلة من النافذة بستة أشهر دعاه اليه والده وكان يقيم معه في ذلك الفندق فقال له : إني دعوتك إلي يا بني لأودعك .

فاضطرب وقال له : ألعلك مسافر ؟

— نعم يا بني وقد كان خطر لي أن أقترح عليك السفر معي .

فاضطرب وجه باردليان وظهرت عليه علائم الاضطراب ، وكان أبوه يراقبه فقال له : لقد كان خطر لي هذا الخاطر ، ولكني رأيت بعد ذلك ان بقاءك في باريس أفضل ، فانها عاصمة البلاد ومقر الملك ومطمح أهل الأقدام مثلك

قال : ولكن ماذا يدعوك إلى السفر يا أبي ؟

أجاب : يدعوني اليه أمور كثيرة يا بني أخصها أني نشأت على التجوال والتضرب في الأرض ومناجاة الطبيعة في معظم جلالها ، وقد ضيق العيش في باريس صدري فلم أعد أستطيع الاقامة فيها .

وربما كان الدافع إلى سفر باردليان الأكبر سبب غير هذا يريد أن يكتمه فانه كان يتلجلج في قوله .

ثم مضى في حديثه فقال :

إني أفارقك الان يا بني وقد يكون هذا الفراق فراق الأبد ، فقد كدت أبلغ مبالغ الشيوخ ويسوءني اني ليس لي مما أدعه لك غير نصائحي الأبوية وهي إرثك الوحيد مني ، بل هي خير من المال فانها نتيجة التجارب والاختبار دهراً طويلا .

ورأى باردليان دمعة سقطت على وجنة ولده فقال : على م البكاء يا بني ان بكاءك يحزنني : فاحتفظ بدموعك ترسلها في غير هذا المقام ، فليس فراقي نكبة تدعو إلى البكاء .

واني مسافر يا بني ولكني أفتخر بأني تركت ولداً جديراً بأن يكافح في معترك الحياة . فأنت خير من حمل السيف وليس في جميع بلادنا الفرنسوية من يستطيع الثبات أمامك ومضاهاتك في ما علمتك إياه من فنون القتال ، فأنت حديد النظر ذو همة شماء شجاع عنيد لا يعوزك سبب من أسباب الفخار .

وفوق ذلك فقد كنت أحملك في حداثتك تارة على جوادي وتارة على ظهري

وطوراً أدعوك إلى المسير

فلما تجاوزت سن الحداثة كنت قد طفت جميع فرنسا من شرقها إلى مغربها وشمالها إلى جنوبها فتعلمت ما لم يتعلمه سواك

تعلمت أن تبيت على الفراش الخشن وأن تنام دون طعام ، وأن لا تكترث لبرد أو حر ، وأن تبسم لحرارة الشمس وتضحك لظل الأمطار وتراقص لهبوب العواصف . وأن تجوع وأن تعطش . نعم انك تعلمت كل ذلك يا بني ولذلك نشأت أشد بنية من الفولاذ .

ثم نظر بارداليان الأكبر إلى ولده نظرة اعجاب ومباهاة ، وعاد إلى حديثه فقال :

ومع ذلك فقد كان بوسعك أن تعيش عيش الهناء والراحة في منصب حسن برئاسة سيد له نبل الملوك وثروة تزيد عن ثروتهم ، ولكن جريمة حالت دون بلوغك هذا المنصب الذي كنت أعده لك .

فذعر الفتى وقال : أية جريمة تعني يا أبي ؟

— إذا لم تكن جريمة فهي بلاهة وأنا الذي ارتكبتها .

— انت ترتكب الجرائم يا أبي ؟ كلا ان ذلك محال . فان قلبك أشرف وألين من ان يرتكب الهفوات .

— اصغ إلي يا بني فاني بعد ان عشت زمناً طويلا جواب آفاق ناقت نفسي إلى الراحة فلقيت من يضمن لي هناء العيش ، وكان يجب علي أن احتفظ بمنصبي من اجلك ، ولكن رئيسي عهد إلي يوماً بمهمة سهل قضاؤها وهي اختطاف طفلة ، ففعلت وكافأني على ذلك بخاتم من الماس لا يقل ثمنه عن ثلاثة آلاف ريال ووعدني بضعفي هذا إذا أبقيت الطفلة عندي .

وقد عهد إلي بمهمة أخرى شائنة ، ولكني عولت منذ تلقيت الأمر بقضائها ان لا أقضيها ، ولذلك أكتمها عنك .

— وبعد ذلك .

— وبعد ذلك أجبت داعي الضمير ، فعصيت أمر الرئيس ، وأرجعت الطفلة إلى أمها وأعطيتها ذلك الخاتم جزاء خيانتي . فلم أجد بعد عصياني رئيسي سبيلا إلى البقاء عنده ، فكان نتيجة ذلك إني بت خمسة عاماً شريداً . ولذلك بت شقياً معدماً ، لم أدخر لك ما يعينك على العيش .

— من هي هذه الأم المنكودة يا أبي ، ومن هو هذا الرئيس الذي كنت في خدمته ؟

— ليس ذلك سري لأبوح لك به ، ولكن إعلم إنك بسبب جريمتي بت أشد فقراً من أيوب ، وهنا ينتهي شبهك بهذا الرجل ، المشهور بالصلاح والصبر .

والآن ، إصغ إلى ما أقوله لك واعرني سمعك لألقي عليك نصائحي لانها كل ما ترثه عني فاسمع :

أول ما أوصيك به يا بني ان لا تثق بأحد من الناس فليس بينهم من يستوى قيمة الجبل الذي يجب ان يشتق به .

إذا رأيت رجلا مشرفاً على الغرق ، إرفع له قبعتك مودعاً ، وامض في شأنك .

وإذا رأيت لصوصاً ينهبون رجلا في زاوية من زوايا الطريق فدعهم وشأنهم وسر في طريق آخر .

وإذا قال لك أحد الناس انه صديق لك ، ليكن اول بحثك عن الشر الذي ينويه لك .

وإذا قال لك انه يريد لك الخير البس درعاً من الزرد .

وإذا دعيت الى النجدة صم أذنيك كي لا تسمع ..

أتعدني يا بني ان لا تنسى شيئاً من أقوالي ؟

— نعم ، نعم .. وبعد ذلك ؟

— ثانياً ، يجب ان تكون شديد الحذر من النساء ، لان أشدهن وغ
في قلبها البراكين ، وأرفقهن بك أنفذهن سهماً إلى قلبك .

واعلم يا بني ، ان النساء خلقت لنا رياحين ، فتمتع من شم الريحان
ما شئت .

ولكن إحرص على قلبك ولا تبحه لغانية ولا تقيد نفسك بالغرام ، وإ
فعلت كنت سعيداً وعشت العيش الرغيد .

وكأنما هذه الوصية لم ترق لباردليان ، وهو يسمعها من شيخ مجلو
عهد الغرام .

— سأعمل بوصيتك يا أبي جهد الامكان .

— إذاً أسافر مطمئناً آمناً وسأبقي لك سيفي الطويل .

ثم نظر الى سيف طويل معلق على الجدار نظرة إعجاب فقام وانتزعه من
موضعه وعلق حمائله في عنق ولده .

ثم قال له بلهجة ملك يقلد وسامه من ينعم عليه :

— كن قوياً على نفسك ، وعلى النساء ، وعلى الرجال . وهذا السيف
الطويل النجاد خير عون لك ، فهو الصديق الذي لا يخدع ، والخليلة التي
لا تخون ..

والآن أستودعك الله يا بني .

فصاح باردليان يستوقف أباه ويقول : أبتي .. قل لي اسم هذه
المرأة التي أرجعت اليها ابنتها ، واسم هذا الرجل الذي كنت في
خدمته .

فأجابه بلهجة خطيرة : لقد قلت لك ان هذ السر ليس لي .

ورأى باردليان انه لا فائدة من الالحاح ، فاكتفى بتشييع أبيه إلى
خارج باب باريس . وهناك ودع الأب ولده وامتطى جواده ، واندفع به
يسابق الرياح .

وقد تكفى باردليان ورجع إلى الفندق آسفاً حزيناً وهو يعلم انه بات وحيداً
في الوجود لا رفيق له إلا هذا الذي أخذه من أبيه .

بعد ذلك باسبوعين كان باردليان يتنزه على ضفاف السين وعليه مظاهر
الكآبة فرأى عصابة من الغلمان قد طوقوا عنق كلب بحبل وجعلوا يجرونه إلى
حيث الماء بغية إغراقه .

فرق قلبه لنكبة الكلب وانقض على العصابة ففرقها وأنقذ الكلب وهو
يقول ان أبي أوصاني بعدم إنقاذ الغرقى من الناس لكنه لم ينهني عن إنقاذ
الغرقى من الكلاب .

ولا حاجة الى القول ، ان الكلب تعلق بمنقذه ، وجعل يقفو
خطواته ، غير أن باردليان كان يصعب عليه في أيام العسر تغذية نفسه ،
فحاول طرد الكلب .

ولكن هذا الكلب الأمين تمرغ على قدميه ، وجعل ينظر اليه بملء
السلامة ، كأنه يبرهن له عن إخلاصه واعتنائه . فمال باردليان اليه وذهب
به الى الفندق .

ولم يمض ثلاثة أشهر حتى عرف عيوب كلبه وحسناته ، ودعاه بيبو ،
وعرف كل طباعه . فقد كان ذكياً كثير اللعب ، سارقاً ، خطافاً ،
كذوباً

ولا يتذهل القراء من أننا وصفناه بالكذب ، فمن الثابت ان الكلاب
تتكلم ولكن ليس من يفهم لغتها ، غير انه مع هذه الصفات كان شجاعاً
مقداماً شديد الاخلاص ، فشفعت هذه المحاسن بتلك العيوب ، ودعت باردليان
إلى التعلق به .

وكان باردليان يقيم في ذلك الفندق مع أبيه في غرفة مظلمة تشرف على
فناء الفندق ، ولم يكن يكترث لعيوبها ، في عهد والده . ولما سافر
وبقي وحده تجلت له مساوئها ، بحيث أنف الاقامة فيها وجعل يعمل

الفكرة لإبدالها .

وفيما هو يفكر حانت منه التفاتة إلى الباب ، ورأى باب الغرفة ا
تقابل غرفته مفتوحاً . فدخل اليها ووجدها خالية ، وهي مفروشة أح
فرش ، وفيها كل ما يحتاج اليه ، فقال في نفسه : هذه هي الغرفة التي أر
الاقامة فيها .

ثم فتح نافذتها فوجد انها تشرف على شارع سانت دانيس .

فتأمل هنيهة جمال هذا الشارع وهم بالرجوع وإقفال النافذة ، فوقع نظره
فجأة على منزل مقابل للفندق ورأى في أعلا نافذة من نوافذ هذا المنزل فتاة لم تر
العيون أبدع منها فصاح صيحة دهش وإعجاب بلغت إلى مسامع الصبية فاحمر
وجهها استحياء وأقفلت النافذة .

فوقف باردالیان في مكانه منذهلاً مفتوناً لذلك الجمال الفضاح لا سيما وان
رأى تلك الفتاة مراراً تسير في ذلك الشارع ، ولكنه لم يعلم انها تقيم في ذلك
المنزل وان نافذة غرفة الفندق تشرف على منزلها

وقد لبث واقفاً تائهاً في مهامة التصور والتفكير إلى ان أيقظه من غفلته
صوت لاندري جريجوار صاحب الفندق .

كان لاندري هذا في حداثته ضعيف البنية هزيلاً ، فلما كبر وشب لم يزده
طولاً ، بل زاد عرضاً وكثر سمنة ، حتى بات عرضه مساوياً لطوله فأصبح
شبه البرميل .

فلما رأى باردالیان في تلك الغرفة قال له: إني أبحث عنك يا سيدي الشفالييه
منذ ساعة فلم أجدك لانك لم تكن في غرفتك .

فجلس باردالیان على كرسي وقال : اني فيها فقل ما تشاء .

فاضطرب لاندري ورد ، كيف أنت فيها ؟

– لا أرى داعياً إلى العجب لقد راقت لي هذه الحجرة فاستبدلت غرفتي
بها وسأبيت فيها الليلة .

فاصفر وجه صاحب الفندق ، ورد بصوت يتهدج من الغضب : إنك تختار
ما تريده من غرف فندقي في حين اني كنت قادماً اليك لاخبرك إني لا أستطيع
قبولك في غرفتك القديمة .

وأجاب على البرود : إذاً ، نحن متفقان ... إصنع بحجرتي القديمة
ما تشاء .

وهاج ثائر لاندري ورد : إذا كنت أرفض ان أبقيك في غرفتك القديمة
المظلمة فهل أأذن لك بالاقامة في أجمل غرفة من غرف فندقي وهي تؤجر بمائة
ريال على الاقل ..

– قد آن لي ان أتكلم يا سيدي الشفالييه ، إن أباك حين شرفني بالاقامة عندي
وعد ان يدفع لي الاجرة بشكل منظم ، وقد مضى عامان دون ان يدفع شيئاً
وهو ما لا يرضى به سواي .

– إن ذلك يشرفك يا لاندري .

– نعم ، ولكنه لا يغنيني . وقد طلبت إلى والدك بعد ما نفد صبري ان
يدفع لي ما عليه .

– وماذا أجاب ؟

أجابني بالصفع والضرب .

أفلا يؤدبك هذا الجزاء ، فتعلم وقحتك ، بطلب الاجرة من رجل
شريف ؟

– نعم ، لكن لا بد لي ان أقول لك يا سيدي أن والدك كان يحمي فندقي
ولا يدع أحداً يعتدي علي فيه ، وإذا عربد سكير عربدة تزعج الزبائن حمله
والقاه إلى الشارع فلا يجسر ان يعود .

– إذا كان ذلك أنت المدين له كما أرى .

– كفى مزاحاً يا حضرة الشفالييه .

– كما تشاء ، قل ما تريد .

— أريد ان تغادر فنـــدقي ، إلا إذا دفعت لي مؤخرات عامين
وعن والدك .

— أهذا آخر ما تقوله ؟

وتشجع صاحب الفندق بما رآه من لطف باردالیان وقال له : إن آخر كل
أقولها أن تكون هذه الليلة آخر لياليك عندي .

فخرج باردالیان بملء السكينة إلى غرفته ، فجاء بالعصا أبي كان
يعدها والده لضرب صاحب الفندق حين يطالبه ، وعاد فانهال بها لا
ظهر ذلك المنكود ، وهو يقول : يجب على الابن المهذب أن يقتدي بوالد
وقد كان والدي يضربك كما تقول ، فلا بد لولده ان يعمل عمله ، وم
أشبه والده فما ظلم .

وجعل باردالیان يضربه ضرباً موجعاً ، وصاحب الفندق يصيح ويستغيث
وأسرعت امرأته وفي أثرها الخدم والخادمات ، وهم مسلحون بأدوات
المطبخ والمكانس ، وكلهم يصيحون باصوات مختلفة . لان بعضهم توهم ان
النار قد شبت في الفندق ، وبعضهم حسبوا ان اللصوص هاجموه فلم يكترث
الجيران لهذا الصياح لانهم حسبوا انهم يقتلون احد الهيكنوت ، لان ذلك كان
كثير الاتفاق

ولما رأى باردالیان ان الحجرة قد غصت بالخدم ، عمد الى الحيلة ،
فحمل صاحب الفندق ودنا من النافذة ، وأمسكه بيديه وجعل جسمه
خارج النافذة .

ولما رأى صاحب الفندق هذا الخطر المحدق به ، ورأى ان باردالیان
يتهدده بالموت إذا لم يأمر خدمه بالانصراف صاح بهم بصوت يختنق من الخوف
أخرجوا جميعكم وإلا تركني فهويت .

ولم يسع الخدم غير الامتثال ، وخرجوا جميعهم ، ولم يبق غير المرأة
صاحب الفندق .

والغريب انها لم تكن بادية عليها علائم الخوف ، وهي ترى زوجها في
أيدي الاعطار
وأما لاندري فإنه جعل يستغيث بباردالیان ويقول له : رحماك أرجعني
إلى الحجرة .

— أتعود بعد الآن إلى مثل تلك المطالب ؟

كلا ! كلا !

— أيحق لي الإقامة في هذه الحجرة ؟

— بل إن الفندق كله لك ... أرجعني إلى الحجرة بحق الله ، لاني
أكاد أموت .

وأعاده باردالیان ببطء ، والقاه على كرسي ، وقد وهنت عزائمه وكاد
يغمى عليه .

فحملت امرأته تنضح وجهه بالماء ثم نظرت إلى باردالیان بدلال ، وقالت
له برفق : ماذا فعلت يا سيدي الشفالیيه ؟ إنه لو سقط من يدك لمات
في الحال .

— إن ذاك محال يا سيدتي .

— كيف تقول محال ، ألا ترى هذا العلو الشاهق ؟

فابتسم باردالیان وقال : إنه يقع على بطنه يا سيدتي فيثب . ألا ترينه يشبه
كرة الجلد المحشوة هواء .

وبعد ان تاب لاندري إلى رشده عقد مع باردالیان اتفاقاً خلاصته انه
يحق له ان يقيم في تلك الغرفة الجميلة ويحق له ان يتناول طعام العشاء في الفندق
على شرط ان يحميه .

وتعهد الشفالیيه بحمايته ، وأقسم بشرفه . فعقد الصلح على ذاك
وتم الاتفاق .

وقد عرفنا الآن كيف ان باردالیان ، على فقره المدقع كان يقيم في أجمل

غرفة من اجمل فنادق باريس .

وعرفنا كيف انه نال ذاك السيف الطويل من والده .

وكيف حصل على ذاك الكلب بعد ان فرق عنه الغلمان . وبقي علينا ان نعلم كيف فاز بذاك الجواد فنقول :

إنه خرج ليلة من إحدى الحانات ، وقد أفرط في الشراب ، مع احد أصحابه حتى بات يشبه السكارى ، أي انه كان يترنح بمشيته ، وحسامه الطويل يقرع بلاط الشارع ، فيخرج له نغمة يطرب لها قلبه ويندفع في الغناء بملء صوته .

وقد أخذ ينشد نشيداً غرامياً كان مشهوراً في ذاك العهد . فلما أتم الفقرة الاولى منه وقف وجعل يحدث نفسه فيقول :

أحق إني أصبحت من العشاق فينطبق علي قول هذا الشاعر .

كلا . إن ابي حذرني من النساء . . ولا بد لي من الامتثال لوصايا الصادقة .

لكنه لم يسر خطوتين حتى عاد إلى الغناء ، فأنشد الفقرة الثانية وفيها اوصاف الحسناء التي يتغزل فيها الشاعر .

فلما أتمها وقف وقفته الاولى

وقال كلا بل إن شعرها حيات تطوق الاعناق وما رضابها غير السم النقيع واما عيناها . . .

أواه إنها اذكرتني تلك اللحظات . . .

لكن ابي لا يريد ان اعشق فلأحذر النساء

وعاد إلى الغناء فلم يتم الفقرة الثالثة ، حتى سمع صوت رجـــل يستغيث ويقول : الينا يا اهل النجدة !

فانقطع عن الغناء واصغى إلى الصوت فتكررت الاستغاثة وكان الصوت يشبه اصوات الشيوخ .

يقال بأن دالبان في نفسه : ان الصوت صادر من شارع سانت انطوان ، حسب علي ، حسب وصية والدي ، ان اذهب في الجهة المضادة اي ان اسير إلى الشرق .

وقد عزل ان يعمل بهذه الوصية .

لكنه ما لبث ان سمع الصوت قد تكرر حتى جعل يعدو بخفة الغلمان الذين يقضون اوقاتهم في تسلق الاشجار .

وكان سريع العدو فلم تمر به هنيهة حتى وصل الى شارع سانت انطوان بدون ان يريد ، لانه اندفع مع تيار الفطرة ، وكان يود ان لا يخل بحرف من وصية والده .

وهناك رأى رجلين يحيط بهما اثنا عشر رجلاً من قطاع الطرق .

كان كل من الرجلين ممتطياً جواداً ، وفي يد احدهما عنان جواد ثالث خلا من فارسه .

وكان قائد هذا الجواد شيخاً متشحاً بملابس تدل على انه من خدام البيوت العظيمة ، وهو الذي كان يصرخ ويستغيث فيقول تارة إلى النار ، وتارة إلى اللصوص

غير ان اولئك اللصوص لم يخشوا الاستغاثة ، كأنهم كانوا واثقين انه لا يجسر على إغاثة فريستهم احد ، فلم يبالوا بالشيخ وصراخه وانقضوا على الفارس الآخر .

اما ذاك الفارس فكان يدافع عن نفسه اجمل دفاع ، دون ان يفوه بكلمة . وقد اصاب اثنين من اولئك المهاجمين بجراح بالغة ، فانقلبا على الارض

غير ان هذا الفارس على شدته ، وحسن دفاعه ، كان قد بدت عليه علائم الخور ، لتكاثر الاعداء من حوله ، لانهم اجمعوا كلهم على مهاجمته مرة واحدة

فنظر باردليان نظرة النسر الى الموقف فأدرك حرج الفارس وصاح
تشدد واصبر لقد اتيت لنجدتك !

ثم انقض على اللصوص انقضاض الصاعقة وجعل يعمل فيهم الضرب
قبل ان يجرد حسامه المشهور ، كأنه لا يتدانى إلى تجريده على اللصوص
يرزحون تحت ضرباته .

ثم كأنه اراد ان يظهر لهم قوة بدنه الهائلة ، فهجم على اثن
من اقربهم اليه ، وامسك عنق كل منهما باحدى يديه ، وضم
منهما الى الآخر بعنف شديد ، فالتطم الانف بالانف ، وعالت السماء
صياح الألم .

وبعدها القى بهما على اللصوص ، فسقطا على بعد خطوات وسقط معهما
كل من اصاباه .

ثم وقف امام الفارس ، وجرد حسامه الطويل ، بحماسة وتجلد
لها القلوب .

ولا ندري أذعر اولئك اللصوص مما شاهدوا من قوة هذا الرجل أم عرفوا
انه باردليان ولكنهم تراجعوا منذعرين وحملوا جرحاهم ، فلم تمر لحظة حتى
يبق منهم واحد .

وعندها برقت أسرة الفارس ببارق من السرور وقال لباردليان : إنك
والحق يقال أنقذتني من الموت

– أتعلم يا سيدي ماذا صنعت ؟

– كيف لا أعلم إنك أنقذت حياتي كما ذكرت .

– كلا يا سيدي بل إني ارتكبت جريمة .

فذهل الفارس لما سمعه وسأل : العلك تمزح ؟

– كلا ، لكني خالفت وصية والدي ، وأخشى ان أصاب بشكل من
هذا العصيان

– ولكنك في أي حال خدمتني أجل خدمة ، فماذا تريد ان يكون
جزاؤك ؟

– لا أريد شيئاً .

– إنما تتفضل بقبول هذا الجواد على سبيل التذكار لهذه الحادثة ، وهو
خير جيادي بل هو أفضل جواد لأن اسمه يدل عليه .

– وما اسمه يا سيدي ؟

– كاثور ، وهو اسم مغربي يراد به القوة .

فقال له باردليان بلهجة ملك يتفضل بقبول احترام أحد رعاياه : إني أقبل
ذلك هذا الجواد .

ثم وثب عليه فامتطاه بخفة قادرة ، كأنه قد ربي فوق ظهور الصافنات .

أما الفارس المجهول ، فإنه أشار بيده إلى باردليان إشارة وداع ،
والتصرف

وسار خادمه وراءه على مسافة بضعة أمتار ، فدنا منه باردليان وقال له
بصوت منخفض : أريد ان تخبرني اسم هذا الفارس الذي عصيت من أجله وصية
والدي في هذه الليلة ؟

فتمتم الخادم وأجاب : دون شك .

– ما اسمه ؟

هو هنري دي مونمورانسي مارشال دامفيل

وحده
قاضيه
منتدى
اسلس

- ١٢ -

بيت شارع باراس

فعاد باردالیان إلى الفندق بضيف جديد ، وقد وصل بعد أغلقت أبواب الفندق . فلم يوقظ خادماً ولم يقرع باباً ، بل سار بجواده قواً إلى الاصطبل ، فوضعه في أحسن مكان منه ووضع له العلف في المعلف ، ووقف يتأمل محاسنه ويفحصه فحص العارفين بالجياد .

وكان عجبه به شديداً ، وسروره لا يوصف ، لانه كان حقيقة كما وصفه له هنري .

وفيما هو على ذلك سمع من ورائه صوت صاحب الفندق يقول : ماذا تعمل هنا يا سيدي الشفالييه ؟

والتفت باردالیان اليه ، وقال له : إني أفحص ما غنمته من حرية الليلة . . .

فارتعش لاندري وسأل : العل هذا الجواد لك يا سيدي ؟

فوضع باردالیان حفنة من الشعير في المعلف وقال : ألم أخبرك اني غنمته هذه الليلة ؟

فقال صاحب الفندق وقد امتعض وجهه : أيجب علي ان أطعمه ؟

— إذاً أتريد ان يموت مثل هذا الفرس الكريم جوعاً ؟

ثم نظر إلى جواده فتأكد انه لا يعوزه شيء وحيى لاندري مودعاً ودخل

إلى الفندق وضعه إلى غرفته .

أما لاندري فانه وضع رأسه بين يديه ، ثم تمكن منه اليأس فحاول أن يقتلع شعره .

لكنه لم يفز في ما أراد لانه كان أصلع ولا شعر في رأسه الذي كان يلمع كالماج .

أما باردالیان فانه لم ير منذ ذلك اليوم إلا راكباً ، فكان يتطلى جواده ويسير عليه معتزاً به إعتزاز الملوك يتقدمه كلبه وأنفه مرتفع في الهواء يبحث عما يأكله او يسرقه من باعة الطيور .

وأما هذا الجواد الكريم فانه لم يكن يتحول عن الجهة اليمنى من الطريق مهما بذل باردالیان في سبيل رده . فكان الناس يضطرون حين مروره إلى المرور من جهة الشمال إلا من اراد منهم ان يداس .

وما يضاف إلى ذلك انه إذا بدرت بادرة انتقاد او تذمر من احد المارة فإن سيف باردالیان كان يخرج من نفسه من الغمد .

وعلى ذلك فقد القى باردالیان وحسامه وكلبه وجواده الرعب في قلوب سكان ذاك الشارع المقيم فيه ، وإنما تريد أهل الوقاحة والعناد من اولئك السكان .

وإن باردالیان ، على ما عرف القراء من صفاته ، كان والحق يقال رقيق الحاشية لين الجانب ، شريف الغاية لا يندفع في خصام إلا بغية الانتصار للضعيف .

واتفق له كثيراً انه كان يأتي بالفقير المتسول في قارعة الطريق فيجلسه أمامه على المائدة ويقتسم معه طعامه .

وفي مثل هذه الحوادث كان يدفع ثمن الطعام لصاحب الفندق وأما إذا كان وحده فلا يدفع شيئاً .

وقد اتفق مرة ان صاحب الفندق كان محتاجاً اليه ، فلما أراد دفع ثمن

طعام الفقير الذي جاء به أبي صاحب الفندق قبض الثمن ، فاستاء بارد
وقال : أتحسب انك من عظماء الأسياد ، وهب انك اللورد ذو كثير أو
الملك نفسه ، إني لا أسمح لك ان تتجاسر وتدفع ثمن ما يأكله صبي
ذلك وقاحة منك .

وحدث مرة انه جاء إلى الفندق مستعجلا فدخل إلى المطبخ وأخذ
مقلية ورغيفاً وزجاجة خمر ثم دفع ريالاً وانصرف .

فعجب الطباخ لأمره واقتفى أثره فرآه دخل إلى كوخ حقير كان فيه
ثلاثة من الفقراء فوضع الطعام بين أيديهم وحياهم بقبعته وانصرف دون ان
يفوه بحرف .

غير انه بعد خروجه من الكوخ قال : هوذا إني خالفت وصية
والدي مرة ثانية باحساني إلى الناس ، ولا أعلم ما يعد الله لي من العقاب
في الآخرة .

على انه كان يشعر بضجر شديد حين تمر به أيام لا تحدث له فيها
حوادث مؤثرة . فكان يسير في الشارع وعيناه شاخصتان إلى منزل حنة حتى
إذا رأى لويزا زال ما كان يشعر به من الضجر ، وفرح قلبه برؤية وجهها
الجميل كما كان يقول .

وقد تعودت الصبية تباعاً على نظراته فلم تعد تقفل النافذة بسرعة حين
تراه ، بل جعلت تنظر اليه مثل نظراته .

وقد وقف الأمر بهما عند هذا الحد ، لان لويزا لم تكن تعرف شيئاً من
أمره ، وهو لا يعرف منها إلا انها ابنة تلك السيدة التي لا تخلع الملابس
السوداء حتى لقبت بها ، وكان يعرف عن الأم وابنتها انهما ترتزقان من
صناعة التطريز .

وفي ذات يوم كان باردالیان ينظف ملابسه وعدته في غرفته وكان من عادة
امرأة لاندري ان تقضي عنه هذه المهمة ، لكن هذه المرأة الجميلة باغتته يوماً

وهو ينظر إلى لويزا نظرات الهائمين فعادت إلى المطبخ وانقطعت منذ ذاك اليوم
عن تنظيف عدته .

وكان باردالیان يشتغل بتنظيف عدته وملابسه بدل الاستياء ، لكن لم يجد
بداً من ذلك كي يروق في عيني لويزا .

وكان يقول في نفسه : إني إذا لم أجد وسيلة استطيع ان اقتدي برجال
البلاط في ما يلبسون فلا رجاء لي ان تحبني ، وكيف اطمع بحبها وهذا الثوب لم
استبدله منذ أربعة اعوام .

وعلى الجملة لقد كان باردالیان كثير السلامة والبساطة .

ولما أتم تنظيف ملابسه وسيفه ، لبسها وخرج من الفندق وهو عازم على
ان يبذل كل ما عز وهان ، في سبيل الحصول على تلك الملابس التي
كان يحلم بها .

لكن قبل ان يخرج من الفندق أطل من النافذة ، فرأى حنة خارجة
من المنزل وذاهبة إلى شارع سانت انطوان ، وفي الوقت نفسه برزت له
لويزا من تلك النافذة كما يبرز القمر من خلال الغيوم ، فأرسل لها تلك القبلة بيده
كما تقدم لنا ذكره .

أما لويزا فقد أحمر وجهها استحياء لكنها مع ذلك لبثت هنيهة في موقفها ثم
توارت بسرعة عن انظاره وابتعدت عن النافذة .

وأما باردالیان فقد خفق قلبه خفوقاً شديداً حتى شعر انه يكاد يخرج من
صدره فقال في نفسه : أحقيقة ما رأيته ام خيال ؟ .

إنها لم تستاء لجرأتي ، ولم تقفل النافذة . وكل ذلك يحمل على الرجاء
انها تحبني ، بالرغم عن حقارة ملابسي . إذاً لم يبق لي بد من مخاطبة
امها في الحال .

ولو اتفق لغيره من السفهاء مثل ما اتفق له لما خطر في باله ان يسرع إلى
مخاطبة امها ، بل كان اول ما يخطر في باله ان يغتنم فرصة غياب الام ليذهب

وينطرح على قدمي الفتاة .

على ان باردالیان خرج من غرفته راكضاً ، ونزل درجات السلم اربعاً اربعاً .

واسرع حتى ادرك حنة وهي تنتقل من شارع سانت دينيس إلى شارع سانت انطوان في جهة الباستيل .

وكان قد اندفع في اثرها دون تروٍ ، فلما وصل اليها لم يجسر ان يكلمها ، فجعل يتفقد اثرها على مسافة قريبة ، حتى وصلت إلى شارع باريس ووقفت عند باب منزل فيه .

وكان هذا المنزل صغيراً ولكنه كان حسن الرواء تحيط به الحدائق الغنية الناضرة فرآها باردالیان طرقت ذلك الباب وفتح لها فدخلت .

فوقف بقرب ذلك المنزل وهو يقول في نفسه : إنها ستخرج منه عائدة إلى منزلها فأكلمها إذ لا بد لي من محادثتها .

اما حنة فقد صعدت بها خادمة إلى الدور الأعلى من المنزل وادخلتها إلى غرفة مفروشة بأجمل الأثاث .

وكان في هذه الغرفة فتى جالساً بجانب صبية يحادثها فلما رأت الصبية حنة داخلة ابتسمت لها .

وقال لها الشاب : ارسمت ما اوصيتك برسمه ؟

فقالت حنة : نعم يا سيدي وهذا هو الرسم .

فسألته الصبية : ما هذا الرسم ؟

فأخذه من يد حنة وعرضه على الفتاة قائلاً : انظري اليه يا ماري علّه يروق لك فقد رسمته بيدي .

ونظرت اليه ماري وقالت : كيف لا يعجبني يا شارل ، والذي رسمته .

ثم اخذت تفحص ذلك الرسم الجميل ، وكلما نظرت الى زهرة ظهرت

عليها علائم السرور والاعجاب ، حتى إذا انتهت من فحصه انطرحت بين ذراعيه وهي تقول انك جعلتني أسعد النساء يا حبيبي شارل فضمها إلى صدره بحنو لا يوصف .

وكانت حنة واقفة تنظر اليهما وتقول في نفسها :

ما أسعد هذين العاشقين ، وأسفاه أما كان يجب أن اكون كذلك مع من أحب ؟

أما شارل فإنه لم يكن يخطر في باله وجود حنة في ذلك المكان ، وقد سكر بنظرات ماري .

فقال لها : نعم أيتها الحبيبة ، اني لا أفتكر إلا بك من قلب اللوفر ، فاني بينما أمي تحسب اني منهمك في إبادة الهوكينوت ، وبينما أخي الدوق دي أنجو يحسب اني افكر بأنجع الوسائل لقتله ، وبينما الدوق دي كيز يحدق في عيني ليقرأ ما كتب له في لوح المقدور ...

بينما جميع هؤلاء يفتكرون بما أنا براء منه ، أفكر أنا بأني أحبك ، وحدك ، لأني لا أجد غير ماري توشيت ، من تحبني حباً صادقاً في هذا الوجود .

وكانت ماري تسمع كلام من تحب وقد سكرت ايضاً باخلاصه الصحيح وحبه الأكيد ..

فقالت له : أشكرك ، يا صاحب الجلالة ، فقد جعلتني أسعد من ربات العروش .

فارتعشت حنة حين سمعتها وقالت في نفسها : شارل .. صاحب الجلالة .. ملك فرنسا .

ثم اهتزت اهتزازاً عنيفاً حين رأت نفسها واقفة بحضرة شارل التاسع ، الذي طالما خطر لها أن تذهب اليه وتسأله العدل ، ليس من أجلها ، بل من أجل ابنتها .

وعندئذ تقدمت خطوة كأنها تريد أن تبدأ الشكوى،
غير ان الملك لم يدع لها مجالاً فانه أبعد عنه حبيبته برفق .

وقال لها : دعي الجلالة والألقاب ، يا ماري ، فما أنا هنا غير محبك شارل الطاهر القلب ، لأني لم أسمع هذا الوصف إلا من فمك الجميل وهو لي أعظم سلوى .

ما أنا بملك أيتها الحبيبة ، وما أنا إلا رجل منكود تكرهه أمه ، ويبغضه اخوانه ...

اني لا أجسر أن آكل في اللوفر وأخاف ان اتنشق الهواء الذي يهب عليه ، فلا أجسر على مناولة الطعام والشراب ، إلا عندك أيتها الحبيبة ، ومن يدك ..

بل اني لا أجسر على استنشاق الهواء بملء رئتي إلا حين أكون بقربك ، فأنظري إلى قلبي ، كيف يخفق خفوق أجنحة الطائر ، حين تفكر بهؤلاء الناس .

فخافت عليه مساري عاقبة التأثير فقالت له : كفى يا شارل ... سكن روعك ..

ولكن الملك اندفع في تأثره فانتفخت عيناه ، واصفر وجهه ، واضطربت أعصابه . فقال لها :

– لقد طالما قلت لك إنهم يريدون موتي .. مساري انقذيني .. حياتي عندك .. اني قرأت بين عيونهم سور الموت ، ورأيت الحكم بقتلي مكتوباً في ضمائرهم بحروف من نار

فاضطربت ماري لما رأته من اندفاعه وقالت له :

بالله يا شارل كفى واشفق على نفسك فأن النوبة العصبية عائدة اليك .. انك عندي الآن .. انك بقرب ماري .

فدفع الملك ماري عنه وقد فاجأته النوبة وكانت هائلة فانه قبض بأحدى

يديه على الكرسي وضغط عليها حتى كاد يسحقها .

وسال العرق البارد من وجهه وجحظت عيناه والتهبتا فجعل ينظر بهما إلى أشخاص تمثلهم له النوبة ، ثم ضحك ضحكاً عالياً وقال :

ويح لأولئك الأشقياء انهم يبحثون عن طريقة لقتلي وينظرون في من يخلفني على العرش .

أهو أنت يا دي كيز الجهنمي ، ام أنت يا انجو وبابيران :

ويح القتلة السفاكين انهم جميعهم يتآمرون علي ..

ومن هؤلاء الذين يتقدمون إلي في جنح الظلام ، ومن هذا الذي يتولى زعامتهم ، أهو كوليسي ؟

ويحكم سترون عاقبة غروركم .. إلي ايها الجيوش .. اقبضوا على جميع هؤلاء اللصوص واذبحوهم أمامي ذبح الأغنام ..

ويله انهم يقتلونني .. إلي إلي . النجدة النجدة .

وقد ختم هذا القول بضحك عصبي ترتجف له القلوب ثم انطرح بين ذراعي ماري وقد استفحل أمر النوبة ولم يعد يعي على شيء .

فاسرعت حنة لمساعدة ماري .

فقالت لها ماري : استحلفك بالله يا سيدتي ان لا تذكري كلمة مما رأيته وسمعته رحمة بهذا الملك المنكود .

– اطمأني يا سيدتي فاني اعرف مصائب البشر حق المعرفان وان المصائب لا تأتي من البلوغ الى اصحاب التيجان . فاطمأني يا سيدتي واعلمي ان مثل هذه المصائب علمتني الكتمان .

فشكرتها ماري الطف شكر .

فقالت لها حنة ، ألا تريدين يا سيدتي أن اعينك في شيء ؟

فشكرتها أيضاً وقالت : لا حاجة إلى ذلك فانه سيصحو من نفسه ولا

يسكن روعه غير وجوده بين ذراعي كما تريده .

— إذاً يجب أن اذهب قبل أن يستفيق كي لا يعلم انه ارتكب ما ارتكبه من الضعف امام شاهد .

فشكرتها ماري أجمل شكر ، وودعتها حنة وخرجت واليأس ملء قلبها فانها ضحت خير فرصة تتمكن فيها من عرض شكيتها على الملك .

ولم تكد تبرح ذلك المنزل ، حتى فتح شارل التاسع عينيه فمسح وجهه بيده ، ونظر نظراً مضطرباً إلى ما حوله ، فلما رأى ماري اطمأن وابتسم ابتسامة حزن .

قال : لا تزال النوبة تعاودني حتى تذهب بحياتي .

— اطمئن أيها الحبيب فقد زالت اعراضها أتم الزوال وهي أخف مما كانت عليه في المرة السابقة .

— لقد كان يوجد هنا امرأة وهي عاملة التطريز ، فاين هي ؟

— انها انصرفت منذ حين .

— أذهبت قبل النوبة .

— نعم ، ولم ترى شيئاً مما حدث ، فاستند علي أيها الحبيب واشرب جرعة من هذا الأكسير فانه يقويك .

ثم جلست وأجلسته بقربها فكان يطيعها كالطفل .

وبعد أن سقته الدواء ، وضعت رأسه على صدرها ، فساد السكوت في ذلك المنزل ، لأن ملك فرنسا كان قد انهكه التعب ، فنام ساكناً على صدر من يحب ، وهو مطمئن واثق ان هذا الملاك يحميه مدة رقاده من كيد الأعداء .

* * *

ولا بد لنا قبل ختام هذا الفصل من وصف الملك ومعشوقته في ذلك الحين لقد كان الملك متوسط القامة نحيل الجسم يبدو الاصفرار على وجهه وتدل عيناه على الاضطراب .

وهو يبسم عادة ابتسامات تدل على الشر ، ولكنه حين كان يبسم لماري كانت تظهر عليه دلائل الاخلاص الأكيد .

وعلى الجملة فإن هيئته كانت تدل على انه مصاب بمرض عصبي عضال ، فانه كان يضحك أحياناً دون سبب ضحكاً هائلاً يحمل على الاشفاق وهو لم يتجاوز بعد العشرين من العمر .

أما المرأة فقد كانت تزيده بثلاثة او أربعة أعوام ، وهي شقراء الشعر زرقاء العينين جميلة ، ولكن جمالها عادي لا يدعو الى الاعجاب ، غير أن عينيهـــا كانتا تدلان على حنو عجيب ، إذا نظرت بهما إلى الملك سحرته . وعلى الجملة فإن كل ما فيها يدل على الحنو والخلوص .

وهذا الذي حمل الملك على التفاني في غرامها والركون اليها ، حتى باتت مستودع أسراره ، وبات منزلها مأواه الذي يلجأ اليه حين يريد الأكل أو الشرب أو النوم ، فانه كان يخشى مكائد أهله في كل حين ولا يحسن أن يتبلغ في اللوفر بقوت .

وحده
قاضيه
منتدى
ليلاس

- ١٣ -

صوت الشعب صوت الله

أما باردالليان فإنه كان لا يزال واقفاً خارج المنزل ينتظر أن تعود هي فيكلمها ، إذ عزم كل العزم على محادثتها ، ولكن ماذا يقول لها ؟

أيقول لها انه يحب ابنتها وانه يريد أن يتزوجها ، ربما كان هذا مراده ، فهو نفسه لم يكن يعلم ما يجب أن يقول ولكن أقصى أمانيه أن يتقرب من الفتاة وأمها

وقد كان أعد الخطاب الذي أراد أن يلقيه عليها ، فلما رآها خرجت من المنزل ، وتقدمت الى الجهة التي كان فيها اضطرب قلبه وتلجلج لسانه فلما مرت به نسي بدء ذلك الخطاب الجميل الذي كان أعده ، ووقف وقوف البله ، ولم يجسر على أن يقول كلمة ، واكتفى بأن رفع قبعته وحياها بإله الاحترام .

وبعد أن سارت أمامه وقاب اليه رشده ، ذكر الفقرة الأولى التي كان نسيها من خطابه ، فجد في أثرها وهو يرجو ان يتوفق إلى محادثتها في شارع سانت ديسنيس .

ولم يخطر لهذا السادج الفطرة ان خير وسيلة في مثل هذه المواقف أن يزور الأم في منزلها ، ويخبرها بما يريد ، فإن البنات لا يخطرون في الشوارع ، ولكن ذلك لم يخطر في باله ، وقد ارتأى ان يكلمها فوجد رأيه

لباب الصواب .

رأيته سائراً في أثرها ، وهو على قيد عشرين خطوة منها إلى أن وصل إلى شارع سانت أنطوان ، فرأى ان باريس قد تغيرت واضطربت كما يضطرب البحر حين العاصفة .

وقد رأى الناس أفواجاً مختلطين يزحم بعضهم بعضاً وهم سائرون الى اللوفر وقد غصت بهم الطريق حتى لم يبق سبيل للمرور .

فقال باردالليان في نفسه : ما عسى أن يكون قد حدث ؟

وشغل بمراقبة الناس .

ثم التفت فوجد ان جنة قد توارت عن أنظاره ولم يبق سبيل إلى ادراكها لكثرة الزحام ، فسار مع الشعب السائر وهو لا يعلم أين يسير ، فكان كالخشبة العائمة تندفع مع التيار .

وكان يرى أمامه ثلاثة رجال ضخام الأجسام يسيرون متعاقدي الأيدي في طليعة الناس ، ولهم رقاب كرقاب الثيران ، وعيون يكاد يقطر منها الدم ، فكان الناس يسيرون في أثرهم ويصيحون : ليحيى كرفيه .. ليحيى كيرمي ! ليزو .. ليحيى كيرمي !

فسأل باردالليان رجلاً بقربه : من هم هؤلاء الأفيال ؟

فنظر الرجل نظرة إزدراء إلى باردالليان ولكنه ما لبث ان رأى سيفه الطويل حتى لطف لهجته وأجاب : كيف يا سيدي ألا تعرف كيرمي الجوهري وبيزو الجزار وكرفيه الكتبي ؟

أرجو يا سيدي ان تعذرني فإني قادم من الريف ، فهل هم هؤلاء الثلاثة الذين يحبونهم ..

نعم ، وهم أصحاب الدوق دي كيز

إن صداقتهم شرف عظيم لسيدي الدوق .

دون شك فإنهم المدافعون عن الديانة المقدسة .

أجابه باردالیان ببرود قائلاً : أية ديانة تعني يا سيدي ؟

– ديانتنا ... أي ديانة البابا والملكة ، والدوق دى كيز ، بل ديانة الشعب ..

– إذا كانت ديانة جميع الناس ، فهي ديانتي أيضاً ، فماذا تريد هذه الديانة ؟

– إصغ تعلم ما تريد ...

وكان باردالیان قد وصل في هذا الحين إلى الجسر الخشبي ، وهناك اشتد الزحام ، وزاد تجمهر الناس ، وكثر الهتاف للدوق دي كيز ، وجعل الجميع يصيحون بصوت واحد : ليمت الهوكينوت . ليمت البروتستانت !

فقال له الرجل : أسمعت ما يصيح به الشعب ؟ ان صوت الشعب يا سيدي صوت الله ..

– إذاً .. هو الله الذي يصيح الآن ليمت البروتستانت ؟

– بلا ريب ، فهو الذي أوحى الى الدوق دي كيز ان يهيج الشعب على هذه الطائفة المبتدعة .

وقد قدم اليوم هذا الدوق العظيم إلى باريس وسيمر بهذا المكان حين ذهابه إلى اللوفر ، فليحيى الدوق دي كيز ، وليمت ملكة نافار !

وعند ذلك دخل كثير من الناس بين باردليان وبعدته واصطفت الجماهير على جانبي الطريق لقرب وصول الدوق .

وكان باردالیان واقفاً عند مدخل الجسر وعلى يساره منزل قديم متداع إلى السقوط ، يظهر انه مهجوراً ، لأن جميع نوافذه كانت مقفلة في حين ان نوافذ البيوت المجاورة وسقوفها كانت غاصة بالناس .

وكان مقابل هذا المنزل الخرب منزل أقفلت نوافذه أيضاً ما خلا نافذة كانت مفتوحة ، فرأى من خلالها وجه امرأة كانت عيناها ترسلان نظرات نارية إلى تلك الجماهير التي كانت تصيح ليمت البروتستانت .

ولم يكن في ذلك العهد ، أحد من اهل تلك الطائفة في باريس ، وإذا كان وجود أحد منهم ، فقد كان مختبئاً دون شك ، وفوق ذلك فإن معاهدة الصلح متى أمضيت في سانت جرمين كانت تضمن الراحة والأمن في العاصمة .

إذاً لا بد أن يكون لهذا التجمهر سبب غير الهياج على الهوكينوت ، ولا بد الدافعين اليه مأرب آخر .

وقد رأى باردالیان ان الجزار والجوهري والكتبي ، جعلوا يمرون بالعصابات المجتمعة ويسرون اليهم كلاماً خاصاً ، فجعلوا يصيحون ليمت ملكة النافار .. لتلقى في المياه .

اما اولئك الزعماء الثلاثة ، فإنهم وقفوا في الجهة اليسرى من الجسر قرب باردالیان .

فقال باردالیان في نفسه : يظهر ان هذا اليوم يوم الغرائب .

وفيما هو ينظر الى الزعماء الثلاثة وهو معجب بتحمسهم رأى احدهم وهو ينظر إلى تلك النافذة التي خيل لباردالیان انه رأى منها وجه امرأة ، فرأى رجلاً مختبئاً وراء النافذة تبودلت إشارة سرية سريعة بينه وبين الزعيم ، ثم توارى عن الأنظار .

* * *

ولندخل الآن إلى ذلك المنزل لنعلم من كان فيه . فقد كان في تلك الغرفة المطلة على الشارع امرأة هزيلة متشحة بملابس السواد ، لها انف كأنف النسر وشفتان متلاصقتان ، ونظرات نافذة كنظرات النسر وهي جالسة على كرسي كبير .

وهذه المرأة هي كاترين دي مديسيس ، ارملة هنري الثاني ، ووالدة

شارل التاسع .

وكان بالقرب منها رجل لا يزال من اهل الشباب ، وهو واقف الجسال ، وهذا الرجل يدعى ريجياري الفلكي .

وقد كان واقفاً بقربها من غير كلفة كأنهما صديقان ، إذ لم يكن يبقى لها شيئاً من واجبات الاحترام التي تعودها الملوك من الرعية .

فضربت كاترين الأرض برجلها وقد ظهرت عليها علائم الجزع .

فابتسم لها ريجياري وقال لها :

— صبراً ايتها العزيزة .

— أانت واثق انها في باريس ؟

— كل الثقة ، فإن ملكة النافار جاءت امس ودخلت سراً الى باريس ، وهي لا بد قادمة لشأن خطير .

— ولكن كيف عرفت ذلك ؟

— من الجاسوسة التي عيناها في خدمتها .

— اليس دي ليكس ؟

— هي بعينها ، وهي والحق يقال من اذكى الجواسيس .

— أانت واثق ان ملكة النافار ستمر بهذا الجسر ؟

— دون شك ، ولولا ذلك لما استنجدت بالكتبي والجزار والجوهري ، اتظنين اني فعلت ذلك ليهتف الشعب للدوق دي كيز ؟ صبراً يا كاترين سوف ترين ..

فضمت كاترين يديها وقالت :

— ان كرهي لهذه المرأة لا يقف عند حد ..

إن الدوق دي كيز لا ابالي به فهو في قبضة يدي أعبث به كما اشاء وحين اشاء . اما ملكة النافار فهي العدو اللدود الشديد فإذا ظفرت بها خنقتها بيدي .

— لا تغمسي ايتها الحبيبة يدك الجميلة بالدم ، ودعي هذه المهمة للشعب ، فهو يتولى قضاءها عنك .

قسماً بزحل والمريخ ان المشهد سيكون فخيماً يستحق عناء الفرجة .

وعند ذلك سمعا ضجيج الشعب فدنت كاترين مع الفلكي من النافذة وجعلت تنظر وقد اصطكت اسنانها واتقدت عيناها بلهب الانتقام .

وبعد ان تطلعت قالت

— اني لا ارى غير هنري دى كيز .

— انظري هناك في آخر الجسر الاترين مركبة قادمة يخفرها الحراس ؟

— نعم ، نعم ..

— إن هذه المركبة لم تعد تستطيع الرجوع فقد طوقها الشعب .

صبري هنيهة إلى ان تصل ، وسترين ان كيرمي يعرف لأول نظرة ملكة النافار .

وكان هنري دي كيز يسير فوق الجسر ومعه نحو ثلاثين فارساً ، وهو يحيي الهاتفين له باليد والابتسام فيعيدون الهتاف قائلين : لتحيى الكنيسة وليسقط البروتستانت !

وكان مشهد هؤلاء الفرسان فخيماً ، فإنهم كانوا ممتطين الفخر الجياد . والمجارة الكريمة تلمع ، وتزيدها اشعة الشمس بريقاً فوق ثيابهم الحريرية ..

ولكن هيئة رئيسهم هنري كان اشد فخامة ، فقد كان في العشرين من عمره ، وهو عالي القامة ، قوي البنية شديد الانفة والكبرياء ، وقد انشح وشاح من الحرير الأزرق وبرقت اللآلىء والجواهر على قبعته فانعكست اشعتها على ملابسه الزرقاء ، فكان الناس يصيحون حين يمر بهم : ليحيى الدوق كيز !

والملكة تنظر اليه وتضم قبضتها بعنف ، حتى تكاد تدخل اظافرها

في جلدها من الحقد .

كل ذلك يجري وملك فرنسا نائم في منزل خليلته ماري توشيت لا يعلم شيئاً مما تكيده امه ، ومما يعمله الدوق دي كيز .

أما الدوق دي كيز فقد اجتاز الجسر مع حراسه ، فلما بلغوا إلى آخره اضطروا إلى الوقوف لكثرة الزحام .

وعند ذلك كثر الصياح من ورائهم ، وكان صياحاً مخيفاً حتى حتى الدوق على نفسه فوضع يده على قبضة خنجره .

ولكنه أيقن انهم لا يريدون به شراً .

وبدأ عندئذ ذلك الحادث الرهيب ، الذي كان يراه الدوق وام الملك وصديقها الفلكي .

وهو أن مركبة كانت تسير على ذلك الجسر فبلغت المنزل القديم الذي كان واقفاً بالقرب منه الزعماء الثلاثة وبارداليان .

وكانت المركبة بسيطة الظاهر ونوافذها محكمة الاقفال .

فلما وصلت الى ذلك المنزل فتحت نافذة المركبة لحظة ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية ، فهاج الزعماء هياج الضواري وصاحوا قائلين هوذا حنة دي البريت ملكة النافار !

ليمت البروتستانت ، لتمت ملكة النافار !

فهجم الشعب هجمة واحدة على المركبة فقلبوها وصاحوا قائلين: اطرحوا عدوة الدين في النهر ..

لتمت ملكة النافار !

وقبل ان تسقط المركبة وثبت منها امرأتان إلى الأرض ، فقالت احداهما وهي الأصغر سناً : رحماكم اشفقوا على جلالتها .

ولكن هيأتها لم تكن تدل على انها خائفة من هذا الموقف الخطر .

فأشار الزعماء الثلاثة إلى الملكة وقالوا : هذه هي . هذه هي !

أما الملكة فإنها وضعت يدها على وجهها بملء الجلال ومشت إلى ذلك البيت الخرب كأنما قوة خفية تدفعها اليه .

فارتفعت الأصوات حتى طبقت عنان الفضاء ومدت الأيدي إلى الملكة ، فلو أدركتها لمزقتها .

وفي ذلك الحين كانت كاترين أم الملك والفلكي في النافذة ، والدوق دي كيز فوق جواده ينظرون إلى هذا الحادث الهائل ، وهو هجوم الف رجل على امرأة هجوم الوحوش المفترسة .

ولكن تلك الأيدي لم تصل الى الملكة فإن رجلاً اخترق هذه الجموع وجعل يفرقهم بيديه ورجليه ورأسه وكوعيه ، كأنه القضاء المنزل ، فلا يسمع من حوله غير التألم ، ولم تمر هنيهة حتى تمكن من جعل فسحة خالية بين باب المنزل الذي كانت المرأتان واقفتين عنده ، وبين جمهور الثائرين وزعمائهم الثلاثة .

وعند ذلك جرد حسامه الطويل وجعل يفتك به اولئك المتحمسين فيعودون عنه والذعر ملء قلوبهم ، ثم يعودون إلى ما كانوا عليه من الهجوم ويعود إلى ما كان عليه من القتل .

أما كاترين فإنها أعجبت بهذا الباسل ، بقدر ما خافت منه على نجاة ملكة النافار ، فقالت للفلكي : يجب إما أن يكون هذا الفتى لي أو يموت .

فأجابها الفلكي : لقد خطر لي ما خطر لك فاني لم أجد أشد منه إقداماً ولا أنفذ حساماً إلى القلوب .

وقال الدوق دي كيز لأحد أخصائه : يجب أن أعرف هذا الرجل الذي ينقض انقضاض الصاعقة ولا يحفل بالموت

أما هذا الباسل الذي أرادت أم الملك أن يكون من رجالها ، وهذا البطل الذي أراد أن يعرفه الدوق دي كيز ، فقد كان الشفاليه دارداليان .

وكان باردالیان حين رأى الزعماء ورجالهم هجموا على المركبة ورأى إن فيها إمرأتين حاول الهجوم .

فتعلق به ذلك الرجل الذي كان يحادثه وقال له دعهم يفعلوا واذكر ما قلته لك وهو ان صوت الشعب من صوت الله .

فدفعه باردالیان فانقلب الرجل يهوي الى الأرض وهو يقول : ما هذا بشراً ، إن هذا إلا شيطان رجيم .

— ١٤ —

ملكة نافار

فلم تمر نصف دقيقة حتى كانت الجماهير محدقة بباردليان تتذر وتتوعد وهو لا يفوه بكلمة بل ينيب عنه حسامه الطويل بالجواب .

على أن ذلك لا يمكن أن يكون ، فإن أولئك المتحمسين كانوا يعدون بالمئات وهو واحد فرد فأيقن أنهم سيسحقونه سحق الزجاج في أقرب حين .

وعند ذلك ضرب بحسامه أحد الهاجمين عليه ضربة أوقعت الرعب في قلوب سواه والتفت إلى المرأتين فقال لهما : تأهبا .

ثم هجم على باب المنزل الخرب ورفسه برجله رفسة قوضت أركانه ، ولكنه لم يفتح .

فعلم الهائجون غرضه وهجم عليه نحو خمسة منهم ، فلم تكن إلا لحظة حتى سقط اثنان يتخضبان بدمهما فشغل بهما الآخرون .

وعاد باردليان إلى الباب فرفسه برجله أيضاً رفسة شديدة فانكسر وفتح .

فقالت الملكة لرفيقتهـــا تعالي معي يا اليس ، ثم ولجتا ذلك الباب وتبعهما باردليان .

أما الشعب فلما رأى أن فريسته قد هربت منه ، زأر زئير الضواري ودوت أصواته في الفضاء دوي الرعود حتى اهتز المنزل الخرب ، وأوشك أن يتهدم واختفى الزعماء الثلاثة بين الناس الثائرين فكانوا يشبهون الجيش حين هجومه .

حتى إذا وصلوا إلى ذلك الباب وبعضهم يسير فوق بعض ، رأوه قد أقفل من الداخل فوقفوا عنده كأنهم يتشاورون فيما يجب أن يصنعوه .

وذلك انه بعد أن دخلت الملكة ، ووصيفتها إلى ذلك المنزل جعل باردليان يضرب بحسامه يمنة ويسرة كيفما اتفق ، وكل ضربة يخر لها صريع أو يأن لها جريح حتى إذا رأى القوم قد دعروا منه وارتدوا عنه وثب إلى المنزل ورفع الباب الساقط ، فرده إلى موضعه وجعل ينظر إلى مـا حواليه نظرات تأجج ناراً .

وكان هذا المنزل منزل نجار وفيه كثير من الألواح الغليظة ، فأخذ منهـــا خمسة ألواح ودعم بها الباب بحيث أمن اغتصابه إلى حين .

وكان أول كلمة قالتها الملكة انها سألته : من أية ملة أنت يا سيدي ؟

— أن مذهبي الان يا سيدتي أن اصون حياتك من الخطر .

فنظرت اليه الملكة نظرة اعجاب يستحقها ، فقد كان ممزق الملابس دامي اليدين والوجه ، وهو لا ينفك عن الابتسام فكان في تلك اللحظة جميلاً يشرق وجهه بنور البشر على مـا هو فيه من الخطر ، وتبدو بين عينيه علائم الجرأة النادرة فتزيده جمالاً .

ثم قالت له الملكة : انه إذا كان قد قضي علينا بالموت فاريد قبل موتي أن اشكرك وأقول لك اني في ساعة موتي لقيت أعظم بطل نبيل لا يدانيه أحد

من الذين عرفتهم من الابطال

فقال لها باردليان : اننا لم نمت بعد يا سيدتي ، ولا يزال لدينا ثلاثة دقائق فان المهاجمين لا يكسرون الباب ولا يصلون الينا قبل هـذا الزمن ، فاصبري يا سيدتي علنا ننجو .

ثم فحص المكان الذي هم فيه بنظرة فرآه قاعة متسعة فيهـا كل آلات النجارة ، وقد اسند سقف هذه القاعة على ثلاثة اعمدة من الخشب .

وهذه الاعمدة تخترق أرض القاعة وتنفذ منها إلى الاقبية .

فمشى باردليان في تلك القاعة مسرعاً فاحصاً ، فوجد في آخرها منفذاً إلى القبو الـكائن تحتها .

وعند ذلك نادى المرأتين فاسرعتا اليه فقال لها : انزلا إلى القبو .

فقالت له الملكة : وأنت ؟

ـ بالله يا سيدتي امتثلي ولا تسأليني الان شيئاً ، فان المرقف حرج والمقام ضيق .

فامتثلت الملكة ونزلت على سلم القبو تتبعهـا وصيفتها ، وفحصت ذلك القبو الـكائن تحت القاعة ، فسمعت هدير الأمواج وعلمت ان هذا المنزل مبني على أوتاد قائمة في الماء .

فاستبشرت وجعلت تبحث عن المنفـذ المؤدي إلى النهر وهي تسمع فوق رأسها أصواتاً انسانية تشبه قصف الرعود ولا تفهم منها غير كلمة الموت .

ولم يكن قد مضى على دخولها إلى المنزل اكثر من دقيقة فأصغت كي تعلم من أين مصدر الأصوات ، فسمعت صوتاً يشبه صوت المنشار حين النشر .

ولكن ذلك لم يطـــل فان اصوات الثائرين تغلبت على صوت النشر فلم تعد تسمعه .

وعادت إلى البحث عن المنفذ وقد استشار فكرها في هذا الموقف الرهيب موقف الموت الأكيد .

فبينما هي سائرة عثرت رجلهـا بحلقة من الحديد ، فمدت يدها اليهـا وانتزعتها بقوة ضاعفها اليأس ففتح باب خشبي ، فرأت منه وهي تتنهد تنهد المنفرج بعد ضيق ، سلماً من الخشب ينتهي إلى نهر السين ، ورأت قارباً عند أسفل السلم .

ففرحت فرحاً عظيماً وأسرعت إلى باب القبو تنادي باردليان .

فسمع باردليان نداءهـا وقال لها : لبيك يا سيدتي فاننا إذا متنا الان يموت معنا كثيرون .

ثم ظهر لها عند أعلى السلم وفي يديه حبل غليظ وهو يشد به شداً عنيفاً حتى ان عروق صدغيه كادت تنفجر .

وفي هـــذه اللحظة كان الهائجون قد كسروا الباب ودخلوا إلى المنزل جماعات وهم يصيحون : إلى الموت !

وفي هذه اللحظة أيضاً بذل باردليان آخر مـا لديه من قوته الهائلة في شد الحبـــل ، فسمع صوت عظيم هائل يشبه صوت الصاعقة المنقضة تلته أصوات مختلفة .

ذلك ان سقف هذا المنزل قد سقط على أولئك المهاجمين ، فقتل وجرح منهم مئات وعلت أصوات التألم والذعر .

ثم خفتت الأصوات وساد السكوت سكوت الموت ، فان باردليان كان قد نشر الدعائم الخشبية القائم عليها السقف وانتزعها بذلك الحبل فسقط السقف على المهاجمين .

وعند ذلك وثب من منفذ القاعة إلى القبو دون أن يصاب بأذى ، فوقع عند قدمي الملكة .

أما الملكة فقد ذعرت ذعراً شديداً دون أن تعلم مـا حدث ، فأنهضت باردليان ودلته بيدها على النهر والسلم والقارب .

فأسرع الثلاثة بالنزول وبعد هنيهة كان القارب يسير بهم إلى جهة اللوفر

والناس يعتقدون انهم هلكوا مع الذين سقط عليهم المنزل .

وبعد خمس دقائق وصلوا إلى الشاطىء وصعدوا اليه ، فوقف باردليان يبتسم ويده على سيفه وقوف من رافق هـــذه السيدة في نزهة وهو يلتمس الاذن بالانصراف .

فقالت له الملكة بسكينة لم تفارقها من ساعة الخطر إلى ساعة السلامة :

إني يا سيدي ملكة النافار ، فمن أنت ؟

– إني أدعى يا سيدتي الشفالييه دي باردليان .

– إنك يا سيدي خدمت أسرة بوربون خدمة جليلة لا تنساها مدى الحياة وتحفظها لك في صفحات تاريخها .

فأبدى باردليان إشارة كأنه يريد أن يتنصل من هذا الشكر فقالت له :

لا تتنصل من فضل ما فعلت يا سيدي الشفالييه ولا سيما أمامي .

فأجابها ببساطته المعروفة : لا أتنصل يا سيدتي من شيء فعلته أمام أحد ، ولا أنكر اني خدمت جلالتك خدمة جليلة إذ أنقذت حياتها من أشد الأخطار .

غير إني حين أقدمت على انقاذك لم أكن أعلم أنك من أصحاب السجان ، بل فعلت ما فعلته بغية انقاذ امرأتين كانتا في خطر .

فأعجبت ملكة النافار ببسالة باردليان وبساطته ، وهي التي طالما ألفت الحروب وأدارت رحاهـا كأشهر القواد ، وهي التي خاضت معارك السياسة فأرهبت أهل الحنكة والتدبير .

فلما أجابها باردليان هـذا الجواب ، نظرت اليه نظرة اعجاب ثم تحاول اخفاءها وقالت له : انك إذا شئت أن تتبعني إلى معسكر ولدي ضمنت لك الثروة والمجد .

فارتعش باردليان لذكر الثروة والمجـــد ، وفي الوقت نفسه تمثلت له

الحسناء بشعرها الجميل ولحاظها الفتانة ، فانقبضت نفسه حين افتكر انه سيترك باريس .

ووقف في شر موقف بين أن يترك تلك الفادة وهي عنده خير من كل ثروة ، وبين أن يترك تلك الثروة التي عرضت له اتفاقاً ، وهي كل مـــا كان يسعى اليه في هذا الوجود .

ولكن الغرام تغلب على نفسه فأجاب الملكة قائلا : ألتمس من جلالة الملكة أن تتفضل بقبول امتناني ، فإني عزمت على أن أبحث عن الثروة والمجد في باريس .

– لا بأس فليكن مـا تريد غير انه إذا أراد أحـد أتباعي أن يراك فأين يجدك .

– في فندق دافنيير في شارع سانت دانيس .

فارتسمت الملكة برأسها والتفتت إلى رفيقتها .

وكانت هذه الرفيقة والوصيفة بارعة الجمـال رشيقة الحركات ، وكانت على القلق بادية عليها في تلك الساعة تنظر إلى الملكة نظرات سريعة كانت أقرب إلى الدلالة على الخوف .

فقالت لها الملكة : لقد ارتكبت يا اليس خطأ فادحاً بأن جعلت المركبة تمر فوق الجسر .

فأجابتها الفتاة بثبات : لقد توهمت ان الطريق آمنة .

– ولقد أخطأت أيضاً بفتح نافذة المركبة .

فضعف ثبات الفتاة وقالت : لا أنكر ان ذلك كان مني على سبيل الفضول.

– ولقد أخطأت أيضاً يا اليس بأن ذكرت اسمي بصوت مرتفع أمـــام الجمهور الهائج وأنت تعلمين انهم أعدائي .

فاضطربت الفتاة عند ذلك اضطراباً شديداً وقالت : لقد طاش رأسي في

تلك الساعة ، فلم أعلم ماذا اصنع وانطلق لساني بما لا أريد .

فنظرت الملكة اليها نظرة منكرة ثم قالت لها بعد صمت قليل : إني لا اقصد توبيخك يا ابنتي ، ولكن لو أراد عدو تسليمي لما فعل أكثر مما فعلت فاعتبري بما بدر منك ولا تعودي إلى هذا الطيش .

وعادت إلى مخاطبة باردليان فقالت له : اني أود يا حضرة الشفالييه أن أعهد اليك بمهمة أخرى .

ـ تفضلي يا سيدتي ومري بما تشائين .

ـ أشكرك الشكر الجزيل ، والذي أريده منك أن تقفو خطواتنا على مسافة قريبة حتى نصل إلى حيث نحن ذاهبان ، فإني بحماية بطل مثلك لا أخاف أن أمر بين جيش .

فشكرها باردليان لثنائها عليه وثقتها به ، ثم تنهد وقال في نفسه : أية خسارة أبلغ من عدم استطاعتي مبارحة باريس لتعلق قلبي بالغرام ... لقد صدق أبي حين أوصاني بالحذر من النساء ، وما كان إلا من الصادقين .

وها أنا الان عالق بهوى جارتي أضيع مثل هذه الفرصة النادرة في سبيل هذا الغرام .

ثم نظر الى ملابسه الممزقة الخلقة فتنهد أيضاً وقال .

اني برحت منزلي وفي نيتي أن أعود اليه بأجمل لباس ، وها أنا سأعود اليه بنفس ملابسي ، وستعمل الابرة كل الليل بترقيعها بعد أن عمل سيفي طول النهار بتمزيق الجلود .

وكان باردليان يحدث نفسه بمثل هذه الأقوال وهو يتبع الملكة على قيد عشر خطوات ويده على قبضة حسامه ، والملكة تتوغل مسرعة مع وصيفتها في شوارع باريس .

وقد بدأ الجوع ينهش معدة باردليان فانه لم يأكل حين خروجه من الفندق لانشغاله في لحاق أم لويزا .

وبعد أن طافت الملكة كثيراً من الشوارع وقفت عند باب منزل في شارع فامبل وأشارت الى اليس أن تطرق الباب .

فامتثلت اليس وفتح البـــاب للفور ، فدخلت الملكة وأشارت إلى باردليان يتبعها .

وقالت له : انه يحق لك الان يا حضرة الشفالييه أن تقف على أعمالي فادخل معي .

فانحنى باردليان وقال : لا يحق لي يا سيدتي إلا أن أكون عبداً مطيعاً في تنفيذ أوامر جلالتك .

ودخـل الثلاثة إلى المنزل فاقفل الباب على أثر دخولهم واستقبلهم رجـل عجوز طويل اللحية بيضت شعره السنون ، فأجلسهم حول مائدة ونظر الى الملكة فابتسم .

ـ أهذا أنت يا سيدتي ؟ اني لم أرك منـــذ ثلاثة أعوام ، ولكن اسمك مطبوع في صندوقي ..

فأجابته الملكة بجفاء : نعم فاني أدعى مدام لارو .

ـ هو ذاك يا سيدتي فقد كدت الفظه لو لم تسبقيني اليه .

فهل لك أيضاً ما تبيعينني اياه من عقود اللؤلؤ وحجارة الماس ؟

وكان في يد الملكة كيس من الجلد فوضعته على المائدة وفتحته واخرجت ما فيه من المجوهرات فبدرته على المائدة دون انتظام .

فانقدت عينا اسحق العجوز ومد يده الى قطع الماس والياقوت والزمرد وغيرها من الحجارة الكريمة التي كانت تتوهج فتبزغ باجتماعها انوار مختلفة .

واما باردليان فانه حين رأى هذه المجوهرات وهي موضوعة بعضها على بعض فوق المائدة ، منها مجتمع ومنها متفرق .

ثم لما رأى نفسه واقفاً أمام هذه الثروة الشعرية ينظر إلى أنوارها الزرقاء والحمراء والخضراء كأنهـــا خارجة من اتون سحري حدق بعينيه كأنه غير

مصدق ما يراه .

ثم طار بالخيال الى من يحب فتصور ان هذا الكنز له ، وانه باع احدى جواهره ، فاشترى خير الملابس ورصع قبعته ببعضها ، وذهب يختال فخر نوافذ لوفرا وهو يرى انه ملك الدنيا .

ولكن هذا الحلم لم يطل فانه نظر الى ملابسه الممزقة فصحا من سكرة تصوراته ، ولم يعد يجسر ان ينظر إلى تلك الجواهر فتنهد وجعل ينظر الى الملكة .

كانت ملكة النافار في عهد هذه الرواية قد بلغت الثانية والاربعين من عمرها ، وهي لا تزال لابسة ملابس الحداد على زوجها انطوان دي بوربون ملك النافار المتوفي في سنة ١٥٦١ مع أنها لم تأسف أسفاً كثيراً على هذا الزوج الضعيف الارادة المتقلب الاراء الذي كان يرتبك لكثرة الاحزاب ، فلم يستطع لضعفه إلا ان يتخذ الموت حزباً حين حاجة بلاده إلى موت رئيسها المتخلع القلب .

وقد ترك بلاده ومشاكلها الى امرأته وهي أشهر النساء جرأة وأشدهن ذكاء وابعدهن في السياسة وحسن التدبير نظراً .

وكانت زرقاء العينين ولكن نظراتها كانت تخترق حجب النفوس فتتغلغل الى اعماقها .

وكانت تبدو للرائي لأول وهلة انها من اهل الكسل والخمول ، ولكنها حين تتأثر لأمر تهيج عواطفها فتستحيل من حالة الى حالة .

وقد شبهها المؤرخون افرط جرأتها وغيرتها على تأييد المذهب البروتستاني بجان دارك الشهيرة ، وقالوا انه لم يحسل دون تمام هذا الشبه غير قلته في طريقها من العقبات التي أوقفت سيرها .

لقد وصفنا حنة زوجة فرنسوا وصف ام تحب ولدها ووصفنا كاترين دي

مديتس وصف أم لا تكترث لاولدها ، ونحن آخذون بوصف جان دي البرت ملكة النافار وهي أم أيضاً ، ولكنها كانت مناقضة لكاترين دي مديتس كل التناقض بالأمومة .

فبينما كاترين تبذل كل ما أوتيت من الذكاء والحيلة في سبيل تقويض سلطة ابنها ، كانت ملكة النافار لا يشغلها في الوجود غير تأييد عرش ولدها وجعل تاجه من اعظم التيجان .

ومن اجله خاضت معامع الحروب ، ووقفت فيها مواقف القواد الحاذقين وخاطرت في سبيل مجده بالنفس والنفيس .

وهي انما جاءت الى هذا الجوهري اليوم لتبيع ما بقي لديها من الجواهر وتنفق على جيش ولدها هنري .

فلما بسطت الجواهر على المائدة ارتعش باردليان وابتسم اليهودي ، وبقيت الملكة هادئة لا يبدو على وجهها شيء من ملامح التأثر .

أما اليهودي فانه أخذ ينظم هذه الجواهر ويرتبها حسب قيمتها وأثمانها .

ثم جعل يفحصها فحص العارف الخبير فيقطب تارة ويبتسم طوراً حتى فرغ من فحصها . فجعل يقدر ثمنها ويكتب على ورقة ثمن كل جوهرة .

ولما انتهى من تقديره قال للملكة :

- إن هذه الجواهر يا سيدتي تساوي ثلاثمائة الف فرنك .

فأجابته الملكة قائلة : لقد أصبت بتقديرك .

- إني أدفع لك مائتين وخمسين الفاً فإن النقد قليل في هذه الأيام .

رضيت .

- كيف تريدين أن أدفع لك القيمة ؟

- كما دفعت في المرة السابقة .

- أتريدين حوالة على أحد عملائي ؟

— نعم ، ولكني لا أحب ان يكون الدفع في بوردو كما كان قبلا .

— اختاري ، يا سيدتي المدينة التي ترغبينها ، فإن لي عملاء في جميع المدن .

— اخترت مدينة سانت .

فلم يجبها اليهودي ، بل أخذ ورقة فكتب عليها الحوالة ودفعها إلى الملكة فقرأتها ووضعتها في جيبها .

وعند ذلك نهض اليهودي وقال لها :

— اني يا سيدتي رهين أمرك في جميع هذه الشؤون .

فارتعشت الملكة وتنهدت بالرغم عنها ، لأن هذه الجواهر كانت آخر ما بقي لها ، وخرجت من منزله تتبعها اليس وبارداليان .

أمـــا بارداليان ، فإنه تبعها حائراً مبهوتاً ، وهو لا يعلم أيعجب بذلك اليهودي الذي دفع هذا المبلغ العظيم على سرعته بتقدير الجوهرات ، وهو واثق انه لا يخطىء .

أم يعجب بتلك المرأة التي لم تنظر نظرة إلى تلك الجواهر الكريمة الباهظة وارتضت ان تستبدلها بورقة عليها ختم وتوقيع بسيط .

وحده قاطسيله مستتدى لبيلاسس

- ١٥ -

السفراء الثلاثة

خرجت الملكة من باريس من باب سانت مرتين المجاور لشارع كامبل الذي كانت فيه .

وقد لقيت على مسافة مائتي خطوة من ذلك الباب مركبة كانت تنتظر وهي مركبة سفر تجرها أربعة جياد قوية ولها سائقان .

فسارت الملكة اليها دون ان تفوه بكلمة ، فأمرت وصيفتهـــا اليس ان تصعد الى المركبة .

ثم التفتت إلى بارداليان وقالت له إنك لست يا سيدي الشفـاليه من الذين يقتصر بشكرهم على الألسنة ، فإنك من أبطال العهـد القديم ، وأنت فوق كل مديح وثناء ، فأقتصر معك على كلمة الوداع ، وإذا ودعتك فإنما أودع أحد اولئك الأبطـال ، الذين كانوا يخوضون غمـار الحروب مع شارلمان العظيم .

ثم مدت له يدها فتناول بارداليان تلك اليد وقبلها بملء الاحـــترام وهو منذهل اشد الانذهال لما سمعه من فم الملكة .

وسارت المركبة بالملكة تنهب الأرض وبارداليان واقف مطرق إطراق المفكر وهو يناجي نفسه فيقول :

أنا من أبطـال العهد القديم .. أنا من أبطال شارلمان .. ولمـاذا لا

وطوراً أدعوك إلى المسير

فلما تجاوزت سن الحداثة كنت قد طفت جميع فرنسا من شرقها مغربها وشمالها إلى جنوبها فتعلمت ما لم يتعلمه سواك

تعلمت أن تبيت على الفراش الخشن وأن تنام دون طعام ، وأن لا تكترث لبرد أو حر ، وأن تبسم لحرارة الشمس وتضحك لهطل الأمطار وتركض لهبوب العواصف . وأن تجوع وأن تعطش . نعم انك تعلمت كل ذلك يا بني ولذلك نشأت أشد بنية من الفولاذ .

ثم نظر بارمليان الأكبر إلى ولده نظرة اعجاب ومباهاة ، وعاد إلى حديثه فقال :

ومع ذلك فقد كان بوسعك أن تعيش عيش الهناء والراحة في منصب حسن برئاسة سيد له نبل الملوك وثروة تزيد عن ثروتهم ، ولكن جريمة حالت دون بلوغك هذا المنصب الذي كنت أعده لك .

فذعر الفتى وقال : أية جريمة تعني يا أبي ؟

— إذا لم تكن جريمة فهي بلاهة وأنا الذي ارتكبتها .

— انت ترتكب الجرائم يا أبي ؟ كلا ان ذلك محال . فان قلبك الطيب ألين من ان يرتكب الهفوات .

— اصغ إلي يا بني فاني بعد ان عشت زمناً طويلا جواب آفاق تعبت نفسي إلى الراحة فلقيت من يضمن لي هناء العيش ، وكان يجب علي أن استغل بمنصبي من اجلك ، ولكن رئيسي عهد إلي يوماً بمهمة سهل قضاؤها وهي اختطاف طفلة ، ففعلت وكافأني على ذلك بخاتم من الماس لا يقل ثمنه عن ثلاثة آلاف ريال ووعدني بضعفي هذا إذا أبقيت الطفلة عندي .

وقد عهد إلي بمهمة أخرى شائنة ، ولكني عولت منذ تلقيت الأمر بقضائها ان لا أقضيها ، ولذلك أكتمها عنك .

— وبعد ذلك .

وبعد ذلك أجبت داعي الضمير ، فعصيت أمر الرئيس ، وأرجعت الطفلة إلى أمها وأعطيتها ذلك الخاتم جزاء خيانتي . فلم أجد بعد عصياني رئيسي سبيلا إلى البقاء عنده ، فكان نتيجة ذلك إني بت خمسة عشر عاماً شريداً . ولذلك بت شقياً معدماً ، لم أدخر لك ما يعينك على العيش .

— من هي هذه الأم المنكودة يا أبي ، ومن هو هذا الرئيس الذي كنت في خدمته ؟

— ليس ذلك سري لأبوح لك به ، ولكن إعلم إنك بسبب جريمتي بت أشد فقراً من أيوب ، وهنا ينتهي شبهك بهذا الرجل ، المشهور بالصلاح والصبر .

والآن ، إصغ إلى ما أقوله لك واعرني سمعك لألقي عليك نصائحي لانها كل ما تركه عني فاسمع :

أول ما أوصيك به يا بني ان لا تثق بأحد من الناس فليس بينهم من يسوى قيمة الحبل الذي يجب ان يشنق به .

إذا رأيت رجلا مشرفاً على الغرق ، إرفع له قبعتك مودعاً ، وامض في شأنك .

وإذا رأيت لصوصاً ينهبون رجلا في زاوية من زوايا الطريق فدعهم وشأنهم وسر في طريق آخر .

وإذا قال لك أحد الناس انه صديق لك ، ليكن اول بحثك عن الشر الذي ينويه لك .

وإذا قال لك انه يريد لك الخير البس درعاً من الزرد .

وإذا دعيت الى النجدة صم أذنيك كي لا تسمع ..

أتعدني يا بني ان لا تنسى شيئاً من أقوالي ؟

— نعم ، نعم .. وبعد ذلك ؟

أكون منهم .

بل لماذا لا أظهر للعالم أجمع ، ان من رزق حظاً من قوة البدن النفس وجب عليه ان يبذل تلك القوى في سبيل الفضيلة وخدمة الانسان ..

ولكنه حين ذكر الفضيلة تنبه وبرقت عيناه وقال ربح لنفسي ازال أخالف وصية ابي ، وهو الذي امرني ان احذر من نفسي ، وان ا من الناس ..

فلأذهبن الآن الى الفندق عساي اجد فيه ما اتبلغ به من القوت ، فق كاد يقتلني الجوع

وعند ذلك سار في طريق الفندق وهو يترنم بنشيد صيد كان كثير الشيو في تلك الأيام ، لأن الملك شارل التاسع قد وضع حد وصل الى باريس حي كان الحراس آخذين بإقفال أبوابها .

وبعد ذلك بساعة كان جالساً حول مائدة وضع عليها طعام شهي أعدته له امرأة لاندري صاحب الفندق ، وقد تأنقت به حسبما كي تجع مقدمة للصلح بينها وبين باردالیان ، ووقفت تخدمه وقد شمرت عن ساعدين كالعاج .

غير ان باردالیان كان منهمكاً بالتهام الطيور المقلية ، وقناني الخمر التي كانت تخفرها . فأكل وشرب ، حتى امتلأ جوفه ، وذهب إلى سريره ليستريح بالرقاد من عناء ذلك اليوم ، وغادر لاندري يتشهد لفرط ما شربه من الخمر ، وامرأة لاندري تشاوره لأنه لم يعن عليها بنظرة رضى .

وفي اليوم التالي نهض متأخراً وأخذ رداء تركه له أبوه وتشح به وكان اول ما فعله اهتمامه بخياطة ما تمزق من ثيابه في معركة الأمس .

ولا ندري أيعظم قدره في عيون القارئات لاهتمامه بترقيع ثيابه ،

... علماء يهتمون بترقيع ما مزقه حسامه من جلود الناس ، ... بالازدراء والاستخفاف ، لاشتغاله بالابرة ، وهو من أهل ...

... مثل معيشة الأبطال في عهد شارل التاسع ، وعلى القارئات والقراء ... يحكموا عليه بما يشاءون .

... وقد كان جالساً عند النافذة وظهره إلى باب الغرفة ، فبينما هو يخيط ثوبه ... سمع قرعاً خفيفاً على الباب واذن للطارق بالدخول دون ان يتزحزح من مكانه ... ويترك إبرته .

... وعند ذلك فتح باب الغرفة وسمع باردالیان صوت صاحب الفندق يقول : ... يسمح لي يا سيدي البرنس فتفضل بالدخول .

... والتفت باردالیان كي يرى من هذا الرجل الذي يدعوه صاحب الفندق ... بهذا الاسم ...

... ورأى رجلا على أتم ما يكون من مظاهر السيادة ، يلبس ملابس كبار ... النبلاء في ذلك العهد ، وقد زين ريشة قبعته بزمردة لم ير مثلها إلا بين جواهر ... الملك نفسه .

... فرأى باردالیان دنا من الباب وقال له وإبرته لا تزال في يده : تفضل ... يا سيدي وادخل .

... فأجابه الرجل بملء العظمة والجلال قائلا إذهب ، وادع لي سيدك ... في الحال .

... ونظر اليه باردالیان نظرة استكبار وقال له : ليس لي سيد ، فأنا ... سيد نفسي .

... فصعق الرجل لهذا الجواب الغريب ، لأن كل إنسان ، في ذلك ... العهد ، كان له سيد يحتمي به ويلجأ اليه ، حتى الملك نفسه ، فقد كان ... سيد الباريس

ووقف هنيهة مبهوتاً ، وهو يحدق ببارداليان ، حتى ظهر له من خلال عزيمته ما استدل منه انه يجل عن مقام الخدم فقال له : العفو يا سيدي الشفالييه باردالیان .

فابتسم وأجاب : لي الشرف ان أدعى بهذا الاسم .

فرفع الرجل قبعته وحياه بملء الاحترام قائلاً : إني قادم اليك يا سيدي الشفالييه من قبل سمو الدوق دي كيز ، لأعرب لك عن احترامه إياك وإعجابه بك .

— ثق إني أبادله احتراماً بإحترام وإعجاباً باعجاب .

— إن معركة الأمس يا سيدي قد أجلتك في النفوس ، ورفعتك إلى أعلى مقام .

— أتريد بها معركة الجسر ؟

— وسقوط المنزل أيضاً ، فلا تلهج الألسن بغير هذا الحديث ، حتى ان جان دورات ، شاعر الملك ، روى هذه الحادثة الجلالة حين دخوله في هذا الصباح .

— وماذا قال هذا الشاعر ؟

— قال إنك تستحق السجن في الباستيل ، لإقدامك على إنقاذ امرأتين مجرمتين كانتا تحاولان النجاة .

— وبماذا أجاب الملك ؟

— إنك لو كنت من رجال البلاط لعلمت للفور ان الملك لم يجب بحرف ، لأنه قليل الكلام . ومهما يكن من الأمر ، لقد أصبحت الآن في عيون الناس شبيهاً لأشيل ، وهم يقصون حديثك كما يروون أحاديث أبطال التاريخ .

— لا أنكر ذلك .

— وعلى الجملة يا سيدي ، إن مولاي الدوق دي كيز ، يسره ان

يظهر له عنايته ، بل تذكار منه فأرجوك ان تتكرم بقبوله ، كي لا تسيء إلى هذا الصديق الكبير .

فأخذ بارداليان الخاتم ووضعه في إصبعه وقال : معاذ الله ان أرفض هذا التذكار من مثل الدوق .

— أشكرك يا سيدي لقبول الهدية ولاحتفائك بي .

— بل أنا أشكر الدوق لهذا الخاتم النفيس ، وأشكرك لتفضلك بإبلاغي .

ودار بينهما سياق الحديث على الجاملة وبارداليان ينظر معجباً إلى ملابس هذا الرسول ولا يتمالك عن إظهار إعجابه .

إلى ان قاطعه الرسول فجأة وقال : لنبحث الآن في ما أتيت لأجله لأن مولاي ، الدوق دي كيز ، عازم على تجديد حاشيته لأسباب خطيرة ، وأنا أبسط لك الاقتراح ، بملء الحرية والجلاء ، فهل تريد ان تكون من أتباعه ؟

فابتسم بارداليان وقال :

— وأنا أجيبك بمثل حريتك وإخلاصك .

— ما هو جوابك ؟

— هو اني لا أكون إلا من أتباع نفسي .

— أهذا هو الجواب الذي يجب ان أنقله إلى مولاي الدوق ؟

— بل تزيد عليه ان لساني لا يفي حق امتناني لتعطفه علي وسأذهب اليه وأظهر له ما يخالج قلبي من الامتنان .

فظهرت دلائل الارتياح على محيا رسول الدوق وقال في نفسه : إنه بات لنا دون شك ، لكنه يريد ان يساوم الدوق على خدماته دون ان يطلع على شروطه أحد .

وقد اكتفى بهذا الجواب الصريح فودع باردالیان وانصرف أما باردالیان فإنه شيعه إلى الباب بالاكرام والتبجيل .

ثم عاد إلى غرفته ، فجعل يناجي نفسه ويقول : أرى القمر ابتسم لي وسالمتني الليالي ، وماذا عساي أطمع بأكثر من أن أكون في حاشية هذا الدوق العظيم ، وهو أعظم رجل في المملكة بعد الملك ، لا سيما وهو يدعوني اليه .

بل أية سعادة تفضل هذه السعادة ، وأي مستقبل خير من هذا المستقبل ، إني لا يمر بي بضعة أيام حتى تكون لي المنزلة الأولى بين رجال هذا البلاط العارف قدر الأبطال ...

إذاً لا بد لي من قبول الاقتراح ...

ولكن ما هذا الضعف الذي تولاني ، ويا ويح نفسي ، أنسيت وصية والدي ؟ .

ألم يقل لي لا تثق بأحد من الناس ؟..

كلا إني لا أقبل هذا الاقتراح .

ثم جعل يمشي في غرفته بخطوات مضطربة ، وقد سره أنه وجد هذا التعليل ، كي ينقطع عن التفكير بالدوق ، إلى النظر في هديته . فجعل يتأمل ذلك الخاتم الجميل ، وهو يتوهج في إصبعه كالنجم ، فبدأ بتثمينه .

فقال : إنه يساوي على الأقل مائة وعشرين ريالاً . بل إني قد أبيعه بمائة وخمسين .

وجعل يتأمله ، وكل ما زاده نظراً ، زاده ثمناً . حتى بلغت قيمته ثلاثمائة ريال .

وعند ذلك طرق باب غرفته ، فأدار الخاتم كي يخفي لمعانه ، وانتظر دخول الطارق .

فدخل رجل مشمّر برداء كبير ، وهو يلبس ملابس بسيطة ، تشبه ملابس التجار ، وحيا باردالیان باحترام وقال : أأنت هو الشفالييه باردالیان أي سيدي ؟

هو بعينه فماذا تريد منه ؟

سأخبرك بما أتيت لأجله ، لكني أحب ان أسألك قبل ذلك عن مولدك ، ففي أي يوم ولدت وفي أية ساعة وأي شهر وأي عام .

وقطب باردالیان إلى حسامه المعلق كأنه خشي ان يخرج من غمده ويعاقب هذا الرجل لفضوله .

ثم أجاب الرجل قائلاً : كلا يا سيدي وكل ما أعرفه اني أبلغ من العمر عشرين عاماً وقد ولدت في أيام التين .

فقال الرجل في نفسه : لا بأس ، فالاستشير النجوم بشأنه بقدر ما تيسر .

ثم قال لباردلیان الملك حر يا سيدي الشفالييه .

فابتسم باردلیان وأجاب : من يجسر ، يا سيدي ، على الادعاء أن حر ، حتى الملك نفسه ، فإنه لا يستطيع ان يخطو خطوة خارج القوس ...

وهذه الملكة كاترين التي يقولون عنها انها نالت من السيادة ما لم ينله الملك ، الم تظفر بهذه الحرية ...

بل هذا الدوق دي كيز ومونمورانسي وغيرهما من كبار النبلاء اليس لكل منهم قيد يرصف به ويشير الى استعباده .

وبعد ، فإنك تسألني إذا كنت حراً ، فكنت كأنك تسألني إذا كنت صاحب ثروة وللسؤالين أجوبة تتعلق بحالة المسؤول .

مثال ذلك عن نفسي ، إني حين امتلك ريالاً ، أحسب نفسي غنياً كالأمراء ، وحين استطيع أن أغازل زجاجة الخمر ، أحسب إني بلغت

درجات النبل .

وماذا تريد بالحرية ؟

انك إذا اردت بها إني استطيع أن انام عند الفجر واستيقظ عند الظهر واني أجول في الأسواق دون أن أخشى رقيباً ، وادخل إلى الحانة أو إلى الكنيسة حين اشاء ، وآكل واشرب حين اعطش واجوع ، واعاشر من احببت من النساء ، وأطوف بهـا شوارع باريس في أية ساعة اردتها من الليل دون مهابة .

واهزأ بقطاع الطرق واسير إلى حيث تدفعني الأهواء ولا حاكم علي غير سلطان قلبي ...

انك إذا كنت تعني الحرية بما ذكرته لك فانا حر بحمد الله .

وكان الرجل مصغياً أشد الاصغاء إلى كلامه ، فلما فرغ من حديثه مشى دون ان يجيبه الى مائدة فأخرج كيساً من تحت ردائه فوضعه عليها وقال له :

إن هذا الكيس يحتوي على مائتي ريال .

فدهش باردالیان وقال : مائتي ريال !

– وكل ريال ستة فرنكات .

– إنها تشبه الثروة .

– وهذه الثروة لك .

– إذاً إسمح لي ان أضعها في محل أمين .

ثم أخذ باردالیان الكيس بيد وتجف ووضعه في صندوق وبعد أن أقفله عاد إلى الرجل .

فقال له بلء السكينة : والآن أرجوك ان تقول لي يا سيدي لماذا أعطيتني هذا المال ؟

وكان يظن هذا الرجل انه امتلكه بهذه الهبة .

فلما رأى ما كان من سكينته وقلة اكتراثه أيقن أنه المغلوب ولكنه ملك

نفسه وحاول ان يسترد سلطانه عليه .

فقال له : إني أعطيتك هذا المال لاشتري به حريتك .

فلم يظهر باردالیان شيئاً من علائم الدهشة او التذمر بل قال له بلء السكينة إذا كان الأمر كذلك فإنك لا تزال مديناً لي بتسعمائة وتسعة وتسعين الفـاً وثمانية ريال .

فارتعش الرجل وقال : أيبلغ ثمن حريتك مليون ريال ؟

– وذلك في العام فقط .

وكان هذا الرجل ربني ريجياري الفلكي المشهور في ذلك العهد ، وصديق الملكة كاترين وشريكها بدسائسها وفتنها فشعر على دعائه انه لا قبل له بهذا المبلغ ونظر اليه نظرة إعجاب وقال :

أرى إنك تدير الكلام كما تدير الحسام ، وأنت شجاع العقل واللسان كما أنت ثابت القلب والجنان .

فاحتفظ يا سيدي بحريتك إذا شئت ، غير انك برهنت لي الآن على شدة ذكائك وحسن أدبك ، كما برهنت أمس للناس أجمعين على شجاعة قلبك وعضاء حسامك .

وما جئتك إلا لأعرض عليك خدمة غرض نبيل تتولاه أعظم أميرة ، فهل تريد ان تخدم هذا الغرض النبيل ؟

– لندع الغرض ولنبحث عن الأميرة ، فمن عسى تكون ، العلها مدام مرتلبانيه .

فظهرت على شفتي الفلكي علائم الاستخفاف .

فقال باردالیان : العلها مدام دي نيمورس .

– لا تجهد نفسك في البحث يا بني واقتصر على العلم ان هذه الأميرة أعظم الأميرات قوة في فرنسا .

– لكن يجب ان أعرف على الأقل تلك الأميرة التي تعرض علي خدمتها .

— إنك مصيب فيما تقول فتعال إذاً في الساعة العاشرة من مساء غد إلى الجسر الخشبي واصعد إلى أول منزل تجده عن يمين الجسر فاقرع عليه ثلاث مرات متوالية .

فارتعش باردليان إذ ذكر ذلك المنزل الذي رأى في نافذته وجه تلك المرأة المصفر فعزم للفور عزمـــاً تاماً وأجاب الرجل قائلا : لقد رضيت وسأذهب إلى المكان المعين .

فقال له الفلكي : هذا كل ما أريده منك .

ثم انحنى أمامه مودعاً بملء الاحترام وانصرف .

وبعد انصرافه جعل باردليان يفكر في هذه الأميرة التي وصفها الفلكي بقوله انها من أعظم أهل السلطة ، فقال في نفسه ثكلتني أمي ان لم تكن هذه الأميرة الملكة كاترين والدة الملك .

أما الغرض النبيل الذي تريد أن اتولاه في خدمتها فسوف أعرفه بعد المقابلة وأما الآن فقد انصرف هذا الرجل وهو يعرفني دون ان أعرفه ولكن لا بأس فلأفحص تلك الريالات التي منحني اياها .

ثم أخذ الكيس من الصندوق فأفرغ ما فيه على المائدة وجعل يعد الريالات ويضعها صفوفاً عمودية بعضها إلى جنب بعض ، وهو ينظر اليها بأتم السرور فرح القلب ، ويقول انها في الحقيقة مائتان ، وهي وهاجة لماعة لا أحد مثلها إلا في دار الضرب .

ووالله اني لست بحالم ، فاني أمسها بيدي واملأ منها جيوبي ..

وهذا الخاتم أيضاً ، فانه يوازي هذا المال او يزيد ، إذاً ، لقد بت من الأغنياء .

ولكن مالي اضطرب امام هذا المال ، ألعلي خفت من الثروة ولم أكن أخاف من الفقر ؟

وفيما هو يفكر هذا التفكير وقد بدأ ينصرف إلى تبديد هذا المال في سبل

الراحة من يعجب ، إذ قرع باب غرفته للمرة الثالثة ، فقام إلى الباب متذعراً وفتحه ولكنه لم يلبث أن رأى القادم حتى استعاد ذعره إلى دهشة . ذلك ان هذا الزائر الجديد كان يشبه الزائر الذي تقدمه شبهاً عجيباً بمشيته وخيلائه وتقاطيع وجهه واتقاد عينيه .

ولم يجد فرقاً بين الاثنين سوى أن الفلكي كان في الخامسة والاربعين من عمره والزائر الجديد لا يتجاوز الخامسة والعشرين .

ولكن هذا الشاب كانت تبدو عليه علائم الحزن وتدل نبرات صوته على كآبة خفية كامنة في نفسه .

فلما دخل الزائر ، جعل ينظر الى باردليان ، وباردليان ينظر اليه نظرة الفاحص .

ومن غرائب القلب في سرعة تأثره ، بل من عجائب اسرار تلك النظرة الأولى ان هذين الشابين لم يكد احدهما ينظر إلى الآخر حتى امتزج قلباهما كما يمتزج النور بالنور وهو سر من اسرار الطبيعة لا يعرف سيره إلا من يعرف سير الوداد والبغضاء .

وجملة القول ، ان هذه النظرات الأولى كانت رائد القلبين إلى الوداد ، فانحنى الزائر الجديد أمام الشفالييه وقال له : ألعلي يا سيدي بحضرة الشفالييه دي باردليان ؟

فأجابه باردليان برقة لم يتعودها قائلا :

هو ذلك يا سيدي ، فهل تأذن لي أن اسألك عن اسم الذي شرفني بهذه الزيارة في غرفتي الحقيرة ؟

فارتعش الزائر لهذا السؤال وقال له : لقد أصبت يا سيدي بسؤالك ، فان آداب الزيارات تقضي علي بأن أذكر لك اسمي .

وكأنما باردليان قد لاحظ انه يريد كتمان اسمه فقال له : اسألك العفو يا سيدي فاني ما طلبت اليك معرفة اسمك إلا لما شعرت به من الميل اليك ، أما

اذا كنت تريد كتمانه فاني من اعوانك على هذا الكتمان .

— كلا يا سيدي الشفالييه ، فليس اسمي سراً اريد كتمانه ، واني ا
ديودات .

ونعم ، اني لا ادعى بغير هذا الاسم الفرد ، وهو يفيد باللاتينية ،
اللقيط ، فاني وجدت عند باب كنيسة ، فعثرت بي امرأة فالتقطني وربتني
فكانت لي خيراً من الأمهات .

هذا هو اسمي وهذا تاريخه واني اذكر هذا التاريخ في كل مكان أمل بأن
يتصل بمن نبذني فيندم على ما رماني به من الشقاء .

وكان الزائر يتكلم بجلاء وحرية تشفان عن أدب نفسه وأثرت فيه
الحزينة على باردالیان ، وأراد أن يخفي تأثره بالحديث فقال له وهو ير
هذه المرأة التي ربتك كما تقول ؟

— إنها ملكة النافار .

— أهي مدام دي البريت ؟

— هي بعينها ، وهي التي عهدت الي بالمهمة التي تشرفت من أجلها
بزيارتك .

— بل أنت الذي شرفتني بزيارتك وأرجو أن تشرفني بصداقتك بمصافحة
يدي التي أمدها اليك بملء الإخلاص .

فمد ديودات يده فصافح باردالیان وهو يقول : ألا تحتقرني بعد أن علمت
أني من اللقطاء ؟

— بل أجلك وأحترمك لاسيما وقد اعترفت بهذه الدلة التي إذا عدت
نقيصة ، فإنما تبعتها على سواك لا عليك ، وأي ذنب جنيته فيحتقرك العاقلون
بل كيف لا أحترمك وأنا أراك طويل نجاد السيف ، ومخائل الشهامة تجول
بين عينيك .

— ثق ، أيها الشفالييه ، ان هذه هي المرة الأولى التي عرف نفسي فيها

، فقد تبينت من لهجتك وعينيك مروءة وكرماً لا أستطيع
بأنك بت معهما فوق جميع الذين عرفتهم من الأسياد والأمراء.

محادثة تبدأ على هذا النمط يجمل إنهاؤها على المائدة ، فهلم معي
فإن الظهر قد حان .

أيها الصديق
— أشكرك من صميم القلب أيها الشفالييه فقد عرفت بك حلاوة
الصداقة

— شروطها أيها الصديق أن لا تناديني حين نجتمع إلا باسمي دون
اللقب ، كما أناديك ، فأنا أدعوك ديودات وأنت تدعوني جان .

وعند ذلك نادى باردالیان صاحب الفندق فأسرع إلى تلبيته ، ورأى
الريالات مرصوفة على المائدة في غرفته فبرقت عيناه ووقف بحضرة باردالیان
وقوف الخدم فأمره باردالیان أن يعد لها طعاماً شهياً وأن يتأنق به بحيث
يكون كطعام أبناء الملوك .

فارتعش ديودات حين سمع هذه الجملة الأخيرة وخرج صاحب الفندق
لتنفيذ أمر الشفالييه .

وبعد ربع ساعة كان الاثنان على المائدة فبدأ ديودات الحديث فقال :

— إنك فتنتني أيها الصديق بكرم أخلاقك وأدب نفسك حتى كدت أن
أنسى المهمة التي جئت اليك من أجلها .

فقال الشفالييه : إني أعرف هذه المهمة .

كيف تعرفها ؟

— نعم ، فإن ملكة النافار أرسلتك إلي كي تشكرني باسمها على دفاعي
عنها أمس ، وكي تجدد ما اقترحته علي من دخولي في خدمتها وتقدم لي هدية
فاخرة ، أليس كذلك أيها الصديق ؟

— هو ما تقول ، ولكن كيف عرفت ؟

— إن الأمر بسيط فقد جاءني في هذا الصباح رسول من قبل أحد العظماء

فأعطاني خاتماً ثميناً من الماس واقترح علي أن أنتظم في خدمة مولاه ، ثم جاء بعده رسول آخر فأعطاني مائتي ريال وقال لي ان أميرة عظيمة تريد أن أكون من رجال حاشيتها ، ثم جئت أنت من قبل ملكة النافار فقلت في نفسي لا بد ان تكون مهمتك كمهمة الرسولين السابقين .

— لقد أصبت أيها الصديق ، وهذه هي الهدية .

ثم ناوله خاتماً من أنفس أنواع الياقوت .

فأخذه الشفاليه وقال له : هذه الهدية ، فلننتظر في بقية المهمة .

— ان جلالة الملكة عهدت إلي أن أخبرك أنها أخرجت هذه الياقوتة من كيس لا بد أن تكون قد رأيته وهي لا تنسى أنها مدينة لك ، وأمسى انتظامك في سلك جيشها فذلك منوط بك حين تريد .

— إذاً لقد ذهبت الى الملكة ؟

لم أذهب اليها ، بل هي أتت إلي فاني كنت انتظرها في ... وقد سافرت بعد ان عهدت إلي بهذه المهمة التي شرفتني بصداقتك .

اسمح لي أيها الصديق ان أسألك سؤالاً آخر ، ألم ترجين صعودك إلى غرفتك رجلاً متشحاً برداء كبير وهو في سن الكهول ؟

— كلا لم أر أحداً .

— ومتى عزمت على السفر ؟

فقطب ديودات حاجبيه وقال : اني لا أسافر لأن ملكة النافار عهدت الي بمهمات يقتضي لقضائها بعض الوقت ، ثم انه يجب عـــلي الاهتمام أيضاً بشؤوني الخاصة .

— إذا كان الأمر كذلك فإنك تقيم معي في هذا الفندق .

— أشكرك كل الشكر فإن أحدهم ينتظرني .. ولكن ماذا أقول ، اني أرى لساني قد انطلق في محادثتك حتى اني لا أجد ما يصدني عن الإباحة لك بأسراري فاعلم ان دي تاليني يقيم الآن سراً في باريس

هو صهر الأميرال كوليني ؟

— نعم ، وهو مقيم في قصر الاميرال في شارع بتهيزي ، فإذا أردت أن تجدني في ذلك القصر ، وإنك قد تراه خالياً مقفراً بالظاهر ، ولكنك إذا قرعت الباب ثلاث مرات متوالية يفتح لك رتاجة فتقول عند ذلك كلمة وهي (جارناك ومونكوتور) فيفتح الباب .

— أشكرك أيها الصديق لحسن ظنك بي ، ولكن أتعلم مـا يقال بشأن دي تاليني ؟

— وماذا عسى يقولون عنه سوى انه فقير لا ثروة له غير عقله وحسامه وان الأميرال أخطأ بتزويج ابنته من رجل لا ثروة له .

— نعم ويقولون أيضاً ان الخطاب قد ازدحموا على ابنته وانه قبل زواجها برجل عظيم فأعرب له عن حبه لابنته وعن رغبته بمصاهرته .

وهذا الرجل العظيم هو الدوق هنري دي كيز ، فإنه جـــاء الأميرال وتوسل اليه أن يزوجه ابنته ، فأجابه الأميرال ، ان من كان مثله لا ينكث وعده ، وانه قد وعد تاليني فلا سبيل إلى الرجعة ، لاسيما وان الخطيبـــين متحابان ، فخرج الدوق قانطاً ، وتزوج تاليني بنت الأميرال في اليوم التالي ، أما الدوق فقد حمله اليأس على الزواج بكاترين دي كليف .

— نعم ، وهي تحب جميع الناس ما خلا زوجها .

— ولها عشيق كما يقال ؟

— نعم ، وهو يدعى سانت ماجرين .

— الملك تعرفه ؟

— لقد عرفته اليوم ، واسمح لي أيها الصديق أن أخبرك بنبأ تجهله وهو أن الدوق دي كيز الآن في باريس .

— الملك واثق مما تقول ؟

— كل الثقة ، فقد رأيته أمس بعيني رسمت الشعب يهتف له .

فتناول ديودات حسامه مسرعاً وانتشح بمعطفه ، فودع صديقه ورفيقه وتوجه الى الباب يريد الانصراف .

- متى اراك ؟

- متى شئت في قصر الأميرال ولا تنس كلمة المرور .

وعند ذلك افترقا فذهب ديودات في شأنه ، وصعد باردالیان الى غرفته ، فأخذ قبضة من الريالات وخرج بها فاشترى خير الملابس التي كان يحلم بها ، ثم ذهب الى الجوهري الذي اشترى جواهر الملكة ليبيعه خاتم الدوق دي كيز ، أما ياقوتة الملكة فقد زين بها قبعته .

- ١٦ -

حفلة غريبة

لم يعد باردالیان إلى الفندق إلا بعد أن توارت الشمس في حجابها ، فكان يمشي مزدهياً مختالاً بثوبه الجديد ، وبما مر به في ذلك اليوم من الحوادث الداعية إلى المباهاة ، فإن الملوك وكبار الأمراء أرسلوا يخطبون وده ويتزاحمون على استخدام حسامه .

وقد وصل الى البيت الذي تقيم فيه جنة ورفع عينيه الى تلك النافذة التي طالما أطلت منها لويزا إطلال البدر من خلال الغمام ، وتمنى لو انه حين تصفح ما امتلك في ذلك اليوم من مال يشرط ان تبرز له من النافذة ويراه بثوبه الجميل وريشة قبعته التي تناطح السحاب .

وحده فالحديقه
منتدى الليلاس

ولكنه وجد النافذة مقفلة فتنهد والتفت إلى ناحية الفندق فرأى بالقرب منه ثلاثة رجال تدل ملابسهم على انهم من الأشراف وخيل له انهم يفحصون المنزل ويرانا إذ رآهم ينظرون اليه بإمعان .

ثم سمع احدهم يقول لأحد رفيقيه : أهذا هو المنزل يا مورفر ؟

فأجابه رفيقه : هو بعينه يا كاليس وان الفتاة تقيم في الدور الأول منه ، وقد استأجرت الدور الثاني في هذا الصباح .

فقال كاليس : اني لأعجب لاهتمام سموه بهذه الفتاة .

- ذلك ان سموه شديد الاتضاع ثم انه يرى ان عرش الغرام لا يرقى اليه على سلم الانساب .

- بل هو كالحوت لا يروعه شيئاً يلهمه ويصبح ظمآن وفي فمه البحر .

وهنا بدرت نكتة من مورفر لم يسمعها باردالیان فضحك الاثنان ضحكاً عالياً وافترق عنهما الثالث قائلاً الى اللقاء هذه الليلة .

وبينما الاثنان يحاولان الانصراف اقتداء به اقترب منهما باردالیان فقال لهما وقبعته بيده : أيأذنان لي سيدي ان اسألهما عما ينظران اليه في هذا المنزل ؟

فنظر كل من الاثنين الى الآخر نظرة اندهال ، ثم أجابه كاليس بعظمة قائلاً : لماذا تسألنا هذا السؤال يا سيدي .

- ذلك لأن المنزل منزلي .

وكان وجه باردالیان قد اصفر قليلاً من الغضب ، ولكن الرجلين لم يريا هذا الاصفرار ، لاسيما وانه كان يحدثهما بملء الرقة والأدب .

فقال له كاليس : الملائم حسبت اننا نريد شراء هذا البيت ؟

- ان منزلي غير معروض للبيع .

إذاً ماذا تريد ؟

أريد أن أنبهكم إلى أمر لم تفطنوا له ، وهو أنكم نظرتم إلى منزلي وضحكتم ، ولا أحب أن ينظر الناس إلى منزلي ويضحكون .

فاصفر وجه كاليس من الغضب وقال له : أنت لا تريد

وأخذ مورفر يد رفيقه وقال له : هلم بنا فان الرجل مجنون كما يظهر

فأجابه باردليان دون أن يظهر عليه شيء من علائم التأثر ، لست مجنوناً يا سيدي كما توهمت ، ولكني أكره من تدفعه الوقاحة فينظر إلى ما لا يجب أن ينظره .

— إنك تقضي على نفسك بنفسك فإنك تدعوني إلى قطع أذنيك

— بل إني أعاقب السفهاء فقد تعودت معاقبة من يضحكون أمامي إذا كان ضحكهم لا يروق لي ، فاذهبوا واضحكوا في غير هذا المكان .

فأجابه كاليس : وقد استشف من قوله أنه يدعوه إلى المبارزة ، إن أين تريد أن نذهب فنضحك ؟

— إلى الغابات .

— حسناً ، فمتى ؟

— الآن إذا أردت .

كلا ، ولكن في الساعة السابعة من صباح غد تجدني مع صديقي في المكان الذي عينته فاجتهد أن تضحك الليلة كثيراً لأنك لن تضحك بعدها .

فانحنى باردالیان أمامهما وقال : سأفعل ما تريدان .

ثم تركهما وذهب إلى قاعة المائدة وهو يفكر في أمر هذين الرجلين ، والسبب في ضحكهما ونظرهما إلى نافذة منزل لويزا فيقول ترى ما عسى أن يكون قصد هذين الرجلين ، وما شأنهما في مراقبة هذا المنزل العليها يريدان شراً بلويزا : والله إذا كان ذلك مرادهما مزقت قلبيهما بهذا الحسام .

وعند ذلك يحمر وجهه وتنتفخ أوداجه حتى يتمثل له أنهما قابضان على الفتاة يريدان اختطافها من بيتها والعبث بها ، فيضرب المائدة بيده الحديدية بحيث ترتج وتسقط عنها الصحون ، ويتراكض الخدم فيفطن لنفسه ويهدأ ثائر غضبه فيقول في نفسه — كلا ، إني مسترسل في الأوهام ، وان لويزا لا تخرج

من المنزل ولا تشرف من النافذة إلا في القليل النادر ، فلا بد أن يكون الرجلين غرض آخر .

ثم ينطلق في مهامه التفكير وتعينه أقداح الخمر على التعقل ، فيسكن ويطمئن ويعود إلى مراقبة زوار الفندق بعينه النقادة ، فقد كانت المراقبة واجبة فيه .

وكان يحمله على الانصراف إلى المراقبة ، كثرة توافد الزوار على الفندق في تلك الليلة ، وما كان يجده من اهتمام الخدم في أعداد مائدة في قاعة مجاورة .

فنادى رئيس الخدم وقال له : ما هذا الاهتمام الخاص بتلك المائدة ، أقدم لكم ضيوف أخصاء ؟

— هو ذاك يا سيدي ، واني فرح جداً بهؤلاء الضيوف .

— ولماذا الفرح ؟

— أولاً لأن ضيوف الليلة من أكابر الشعراء ، وهم مفرطون في الكرم يشربون فلا يشفقون على الخوابي ولا يحرمونني مما يشربون .

— إذاً ضيوفكم من الشعراء .

— نعم يا سيدي وهم يجتمعون في أول كل شهر ، فيتناشدون من نفائس الأشعار ما تطيب له نفسي ، لولا انصرافها بملذاتها الى الشراب .

— أهذا هو كل السبب في سرورك ؟

— كلا ، بل يوجد سبب آخر وهو قدوم الأخ تهيبون .

— وما شأن هذا الراهب في هذه الحفلة ، ألعله أيضاً من كبار الشعراء ؟

— كلا يا سيدي ... أرجوك أن تعذرني فاني أرى قبعة حمراء .

ثم تركه قبل أن يتم جملته وانصرف مسرعاً إلى استقبال فارس كان لابساً قبعة عليها ريشة حمراء .

وقد دخل هذا الفارس إلى القاعة وهو ملتف برداء كبير يستر وجهه إلى الأنف

فانكر باردالیان هذه المبالغة بالتستر وامعن النظر في وجه الداخل فعرف أنه المسيو دي كوسيني رئيس حرس الملك شارل التاسع ، أي أعظم رجل عسكري في اللوفر .

وقد دهش باردالیان لقدومه ، وأسرع رئيس الخدم إلى استقباله فقال في نفسه : إذا كانت الحفلة خاصة بالشعراء ، فما شأن هذا الرجل فيها وهو من رجال السيف .

بل ما غاية هؤلاء الشعراء انفسهم من هذا الاجتماع ، وما بال صاحب الفندق تخلف عن خدمتهم بنفسه وعهد بها إلى سواه وهم من علية القوم وأفاضل الناس .

ان في الأمر سراً دون شك ، ولا بد لي من اكتشاف هذا السر .

وأخذ عند ذلك بمراقبة الرجلين .

أما رئيس الخدم فانه سار برئيس الحرس الى القاعة التي كان بعد الخدم فيها المائدة فقال له : هنايا سيدي ستكون مأدبة الشعراء .

وقد قال له هذا القول وهو يحدق في وجهه رجاء أن يعرفه .

غير ان رئيس الحرس لم يخفل بقوله فقال سر بي إلى أبعد من هذا المكان .

فسار به الى قاعة كبيرة لم يكن فيها أحد من الناس ، ولكن كان فيها خمسة عشر كرسياً .

وعلى يسار هذه القاعة غرفة سرية ، فدخل رئيس الحرس اليها وقال له : ما هذا الباب الذي أراه في الغرفة

أجاب انه يشرف يا سيدي على الرواق الكائنة فيه القاعات الأربع ، وهو يشرف أيضاً على الشارع

ألا يمكن لأحد أن يدخل من هذا الباب ؟

فابتسم رئيس الخدم وقال . ألا ترى يا سيدي هذا المزلاج الحديدي العظيم

حسناً وأين يقيم الراهب تيبوت .

أجاب . أنه يتولى حراسة باب القاعة الكبرى ، فلا يستطيع أحد الدخول بحيث تناشدون اشعاركم دون أن يسمعها أحد سواكم .

فظهرت علائم الرضى على وجه رئيس الحرس ، وخرج من الغرفة السرية وتوارى عن الانظار بدخوله إلى احدى القاعات

وكان باردالیان يراقب كل ما جرى ، فعزم عزماً أكيداً على أن يكتشف هذا السر الذي يجهله رئيس الخدم دون شك ، فاسرع الى القاعة المصفوفة فيها الكراسي ، ودخل منها الى الغرفة السرية التي دخل اليها قبله رئيس الحرس . وكان لهذه الغرفة بابان أحدهما يشرف على القاعة التي أعدت لاجتماع الشعراء أو المتآمرين .

وفي وسط هذه الغرفة المظلمة التي لا أثاث فيها ، إلا من نسج العنكبوت كان يوجد باب يفتح على سلم ينفذ منه الى اقبية الفندق ، فنزل باردالیان الى تلك الأقبية ففحصها فحصاً دقيقاً ، ثم عاد فترك بابها مفتوحاً ، وأقفل الباب المشرف على القاعة ، وجعل ينظر من ثقب ذلك الباب إلى ما يجري في القاعة وقد تحولت كل حواسه إلى آذان .

ولندعه الآن في مراقبته وندخل بالقراء الى تلك القاعة المتسعة التي كان يراقب ما يحدث فيها .

في الساعة التاسعة من تلك الليلة ، دخل الى الفندق ثلاثة رجال متشحين بأرديتهم المتسعة وعلى قبعاتهم ريش أحمر .

فأسرع لوبين رئيس الخدم إلى استقبالهم وادخلهم الى قاعة الطعام الخاصة . وبعد عشر دقائق جاء رجلان ، ثم جاء ثلاثة أيضاً ، وكلهم قد وضعوا الريش الأحمر على قبعاتهم ، فكان لوبين يدخل بكل قادم منهم الى تلك القاعة .

وبعد هنيهة أقبل الراهب تيبوت ، فاسرع لوبين اليه وقال له : انهم

حضروا وهم في القاعة .

فقال الراهب : إذن اصغ إلي فان الأمر خطير ، وان هؤلاء الشعراء الذين رأيتهم ليسوا من قومنا ، بل هم أجانب وقد جاؤا ليناقسوا باشعارهم ويزاحمونا بحق السبق في القريض .

فأجابه لوبين : ولكن كيف اتفق أيها الأخ أن تكون مع هؤلاء الشعراء وما أنت من أهل الشعر ؟

فقطب الراهب جبينه وقال له بجفاء : أعلم أنه إذا أذن لك رئيس ديرنا ان تبرح الدير وتختلط مع العوام فهو لا يأذن لك ان تكون من أهل الفضول ، فعليك ان تنقل الينا كل ما يحدث ولا يحق لك ان تسأل عن شيء .

— ليكن ما تريد يا سيدي فسألزم الصمت .

— وحسناً تفعل أو نرجعك إلى الدير .

— ويسح لنفسي فاني أوثر ان أعيش العمر أبسكم على ان أعود إلى ذلك السجن .

— وذلك موكول اليك فاحذر العودة الى الفضول واذهب فقف حارساً عند مدخل الرواق المؤدي إلى الغرفة السوداء ، فإذا أراد أحد الدخول فامنعه ، وإذا أصر على الدخول عنوة فاستغث نجب نداءك .

فلم يجد لوبين بداً من الامتثال ، فذهب منقبض الصدر وبقي الراهب عند باب القاعة وهو يقول في نفسه : ثكلتني أمي ان كنت أعرف الغرض من هذا الاجتماع السري ، ولكني أمرت بحراسة القاعة كما أمرت لوبين بحراسة الرواق وأنا واياه لا نعلم من الأمر شيئاً .

وفي الساعة التاسعة والنصف ، قدم أشهر شعراء باريس في ذلك العهد ، وهم ستة فدخلوا الى قاعة المائدة ، وبدأ عميدهم الكلام فاخبر رفقاءه بأمر الضيوف الذين قدموا لحضور حفلتهم السرية ، وانهم جميعهم من أعظم النبلاء ، فاعترضه أحدهم قائلا : كيف ساغ لهم حضور مجتمعنا ، ألا نخشى

افتضاح أمرنا .

بل سيكونون خير عون على تبرئتنا ، فليس بينهم غير الأمير والنبيل ووجودهم بيننا يثبت حسن قصدنا إذا ذاع أمر هذا الاجتماع .

وفوق ذلك فهم مسافرون الليلة بعد الحفلة ، فإذا رضيتم أن يحضروها فلندخل اليهم قبل الطعام ، وإذا كانت آراؤكم متفرقة فلنقترع شأننا في كل خلاف .

فسأله سائل عن اسماء أولئك الزائرين .

فأجابه : إنهم متنكرون وسيحضرون الحفلة والبرقع على وجوههم .

— ولكنكم ستقرأون اسماءهم في محضر الجلسة غداً .

وبعد جدال قصير وافق الجميع على القبول ، فدخل الشعراء الستة إلى تلك القاعة ، وكان فيها تسعة رجال مستترين بالبراقع ، لا يبدو من خلالها غير عيونهم وهم جازعون كأنهم ينتظرون فراغ الشعراء من حفلتهم كي يبحثوا في الشؤون التي قدموا للمباحثة فيها .

أما الشعراء فانهم حين دخولهم إلى القاعة اتشح كل منهم برداء كثير الألوان ، ووضع على رأسه شارة سوداء .

وكان في وسط القاعة هيكل يشبه هياكل الوثنيين ، وعند اسفله تيس حي ربط رباط غير متين ، وأمامه شيء من العشب لا يستطيع الوصول اليه وهو يرمقه بعين تدل على استحكام الجوع منه .

ثم جعلوا يبخرون التيس والهيكل ، ويطوفون حولهما وهم ينشدون الأناشيد على طريقة عباد الأوثان .

حتى إذا فرغوا من اناشيدهم وقف عميدهم وتلا خطاباً ناجى فيه آلهة الحرية والاحراج والغابات ، وجعل يظهر مظالم الملك وعسف رجال الدين ورضوخ الشعب تحت نير الظلم والاستعباد مستطرداً من ذلك الى الحض على الثورة وكسر تلك القيود ، وان الشعب لم تعد تعوزه غير الارادة فيهب هبته

ويطلق لنفسه السراح من تلك الاصفاد .

وبعد ان ذكر الداء والدواء نظر الى ذلك التيس المربوط وأعلمه العشب
يقدر على الوصول اليه قال : لا أرى مثلكم إلا مثل هـــذا التيس ، فانه إذ
وخز وخزة شديدة أسالت دمه هبت فيه قوة أعانته على قطع الرباط والوثوب
الى ذلك العشب .

وكذلك انتم معشر المظلومين والبؤساء فاذا ثار بكم زعماؤكم وسالت قطرات
من دمائكم ظهرت فيكم تلك القوة الكامنة فتلاتم عرش الظالم وبلغتم ما تريدونه
من الحرية .

وعند ذلك استل مدية وهجم بها على التيس فطعن بها عنقه طعنة اسالت
دمه فلما أحس التيس بألم الطعنة نفر وشد على رباطه فقطعه واندفع إلى ذلك
العشب يأكل منه غير مكترث لدمه السائل .

فتطلع الخطيب عند ذلك إلى اخوانه الشعراء وقال لهم : ليست قيـــود
الناس أشد من رباط هذا التيس ، وليست قوتهم اضعف من قوته ، فتحزموا
بخناجر اقوالكم وعلموهم كيف يثورون فيعرف كل حده ويقف عنـــده ويعلم
الملك ورجال الدين ان ايدي الشعب فوق ايديهم العاتية .

وكان يخاطب الشعراء دون ان يلتفت الى بقية الحاضرين ، فلما أتم خطبته
صفقوا له تصفيقاً شديداً فعادوا الى ما كانوا عليه من الطواف حول الهيكل وهم
ينشدون انشودة ملؤها الطعن برجال الدين .

حتى اذا انهوا الطواف خرجوا من تلك القاعة إلى قاعة الطعام دون أن
يلتفتوا إلى الضيوف المتنكرين ، فلم تمر هنيهة حتى علت اصوات ضحكهم بين
رنين الأقداح .

وكان باردليان يتطلع من ثقب الباب ويسمع كل ما يجري فدهش ، ولم يفهم
شيئاً من اسرار تلك الصلاة والأناشيد والطواف حول الهيكل وتنكر الزائرين
دون الشعراء وعدم مبالاة الشعراء بالزائرين .

الى أن بات الزائرون وحدهم وكشفوا البراقع عن وجوههم بعد أن خلا
المكان

وزادت دهشة باردليان إذ عرف اكثر اولئك المتنكرين فقد كان اول من
كشف القناع منهم الأسقف سوربين وهو رئيس اساقفة باريس في ذلك العهد
فانه كشف قناعه مغضباً وقال :

أيحضر مثلي هذه الحفلة المنكرة وليس فيها غير البدع والتجديف بالدين
والطعن برجاله ، اني إذاً من الأغرار وقد كان يجب علينا ان نجتمع في غير هذا
المكان الذي دنسه الكفر .

فكشف رجل آخر قناعه واجابه قائلاً :

دون عليك يا نيافة الأسقف فاننا لو خيرنا لاخترنا ، ولو وجدنا اصلح من
هذا المكان للاجتماع به لما جئناه ولكننا بتنا في موقف شديد وقد بثت حولنا
العيون والأرصاد ، فلو شعلونا حتى في منزلك لما امنا ان نهاجم فجأة ونساق
عنوة الى الباستيل .

وكان هذا المتكلم كوسين رئيس الحرس الخاص في بلاط الملك .

فأكبر باردليان أمر خيانته ، ولم يكد يثوب من دهشته بعد سماع
حديث الرئيس ، حتى رأى الدوق هنري دي كيز ، وقريبه الكردينـــال
دي لورين .

فالتفت الكردينال الى الأسقف وقال له لندع الآن أمر هؤلاء الشعراء
وما جاهروا به من المبادىء فسينال كل عقابه ولننظر في شؤوننا .

ثم التفت الى رئيس الحرس وقال له : هل فحصت الأبواب يا كوسين ؟

— نعم يا سيدي وأنا ضمين الأمان .

فخاطب الدوق دي كيز عند ذلك جميع الحاضرين قائلا :

لنبحث الآن في ما أتينا لأجله . وأنت يا سيدي الأسقف خفف روعك
فسيكون ما تريد ان يكون .

ومتى اقتربت الساعة وتولى عرش فرنسا من يجب أن يتولاه يبطل الكلام من هذه البلاد ولا يجسر رجل أن يفتكر بما جاهر به هذا الشاعر .

فلنبحث الآن فاني مستعد للبحث .

فتطلع الجميع الى الدوق بنظرة دلت على الاحترام الشديد ، وبدأ الدوق الحديث ، فسأل قريبه الكردينال :

ماذا صنعت أنت ايها الخال العزيز ؟

فاجابه الكردينال قائلا :

اني فتشت صناديق الأديرة تفتيشاً عاماً فوجدتها مكتنزة بالأموال وكرهت أن تفسد كثرة المال أخلاق الرهبان فاخذت منهم فضول المال وهي كافية لمشروع كافلة نجاحه .

فاجابه الدوق : لا ريب انك من اكابر علماء الاقتصاد .

وأنت يا حضرة مارشال دي ڤافان : ماذا فعلت ؟

فأجابه المارشال بل الايجاز : لدي الآن ستة آلاف فارس متأهبون للزحف .

— وأنت يا ماريشال دي دامفيل ماذا فعلت ؟

فالتفت باردالیان فرأى ان هذا الماريشال هو نفس الرجل الذي انقذه من قطاع الطرق فوهبه جواده كالور ، أي هنري دي مونمورانسي .

أما هنري دي مونمورانسي صاحب تلك الجناية الهائلة التي عرفها القراء في بدء هذه الرواية ، فقد أجاب الدوق قائلا :

لدي يا سيدي أربعة الاف محارب مسلحين بالبنادق وثلاثة الاف فارس ، ولكني أطلب النظر في الشروط .

فقال له الدوق : لقد عرفنا شروطك فهي سجن أخيك فرنسوا دامبواز في مكانه رئيساً لأسرة مونمورانسي وتقليدك منصب أبيك وهو امارة الجيرش ، أليس كذلك ؟

فانحنى هنري اشارة الى المصادقة ، وتطلع باردالیان اليه فرأى بارقاً ناريا من الحقد قد نفذ من عينيه .

وعاد الدوق الى سؤال الحضور فقال : وأنت يا موسيو كينالين ؟

— أما انا فاني بصفتي مدير سجن الباستيل فعلي ان احتفظ بذلك السجين العظيم ، وعليكم ان تسلموني اياه على اني أتعهد ان لا ادعه يخرج من السجن إلا الى المدفن .

فقال باردالیان في نفسه والعرق ينصب من جبينه : ترى من عساه يكون هذا السجين العظيم غير الملك نفسه .

والتفت الدوق إلى كوسين فقال له . وأنت بماذا تتعهد ؟

— إني أتعهد بأن يكون حرس اللوفر أطوع لي من البنان ، وأنني لدي أول أمر يصدر اليّ منكم ، أقبض على ذلك السجين وأحمله بمركبة إلى الباستيل .

فقال الدوق : وأنت يا مارسيل ؟

فوقف مارسيل وهو رجل ضخم الجثة هائل الخلقة فقال :

— إني شيخ مشايخ الحارات ، وان جميع العامة يمتثلون لي من الباستيل إلى اللوفر .

— وأنت يا حضرة الأسقف ؟

فأجابه رئيس الأساقفة قائلا :

— إني سأبدأ غداً باصدار الأوامر إلى جميع القسس في جميع الكنائس فيحملون على شارل حملات منكرة ويلقبونه بحامي الكفار ، ومؤسس الكفر والبدع .

فأطرق الدوق دي كيز مفكراً كأنه يتردد قبل الاندفاع في هذه المؤامرة الهائلة .

وكان الجميع يحترمون سكوته إلى أن قطع مارشال دي ڤافان خيط

تصوره فقال له : وماذا نصنع بالدوق أنجو والدوق النسون ؟

فارتعش الدوق دي كيز وقال : أخو الملك ؟

وقال رئيس الأساقفة : إننا نقطع رأس الحية ونتبع بها الذنب .

فوقف الدوق عند ذلك وقال : لقد كفى ما فعلناه اليوم أيها السادة ، لقد اجتمعنا وعرفنا على ماذا نعتمد للبلوغ إلى غايتنا العظمى فاعتمدوا علي وثقوا بي .

وليكن اعتمادكم علي في نجاح الغاية وثقتكم بي في تنفيذ مآربكم على ما وعدتكم به ، فما أنا من أهل النكث بالعهود وسينال كل منكم ما يتمنى ، فاعلموا ان الساعة الرهيبة قد دنت وسترد اليكم أوامري فتعملون بها ، أما الآن فلنفترق كي لا نثير الظنون .

فوقفوا جميعهم وجعل كل منهم يدنو من الدوق فيحييه تحية الملوك كأنه قد استولى على العرش ويقبل يده بملء الاحترام .

ولما فرغوا من ذلك كان الدوق والكردينال أول المنصرفين فخرجوا من الغرفة السوداء المقيم فيها باردالليان .

ولكن باردالليان كان قد أسرع في النزول إلى الأقبية .

وخرج بعد الدوق رئيس حرس اللوفر ورئيس الأساقفة والمرشال دي تافان .

ثم تلاهم شيخ المشايخ ومدير الباستيل .

ثم انطلق في أثرهما هنري دي مونمورانسي . وقد خرج وحده .

ولما انصرف الجميع رجع باردالليان إلى الغرفة وهو مصفر الوجه من هول ما رأى وسمع .

لقد أوقفته الصدفة على سر هائل فجعل يرتجف لهذا السر خوفاً وهو لا يخاف كرات المدافع .

فإن هذا البطل الذي لقي صدمات شعب برمته غير جازع واستقبل

تحت أنقاض ذلك المنزل الذي هدمه وهو باسم ، فرق وجزع لهذا السر الذي تملك به أولئك المتآمرين فباتت حياتهم بيده أو تملكوه فباتت حياته بأيديهم . فإن الدوق دي كيز إذا عرف أن باردالليان وقف على سر المؤامرة قتله بلا ريب .

ولم يكن باردالليان يرهب الموت ولكنه كان يخشى المكائد ، فقد قال له ان الدوق وقف على أمره ، وانه يرى في كل زاوية رجالاً كامنين له ، وانه يجد السم في الخبز الذي يأكله والشراب الذي يشربه ، فلم يعد يستطيع أن يعيش عيشته السابقة ، لأن الموت كامن له بالمرصاد ، ولا يعلم أين هو فيلقاه .

ثم قال له ان الدوق والمتآمرين قد لا يعلمون بشيء من أمره وفي هذه الحالة ماذا يجب أن يعمل ؟

أيكتفي بالوقوف وقفة المتفرج على هذه المؤامرة الشائنة .

كلا . لأن نفسه العظيمة كبرت عن هذه الجريمة الشنعاء ، فإن باردالليان لم يكن يحب الملك ، بل انه لم يكن يعرفه ، ولكنه قال في نفسه : ان هذا الملك ملكي فلا أسكت عن المؤامرة مهما كان من إساءته إلى الشعب .

وقد تمعن مليا في أمر هؤلاء المتآمرين ثم قال :

— ويح هؤلاء الجاحدين إن كلا منهم مدين لهذا الملك الذي يريدون خلعه بنصيبه وجاهه ، من الدوق دي كيز إلى الكردينال إلى المرشال مونمورانسي إلى مدير الباستيل ، ولو كان في نفوسهم ذرة من الشرف لما أقدموا على هذه الجريمة المنكرة وجحدوا فضل مولاهم .

ومع ذلك فماذا أصنع ؟ أأبوح بسرهم للملك ؟ معاذ الله أن أفعل هذا الفعل الشنيع ، وأنزل نفسي منزلة الوشاة وأسافل الجواسيس ، إذن ماذا أصنع ؟

وقد مرت هذه التصورات في خاطر باردالليان بسرعة البرق ، ثم هز

كتفيه شانه حين تشكل عليه الأمور فستر وجهه برداته وخرج من الغرفة إلى الرواق .

وكان لوبين لا يزال واقفاً على الباب وقد حاول أن يقفل بعد خروج مونورانسي ليقينه ان جميع المتآمرين قد انصرفوا ولم يبق منهم أحد

ولما رأى باردالیان قادماً وقد ستر وجهه برداته اكبر وجوده في ذلك المكان وتحول ذهوله إلى رعب فقال له بلهجة المتذعر : ماذا تفعل هنا ؟ ومن أين أتيت ؟

غير أن باردالیان لم يمهله أن يتم سؤاله فصدمه صدمة شديدة ألقته على الأرض ورثب مسرعاً إلى الشارع قبل أن يعرفه لوبين .

- ١٧ -

وحدة فالنتينيه مستشفى المجانين

جرأة باردالیان

كانت أبواب الفندق الذي خرج باردالیان من بابه السري مقفلة في تلك الساعة وكذلك المخازن المحيطة به .

وكان جميع سكان ذلك الشارع نياماً وقد أقفلت نوافذ المنازل ، وأقفر الشارع من المارة فعم السكون وساد السكوت .

وكانت باريس التي يبلغ عدد سكانها اليوم ثلاثة ملايين لا تحتوي على أكثر من مائتي الف نسمة ، وهي اليوم عاصمة العواصم ، وأم المدائن ، ولكنها كانت في ذلك الحين تشبه القرى في هذه الأيام ، وهي كثيرة الوحوش ضارية

الشوارع قذرة الأزقة ، إذا أظلم الليل أسرع الناس إلى بيوتهم ولم يبق في الشوارع غير اللصوص وقطاع الطرق ، فمن اضطر إلى الخروج من منزله في الليل كان من أهل الجرأة والاقدام أو خرج في موكب من الحراس .

فلما برح هنري دي مونورانسي الفندق سار غير هياب في شارع سانت دانيس ، حتى إذا توسط الشارع سمع لغطاً ورقع أقدام فقال في نفسه لا شك انهم من اللصوص . فجرد خنجره ووقف متأهباً مختبئاً في زقاق إلى أن يمر القادمون .

ولكنه لم يطل وقوفه حتى سمع من لهجة أولئك القادمين وارتفاع أصواتهم بالحديث ما استدل منه انهم غير لصوص فالتف برداته متستراً وجعل يصغي إلى ما يتحدثون عنه حين مرورهم به ، فسمع أحدهم يقول لرفاقه : لا تعجبوا أيها السادة ، ولا تضحكوا فإن لهذه المرأة إسماً .

فارتعد مونورانسي وقال : ماذا اسمع ان هذا الصوت صوت الدوق دي أنجو .

ثم سمع أحد رفاقه يسأله قائلا : ما اسم هذه المرأة يا سمو الدوق ؟

إنهم يلقبونها في شارع سانت دانيس ، بالمرأة السوداء ويدعونها السيدة حنة .

ما هذا الاسم ، انه يدعو الى التشاؤم .

ربما ، ولكني لا أبالي باسم المرأة ما زالت ابنتها حسناء ، وأية فتاة أجمل من لويزا ، فإن عيني لم تقع على أبدع منها وسترون ما رأيت ، فاني أريد ..

وهنا ضاع صوت الدوق بالهواء فلم يعد يسمع هنري دي مونورانسي شيئاً آخر اكتفى بما سمع ، فإنه لم يكد يسمع اسم حنة ولويزا ، حتى اختلج قلبه وارتعشت أعضاؤه ، فانطلق في أثر الدوق دي أنجو ورفاقه دون ترو ، فإن هذين الاسمين قد صعقاه وذكراه وجده القديم ، فهاج غرامه في صدره هياج

الجراكين وجعل يقول في نفسه :

ترى من عسى أن تكون حنة وابنتها لويزا ، إن لم تكن هي ؟

ولذلك عول على أن يعرف الحقيقة ولو افضى به الأمر إلى سؤال الدوق أخي الملك .

ومشى في أثر الدوق ورفاقه وكانوا قد تقدموه فلحقهم على قيد بضع خطوات ، وجعل يسير وراءهم وهو يقول : ما هذا الغرام القاتل ، أنير في ستة عشر عاماً لا أراها ، ثم اذا ذكر امامي اسمها رجع غرامي القديم الى شد ما كان عليه .

ثم اضطربت أفكاره وامتزج غرامه بالخوف فقال : لكن إذا كانت هي بعينها ، وكانت مقيمة في باريس مع ابنتها ، ثم اذا علم أخي فرنسوا بوجودها وأعانته الصدفة على الاجتماع بها ، وعرف خيانتي ، فماذا يكون من أمري معه .. انه يتصدى لي كما تصدى لي في غابات الكنتا ويناقشني الحساب فماذا أقول ومن يكون ترجماني غير السيف .

وهنا مسح العرق الذي كان ينصب من جبينه ، وضحك ضحكاً هادئاً وأبرقت عيناه ببارق دل على ما تهيج في قلبه من براكين الحقد والانتقام ، فقال : كلا انني لا انتظر أن يستولي الدوق هنري دي كيز على عرش فرنسا كي أغدو رئيساً لأسرة موغورانسي ، لقد طالت حياة أخي فرنسوا فليمت إذ لم يبق بد من موته .

وعند ذلك رأى الدوق ورفاقه قد وقفوا عند منزل هنري ، فاستند هنري موغورانسي على الجدار ، وجعل ينظر ما يفعلون ويسمع ما يقولون ، فسمع الدوق أنجو يقول اين المفتاح يا مورفر ؟

— انه معي يا مولاي

— إذاً هاته وتقدموا معي إلى الباب .

فقال هنري في نفسه : لا بد لي أن أعلم ما يصنعون .

ثم خرج من مخبأه وهم أن يتقدم ولكنه إضطر الى التوقف فجأة ذلك انه رأى رجلا برز لهم عند باب المنزل وبادرهم قائلا بملء السكينة : قسماً بيلاطس وبارابباس انكم أيها السادة تكرهونني على مخالفة والدي فلتسقط نعمة هذا العصيان على رؤوسكم .

فتراجع الدوق دي أنجو منذهلا وهو يقول : من هذا المجنون ، وكيف أتى ؟

وقال موجيرون : انه الرجل الذي لقيناه منذ حين . ثم خاطب الرجل قائلا : أراك أصبحت حارساً على باب منزلك لا تفارقه .

فأجابه باردالیان قائلا : هو ذاك فاني أحرسه في النهار لمعاقبة السفهاء الذين يضحكون مستهزئين .

فقال له كاليس : وفي الليل ؟

— لوقايته من اللصوص

فهاج غضب الدوق وقال له : كفى أيها المهزار فاذهب من هنا .

فالتفت باردالیان الى موجيرون وكاليس وبقية العصابة فقال لهم . أرجوكم ان تمنعوا خادمكم عن المداخلة في شؤوننا أو أؤدبه ابلغ تأديب .

فارتعد رجال العصابة غيظاً وقالوا : ويحك أيها الشقي اننا لا نمهلك الى الغد فنقتلك بل يجب أن تموت الآن .

فاستل باردالیان حسامه ، وهجم مورفر عليه من غير ان يفوه بكلمة ، ولكنه لم يلبث ان تقدم حتى صاح صيحة ألم ، لأن باردالیان ضربه بحسامه كشحاً ، فوقع على وجه مورفر وقع سوط من الفولاذ وجرحه جرحاً كبيراً .

ثم رجع الى موقفه وهو يقول انكم أبيتم تأجيل المبارزة الى الصباح ، فليكن ما تريدون ..

لكن ما عسى يقول أبي إذ وجدني في هذا الموقف . انه يلومني بلا

ريب فللسقط عليكم تبعة اللوم .

وعند ذلك هجم عليه موجيرون وهو يرغي ويزبد كالجمل فضربه باردو على يده ضربة اطارت حسامه .

فهجم كاليس بدوره ، لكن الدوق قال بلهجة الآمر قف يا كاليس ، ثم حال بينه وبين باردالیان واقترب منه وهو من غير سلاح

فأسند باردالیان رأس حسامه على جزمته ووقف ينتظر ما يريد أن يقوله الدوق .

واما الدوق فقد قال له : انني اعترف لك بالبسالة والجرأة النادرة ، ولكنك قلت منذ هنيهة قولاً ستكون عليه من النادمين حين تعرف من الذي يخاطبك .

فأجابه : لا أنكر انني اسأت اليك بوضعك في منزلة الخدم ، لذلك أعتذر عن تلك الاساءة .

— ولما قبلت اعتذارك ، أما وقد زال بيننا سوء التفاهم فلا بد لي أن اقول لك بإخلاص ان لي شأناً في هذا المنزل .

— ولماذا لم تسرع بهذا القول يا سيدي ؟ فقل اي شأن لك فيه ؟

— شأن غرام .

— الحق انني لم أكن مرتاباً في صحة ما تقول .

— اذاً ستدعنا وشأننا وتذهب في شأنك .

فأجابه باردالیان بسكينة : كلا !

— احذر عاقبة هذا العناد فقد اشتهر عن الملك انه قليل الصبر ، ولكن صبر اخيه اقل .

وقد صرح الدوق هذا التصريح وحاول ان يتعالى اظهاراً لعظمته فانه كان قصير القامة حتى ان رأسه لم يبلغ كتف باردالیان .

اما باردالیان فانه تظاهر انه لم يعرف ان الذي يكلمه هو اخو الملك

فأجابه باردالیان بساطة قائلا :

شكوتني يا سيدي ، على ما شرفتني به من صداقتك الحديثة ، ان اضطر الى رفض طلبك ، فألتمس منك باسم هذه الصداقة ، ان لا تلح بالسؤال .

فاستشر وجه الدوق من الغضب ورفع يده يحاول صفع باردالیان .

ولكنه شعر في الوقت نفسه أن رأس سيف باردالیان قد بلغ إلى عنقه فهج رفاق الدوق هياج المجانين ، وركضوا إلى مولاهم فابعدوه وحالوا بينه وبين باردالیان ، وعند ذلك قال كاليس ، لنهجم على هذا الوقح فلم يبق بد من قتله .

غير أن الدوق منعهم عن الهجوم وقال لهم بصوت يتهدج من الغضب والخجل : أرجعوا فلا حيلة لنا اليوم مع هذا الرجل فان موجيرون جريح وكذلك مورفر ، فهلم بنا نذهب الآن وسنعود ونكون كثيرين

ثم التفت إلى باردالیان وهو ينظر نظر المتوعد وقال له إلى اللقاء وسترى اخباري .

فأجابه باردالیان مبتسماً أرجو أن تكون حسنة .

وبعد هنيهة توارت العصابة عن الانظار ، فوقف باردالیان نحو ساعة لا يفارق الباب ، وهو يخشى أن يعود الدوق كما انذر .

فلما مضت ساعة ولم يعد أيقن أنه غير عائد تلك الليلة ، ففتح باب الفندق وصعد إلى غرفته .

وهناك فتح النافذة وأقام ساعة أيضاً يراقب الشارع فلم ير بشراً .

وكانت نافذة غرفة لويزا مقفلة وهي قائمة دون ذلك .

أما باردالیان فإنه أوشك أن يندم على ما فعل ، فإنه عرف أخا الملك حق المعرفة ، وأدرك خطورة موقفه الحرج لا سيما وأن الدوق ذو أنجو ، وهو ولي العهد ، كان محبوباً في ذلك الزمن من الشعب ، فإنه أبلى في حروب

الهوكينوت الكبرى بلاء حسناً ، وأظهر من الحنكة والبسالة مـــا
يا كاليل الفخر .

وقد أدرك باردالیان أنه بات في أشد حالات الخطر ، فإن الدوق إذا
يعرفه اليوم فلا بد أن يعرفه غداً لاشتهار أمره بين الناس بعد تلك المعركة
التي قاوم فيهـا الشعب دفاعاً عن ملكة نافار . فقال في نفسه : لا شك اني
ارتكبت خطأ لا يغتفر ، فان الدوق إذا عرفني بت لا محالة من الهالكين .

وأية فائدة لي من التعرض لهؤلاء الأشراف . ابلغ من جرأتي وتحدي أن
لا احترم شقيق جلالة الملك ...؟

ويح لنفسي لقـد ذهب مني كل شعور حي ، وفقدت كل عاطفـة احترام
وخالفت أبي في كل ما أوصاني به ، فأي عقاب يفي بجريمتي بعد هذا ؟

وبعد ، فأي دليل صريح وجدته يدل على ان الدوق كان ينوي اختطاف
لويزا ، وهذا البيت كثير السكان مزدحم بالنساء والفتيات . ألا يمكن أن
يكون مطمحه إلى غير من أحب .

وبعد أن شتم نفسه اقبح شتم حكم أن للاقدار يداً في شؤونه تدبره كما تشاء
لا كما يريد ، وعزم عزماً أكيداً في تلك الساعة على أن ينهج حسب وصية أبيه
وان لا يخالفها في شيء .

ولم يكن باردالیان من أهل البلاهة ، ولم يكن بسيط القلب كما كان يعتقد
من بعض اعماله ، فانه كان يتكلف البساطة تكلفاً حين يحتاج اليها .

ولكنه كان في عصر رخصت فيه النفوس وبات المجد كل المجد في السيف
والشريف من بلغ بالحسام والأقدام مـا يبلغه الناس اليوم بالحيلة والسياسة ،
فكان الناس يهاجمون ويدافعون غير مكترثين للاسباب .

ولذلك كان يود بمـلء رضاه ان يعمل حسب وصية أبيه . غير أن الشباب
ومقتضيات ذلك العصر كانا يدفعانه إلى العصيان ، فيندفع في كل مأزق ويلقي
بنفسه في كل تيار ، فاذا خرج من تلك المضايق ذكر وصية أبيه وتبسم حين

لا ينفع الندم .

وآخر ما نقوله في وصف هذا البطل انه لم يكن يعرض نفسه كل حين
لموت ابتغاء مجد أو انتصار لغرض نبيل ، بل كان يقاتل لانه يلذ له القتال .

وأخيراً قال في نفسه ان مثل الدوق دانجو على جلال قدره وسمو مكانته
لا يليق به ان يتدانى إلى اختطاف بنات لا نصير لهن ، فهو قد نال ما يستحقه
من العقاب .

ثم هز كتفيه كأنه قد وجد عزاء بهذه النتيجة ، ولكنه عاهد نفسه ان
يتزوج في المستقبل الحكمة وان يحافظ على وصية أبيه بقدر الامكان .

وعند ذلك تذكر انه اتفق مع موجيرون وكاليس على المبارزة في الصباح
فقال في نفسه : اني جرحت أحدهما جرحاً بالغاً ، وسأبحث عن فرصة صالحة
لتنكيل بالآخر ، وأما ذهابي إلى اللقاء فهو غرور محض لا يقدم عليه عاقـل
فاني لا أجد هذين المتبارزين ، بل أجد جميع أعوان الدوق فينهبون جسمي
بسيوفهم ، وإذا ابقوا علي ذهبوا بي إلى الباستيل .

ولما بلغ إلى هـــذا الحل المأمون بعد طول الاجهاد والتفكير ، اطمأن
وارتمى ونام نوماً هادئاً وهو يحلم بلويزا .

ولنعد الآن إلى هنري دي مونمرانسي ، فقد تركناه مختبئاً في عطفة الزقاق
يراقب ما يحدث ، فرأى وسمع كل ما جرى دون ان يعرف باردالیان ، فانه
لم يره غير مرة واحدة في ظلام الليل منذ بضعة أشهر .

وقد لبث واقفاً في مكانه فرأى تداخل باردالیان وذهاب الدوق مع رفاقه
ودخول باردالیان إلى الفندق .

فلما وثق أن الشارع بات خالياً خاوياً خرج من الزقاق وذهب فوقف
بازاء ذلك المنزل الذي كان الدوق يحاول الدخول اليه

وهنا عاد الى سؤال نفسه يقول :

من هي حنة وابنتها لويزا .. انها هي دون ريب ، فان الاتفاق قد يكون

باسم لا باسمين . انهـــا هي دون ريب ، ولكن يجب أن أتأكد وسأعود في النهار .. ولكن الدرق قـد يخطفها مع ابنتها قبل عودتي ، إذاً لا بد لي من البقاء هنا إلى أن أقف على الحقيقة .

وكانت عيناه شاخصتين إلى المنزل والافكار المضطربة تجول في خاطره فتتمثل له تلك الليلة التي ارتكب فيها جريمته الهائلة .

فبينما تهيج تلك الذكرى غرامه القديم يفتكر باخيه فتهيج أحقاده وتضطرب أفكاره اضطراب الرياح حين العـــاصفة ، وتتلبد تلك الغيوم السوداء ، ثم تحتك بعضها ببعض فتقدح ناراً يخرج من عينيه خروج البرق عن خلال الغيوم .

وقد مضى الليل وهو في موقفه وطلـع النهار ، وأخذت الدكاكين تفتح أبوابها والناس يمرون في الشارع ويستغربون وقوف هـذا الرجل قرب ذلك البيت ، فاذا دفع الفضول أحدهم الى الدنو منه بغية سؤاله نظر اليه نظرة منكرة ملؤها الوعيد فابتعد .

ولبث هنري دي مونتمورانسي في موقفه حتى تعالى النار وفتحت نافذة في أعلى المنزل وبرز منهـا رأس امرأة لحظة ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية ، فان هـذا العاشق القديم والأخ المنتقم الحائر صاح صيحة دهش إذ عرف ان هذه المرأة حنة دي بيانس زوجة أخيه .

وحده فاضيه
منتدى لياليس

- ١٨ -

كاترين دي مدسيس

في الساعة التاسعة من المساء كانت كاترين دي مدسيس وريجياري الفلـكي ينتظران قدوم الشفاليه باردالیان في ذلك المنزل الكائن على الجسر الخشبي حسب اتفاق الفلـكي وباردالیان كما يذكر القراء .

وكانت الملكة جالسة حول مائدة وهي منهمكة في الكتابة ، بينما كان الفلـكي يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات بطيئة وهو ينظر من حين إلى حين إلى ما تكتبه الملكة .

ولم ينظر الى الكتابة خلسة ، بل ينظر كمن يحق له الاطلاع على أسرار أم الملك في الظاهر والملكة الحقيقية في الباطن .

وكانت الملكة قد كتبت كثيراً من الرسائل وختمتها وهي مع ذلك لا تزال تكتب ، فلا تـكاد تفرغ من كتاب حتى تبدأ سواه .

والغريب في هذه الملكة انها كانت تشبه بسرعة خاطرها كبار المتمرنين من الكتاب ، فـلا تقف عند تعبير ولا تكتب كلمـة لغو ولا تمحو حرفاً ولا تفكر قبل الانشاء كأنما أفـكارها مخزونة بذلك القلم .

فبعد أن فرغت من كتاب كبير كتبته إلى ابنتها ملكة اسبانيا بينت لها فيه حالة الاحزاب الدينية في فرنسا ، وطلبت اليهـــا ان تقنع زوجها ملك اسبانيا بالمداخلة ، كتبت الى المهندس فيليبار دلورم الخاص بهـــا ترشده

ارشادات يقصر عنها كبار المهندسين عن قصر التويلري .

ثم كتبت إلى كوليني وهو من كبار زعماء الهوكينوت كتاباً رقيقاً تؤكد له ان معاهدة الصلح ستكون مرعية ثابتة . ثم كتبت كتاباً إلى السلطان وآخر إلى رئيس التشريفات تأمره باعداد حفلة .

وكانت بين كل كتاب وآخر تنظر إلى الفلكي وتقول له : أيأتي هذا الشاب ؟

فيجيبها : أنه يأتي دون ريب ، فهو فقير ولا عضد له فلا يضيع مثل هذه الفرصة .

— أنه باسل كثير الأقدام ، لم أر أشد منه جرأة ولا اتقد منه حساماً

— هو ذاك ، لقد أصبت في وصفه ، ولكن بأية مهمة ترين ان تستخدميه ؟

فوضعت الملكة القلم على المائدة ونظرت الى الفلكي نظرة معنية فقالت : إني محتاجة إلى الرجال الأشداء يا ريتيه ، ولا سيما من كان منهم مثل هذا البطل .

— ولكن لدينا مورفر .

— صدقت ، غير أن مورفر بات يقلقني ، فانه يعرف الكثير من أموري وفوق ذلك فقد جرح أمس بمبارزة ، لأن يده قد ارتجفت ، وقد تحدث حادثة مفجعة في دقيقة هائلة يتوقف فيها مستقبل مملكة بأسرها على سيف رجل ، فاذا اضطرب ذلك السيف لحظة في يد ذلك الرجل قضى على تلك المملكة .

أما هذا الفتى الذي ننتظره فان يده لا تضطرب يا ريتيه .

— وسيكون لنا يا كاترين فاطماني .

فختمت الملكة الكتاب الأخير الذي كتبته وغيرت الحديث فقالت له :

يا ريتيه ان القصر الذي بنيته لك قد تم ، وقد أعطوني اليوم أعرف بنائحه ؟..

لقد شاهدته ، يا ملكتي العزيزة من الخارج ، وهو من أجمل القصور

— وماذا تقول في ذلك البرج الذي بنيته لك في قمته ؟

— أقول انه لم يشد مثله الى الآن في باريس ، وإنه جاء طبقاً لما أتمناه ، فهو خير مرصد يبدي مني الكواكب التي جعلها الله كتاباً مفتوحاً فوق رؤوسنا ، يقرأ فيه من يعرف غوامض أسراره ، ما سطر للانسان في لوح المقدور .

وعادت الملكة إلى حديثها ، فقالت له : أأنت واثق من قدوم هذا الفتى ؟

— كل الثقة . . ولكن ما لي أراك قلقة إلى هذا الحد ؟ وما هذا التعلق بهذا الفتى ؟.. اليس لديك ما يشيه الجيش من أبطال الأشراف ، وخادمات النساء ؟

— نعم يا ريتيه ، إن لدي مائة وخمسين فتاة حسناء أستغوي بهن مائة وخمسين عدواً فأعلم ما يضمرون لي من الكيد ..

— نعم إني بثثت جواسيسي في قصور الدوق دي كيز وملكة النافار ، فصرت أعلم مقاصد من يريد الفتك بي فأكون أسبق إلى الفتك به ، وأصبح قاتلة بعد ان أكون مقتولة .

— نعم ... ان لدي جيشاً من الأبطال النبلاء ، أحكم بهم باريس والبوفر ... نعم ، إن لي كل ذلك ، وهي قوة هائلة ، ولكني لا أزال حذرة يا ريتيه .

— ومما تحذرين ؟

فوضعت الملكة رأسها المصفر بين يديها ، ثم عادت إلى ما كانت عليه ،

فنظرت إلى الفلكي نظرة النسر ، وقالت له بصوت أجش : إني عندما أتيت الى فرنسا كان لي من العمر أربعة عشر عاماً وانا الآن في الخمسين ، فكم تكون المدة التي قضيتها ؟

فانذهل رينيه لسؤالها وقال : ستة وثلاثين عاماً .

— إذاً ، إعلم اني قضيت هذا العمر الطويل بعذاب لا يصبر عليه سواي ، ولا يطيق احتماله بشر ، والناس يحسبون إني أتنعم بنعيم الملك فكنت محتقرة مهانة مكروهة وقد بلغ بهم الكره انهم أنزلوني منزلة الخدم ، ولا جرم فقد بدأ هذا الكره ليلة زفافي .

فقاطعها رينيه قائلاً : كاترين ما هذه التذكارات المؤلمة ؟

فأجابته بصوت أبح : إني أعيد هذه الذكرى لأنها تجدد ما كادت تمحوه الأيام من الحقد ...

نعم إن إهانتي بدأت ليلة زفافي ولو عشت مائة عام أيضاً لما نسيت تلك الليلة حين أوصلني زوجي ولي عهد فرنسوا الأول الى غرفتي بعد الزفاف وانحنى أمامي وانصرف دون ان يفوه بكلمة .

وقد فعل مثل ذلك في الليلة الثانية وما تلاها من الليالي ، ولما استوى هذا الزوج على عرش فرنسا لم أكن أنا الملكة بل كانت الملكة الحقيقية حظيته ديانا دي بواتييه .

ثم تعاقبت الأيام ودرجت الليالي وهو يصليني بنار الوحدة إلى ان علمت يوماً انه يريد طلاقي ، فجزعت جزعاً شديداً وناديت كاهني واعترفت له رغباته عن السبب الذي يدعو الملك إلى طلاقي .

أتعلم يا رينيه بماذا أجاب ؟.. أجابني أن الملك يدّعي أني شؤم على العائلة .

فاصفر وجه الفلكي وأخذ كرسياً فجلس أمامها .

وعادت الملكة الى حديثها وقالت : إني كنت شؤماً على العائلة . أصمت

كنت . أميت كل من تمسه يدي كما كان يقول الملك هنري الثاني . ويظهر إني كان مصيباً يا رينيه فيما يقول : لانه بعد ان شفعت بي خليلته نفسها ديانا دي بواتييه ، رجع عن طلاقي ، وبعد ان شفع بي القسيس رضي أن يجعلني زوجة حقيقية ، وبعد ان ولدت له البنين ، أعرفت ما أصيب به هؤلاء البنون ؟..

إن فرنسوا مات وهو في العشرين من عمره بعد ان حكم عاماً واحداً وكانت علته بعلة في الأذن لم يعرف أصلها إلى الآن غير ان امبرواز باريه قال لي انه مات بالانحلال .

وهنا توقفت كاترين هنيهة فسمعت حينها ، ثم عادت إلى الحديث فقالت بصوت أجش :

— أنظر إلى ولدي شارل إنه يصاب كل حين بنوبات عصبية هائلة حتى إني أخشى ان تفضي به هذه النوبات الى الجنون وانحلال القوى العقلية كما أصيب أخوه فرنسوا بانحلال القوى الجسدية .

ثم انظر الى الدوق دي النسون ولدي الأصغر ، ألا ترى في ملامح وجهه ما يدل على سوء المصير ؟

إذاً لا يبقى من بني غير الدوق دي انجو (وهنا رق صوتها وتهدج حنواً) فهو قوي نشيط اليس كذلك ؟

نعم ، انه لكذلك .. ولكني ربيته وخبرته ، فهو لا يستطيع أن يجمع فكرين .

ثم وقفت وقالت : إن فرنسوا مات وشارل مقضي عليه بالموت وهنري سيرقى الى العرش قريباً دون شك ويضع على رأسه الضعيف ذلك التاج الثقيل الذي لا بد ان يسحقه .

ويظهر لك مما تقدم ، انه يجب ان أكون شديدة قوية لأحمل هذا العبء الثقيل ، عبء إدارة المملكة ، بينما ملكها يكون منشاغلاً عنها

يلاهي الصبي .

ثم مشت في الغرفة بخطوات غير موزونة ، وعادت الى الفلكي فقالت :

نعم ، لا بد لي من إدارة المملكة كي لا تبقى تحت رحمة أسرات كيز وكوليني ومونمور نسبي .

إن الدوق دي كيز يا رينيه بلغت به الجرأة يوماً انه أخـــذ مفاتيح قصر الملك ، فكنت أنا شبه أسيرة في البلاط وان كوليني لا هم له إلا أن ينقل الملك من أسرة بوربون وإن كثيرين غيرهما يحاولون تمزيق هذه المملكة وأنا أذود عنها دفاعاً عن حقوق ولدي .

ـــ أي ولد تعنين ؟

ـــ ولدي الدوق انجو الذي سيملك قريباً فهو وحده الذي يحبني ويعرفني حق العرفان .

فأطرق رينيه برأسه وقال بصوت خافت كأنه خشي ان يسمع والآخر يا سيدتي ، إنك لم تذكريه بحرف ؟

فارتعشت الملكة وقالت له : أي ولد آخر تعني ؟. وماذا تريـــد بهذا القول ؟

ثم نظرت اليه نظرة هائلة لم يطق احتمالهـا وقالت : أراك كأنك فقدت الصواب ، إحذر بعد الآن ان تعود إلى مثل هذا السؤال .

ـــ صدقت ، ولكني لا أجد بداً من الكلام . لا تخشي يا سيدتي إذ ليس من يسمعنا فقد اتخذت الاحتياط ولا يوجد سوانا في هذا المنزل وإذا كنت قد عولت على الكلام فليس لأن هذا السر أرهقني وقضى علي بالهم الملازم ولكني سألت النجوم وأجابتني .

فقطبت كاترين حاجبيها وقد وجف قلبها ، لأن هذه المرأة التي لم تكن تخاف الآثام ولا ترتعش للجريمة كانت ترتعد خوفاً من النجوم .

وكأنما رينيه الفلكي كان واثقاً من أنها ستصغي اليه بعد ان أنذرها بالنجوم

واندفع في حديثه قائلاً :

ـــ إنك تتامين يا كاترين ملء جفنيك لاتحسبين لشيء حساباً ، ولا تفتكرين بذلك الولد الآخر .

أما أنا إني لم أعرف الرقاد منذ عهد بعيد ، وإذا أنهكني التعب وغفت عيني تمثل لي حلم واحد هائل لا ينفك يعاودني كلما غفوت وأرى الأشباح نفسها تحيط بي وتجلس على سريري .

إني أرى كلما غفوت رجلا خارجاً من قصر في ليلة حالكة الأديم ، وأرى العشيقة التي ولدته تشير اليه بيدها إشارة قاضية لا رحمة فيها .

ثم أرى هذا الرجل يبكي ويلتمس ويستشفع فلا يجد شفيعاً ولا يجاب له ملتمس لأن العشيقة قضت عليه القضاء المبرم .

يخرج هذا الرجل من القصر وقد لف بردائه الطويل طفلا حيا يبكي ويصيح كأنه يلتمس العفو ببكائه .

ولكن الرجل كان يصم أذنيه وقد تحجر فؤاده وبات نذلاً جباناً لأنه خاف تلك المرأة .

وانطلق بذلك الطفل والقاه على سلم الكنيسة ، ثم انصرف .

فعبست كاترين وقالت له بصوت أجش : لكنك نسيت امراً يا رينيـــه بمودتك إلى ذكر الأشباح .

ـــ كلا إني لم أنس شيئاً وحبذا لو تمكنت من النسيان .

وأنت تريدين اني قبل ان ذهبت بالطفل ، ووضعته على سلم الكنيسة ، وضعت في فمه نقطة من ذلك السـائل الهائل الأبيض ... اليس هـذا الذي تعنينه ؟

ـــ دون شك ، لأن الطفـل لا يستطيع ان يعيش بعد تجرع ذاك السم أكثر من شهرين

وقد كنت في ذلك العهد شجاعاً قاسي القلب يا رينيه ، فما ندمت لأني

أحببتك لأنك قد أيدت ذلك البرهان الذي يثبت تهتك الملكة وخيانتها
ولكن أية فائدة من العودة إلى مثل هذه الذكرى .

نعم إني أحببتك ، لقد جئتني في عهد كان زوجي الملك يكرهني فيه على
احترام خليلته ، وكان أشراف البلاط لا يكترثون لي كأني لم أكن امرأة ملكهم
حتى ان الخدم أنفسهم كانوا في ذلك العهد لا يصدعون بأمر أصدره إلا متى
أيدت خليلة الملك هذا الأمر .

نعم إني حين عرفتك كنت مهانة محتقرة ذليلة قانطة ، فرأيت في عينيك
بارقاً يدل على الرحمة ، فمشى كلانا الى الآخر فكنا نقضي النهار بالحديث عن
فلورنسا ونحيي الليل بالبحث عن النجوم .

ثم انك علمتني مهنتك فعرفت أسرار الفلك ، وعلمتني فظائع بورجيا فعرفت
أسرار السموم ، وبت بفضلك أملك الحياة والموت ، وأصبحت قادرة على
الانتقام كما أشاء ، فأضع الموت الزؤام في فص خاتم وفي عطر زهرة وورقة
كتاب بحيث بت أشد هولاً من بورجيا وأسرته الهائلة

ومن ذلك العهد بدأ دور انتقامي ، بل دور هنائي يا ريتيه ، وكان
ذاك بفضلك ، فجازيتك بما اشتهيت ، وكنت والد ذاك الطفل الذي
تذكره الآن .

وكانت كاترين تبوح بهذه الأسرار الشائنة وتتكلم بصوت منخفض كأنها
تكلم نفسها او كأنها خجلت من نفسها .

ثم عادت إلى الحديث بعد ان مسحت جبينها فقالت .

— أما الآن وقد بت الملكة المطلقة الأمر ، وانتقمت من أعدائي بأرواء
إلي الحقد الدفين وعولت على ان أبني على أنقاض المملكة الحاضرة مملكة عظيمة
تدهش العالم بأسره أراك تحدثني بأمور الماضي

واعلم يا ريتيه ان ما مضى فات ، ولا عبرة إلا في الغد ، فلماذا تحدثني
بهذا الطفل ؟

إنه لا تزال التقطته يد مشفقة عن سلم الكنيسة حيث وضعته ، وهو دون
ذلك قد مات بعد التقاطه بشهرين بفضل ذلك السم الذي سقيته إياه فزج في
هاوية الأبدية وهو لا يعود .

فأخذ الفلكي يد الملكة بعنف وقال : وإذا كنت قد أخطأت ؟

فارتعدت الملكة وقالت كيف ذاك ؟

— إذا كانت النقطة التي سقيته إياها غير كافية لقتله فنجا بأعجوبة من السماء
ولا يزال في قيد الحياة !

— يا لهول ما أسمع ، أيمكن ذلك ان يكون ؟

— إصغي إلي يا كاترين ... إني كنت أستشير النجوم في كل ليلة فكنت
أعلم منها ان الغلام لا يزال حياً يرزق .

وكنت في كل مرة أحسب نفسي منخدعاً ولكني كنت أجد في كل ليلة
ذات الجواب ، وهو ان الغلام حي .

فجعل العرق البارد ينصب من جبين الملكة وهي تكرر قولها : يا للهول
يا للهول !

وعاد الفلكي الى الحديث فقال :

— إني لم أكن أخبرك بشيء من ذاك وكنت أحتمل وحدي عناء ذاك الرعب
والتفجع . غير ان السكوت الآن يا ملكتي يعد جريمة ، ولم أكن في
خدمتك من الخائنين .

كانت هذه الملكة من أشد الناس مقدرة على إخفاء مؤثراتها والصبر على
الشدائد الأمور وإظهار السكينة على وجهها ، في حين ان البراكين تثور في
قلبها فكانت سكينتها وعزمها الأكيد حين ملاقاة الخطر أشد خطراً
من سمومها .

ولما فرغ الفلكي من حديثه عادت الى سكينتها العادية ، وقالت له
ببرود :

— حسناً لنفترض ان الغلام حي فماذا تضرني حياته
لا يستطيع أن يعلم حقيقة مولده ...
انه يعيش ولكنه يعيش عيش التقطاء في شارع مجهول فلا نحن نعلم اين
ولا هو يعرف اسم امه .

— كانزين كفاك تجلداً لأن الغلام في باريس وقد رأيته
وعادت الملكة الى الاضطراب ، وقالت : أنت رأيته ؟ أين أين ؟
— لقد قلت لك في باريس .
— ولكن متى ؟.. تكلم .

— أمس .. إنما يجب ، قبل كل شيء ، ان تعرفي اسم المرأة
التقطته وربته .
— من هي ؟
— هي جنة دي البريت ملكة النافار .

فانقض هذا الاسم عليها انقضاض الصاعقة وقالت
أيكون برهان جريمتي بيد ألد أعدائي وأنا غافلة .
— لكنها تجهل دون شك انه ولدك .

— أسكت وكفى ، لأن ملكة النافار لم تلتقط هذا الطفل الا وهو
تعلم انه ولدي . . اني أجهل كيف اتصل بها هذا السر ولكني واثقة
واقفة عليه .
وانت ترى الآن انه لم يبق بد من موتها لأن عداءنا الآن لم يعد قاصراً
على تنازع أسرتنا المملكة ، بل أصبح عداء شخصياً لا بد لواحد منا أن
يلقى حتفه فيه .
والآن ، قل لي بالتفصيل متى وكيف رأيته ؟ وكيف عرفت
هذه الامور ؟
— عرفتها أمس ... حين انصرافي من عند ذلك الرجل

سلمني اليه
فوشيه باردليان الذي انقذ ملكة النافار
— هو ذاك يا سيدتي ، لاني حين خروجي من غرفته رأيت رجلا داخلا
اليها ، فما كدت ألمحه حتى شعرت ان الدم جمد في عروقي ، وخلت كأنما شعر
رأسي قد وقف .
وان هذا الرجل كان يشبهني شبهاً عجيباً حينما كنت في الخامسة والعشرين
من عمري بل حين رأيته خلت إني أنظر إلى مرآتي ، وقد عدت إلى
عهد الشباب .
ثم رفع الفلكي يده على عينيه كأنه يحاول طرد خيال مر به فقالت له
الملكة : امض في حديثك .
فأجاب : إن أول عاطفة شعرت بها إني خلت نفسي من المجانين ، ثم
خطر لي أن أستر وجهي كي لا يراني ، لأنه لو رآني لشعر دون شك
بشعوري
ولما نبت إلى رشدي ، ورأيته دخل إلى الغرفة التي خرجت منها ،
خطر لي في الحال ما كانت ترشدني اليه النجوم ، وحدثني قلبي انه دون
شك ولدي
فجعلت أفكر بك وبما يتهددك من الأخطار ، فتغاضيت عن كل شيء
ولم أعد أفكر إلا بانقاذك .
وعندما عدت في أثر الشاب ورأيته دخل إلى غرفة باردليان فوضعت أذني
على الباب وجعلت كلما دار بينهما من الحديث وعلمت منه يقيناً انه ولدنا ، وان
ملكة النافار التقطته وربته .
وهنا ساد السكون هنيهة ، لأن الملكة استرسلت إلى التصورات
والتفكير
ثم سألت الفلكي قائلة : وهو أتظنه يعرف حقيقة مولده ؟

— كلا ، وانا الضمين بجهله هذه الأسرار

— في أية مهمة زار باردالیان ؟ وأي شأن له في باريس ؟

أجاب : إنه في خدمة ملكة النافار ، وهو قد التحق بها الآن دون شك .

وعادت كاترين إلى التفكير وطال تفكيرها والفلكي ساكت واجم محترم سكوتها خائف على ولده إلى ان طرق الباب فارتعشت الملكة وقالت : من عسى ان يكون الطارق ؟

— إنه الشفالييه دى باردالیان دون شك ، لقد واعدته على اللقاء في الساعة العاشرة وهوذا الموعد قد حان .

فوضعت الملكة يدها على جبينها وقالت :

— لماذا ذهب الى باردالیان العلهما صديقان ؟

— كلا ، لانه جاءه مندوباً من ملكة النافار ، يحمل اليه شكرها على دفاعه عنها .

— إذاً لا صداقة بينهما .

— على الاطلاق ، لأنه لم يره قبل هذه المرة .

فابتسمت الملكة ابتساماً وجف له قلب الفلكي وقالت له : إذهب إذاً وافتح الباب لقد وجدت مهمة لهذا الفتى الباسل . . . ألم تقل لي عنه انه شديد الفقر والكبرياء .

— إن فقره يعادل كبرياءه وقد بلغ بكليهما إلى أقصى الحدود .

— إذاً فهو أهل للاقدام على كل امر ، إذهب وافتح .

— لكن ألا تقولين يا سيدتي على ماذا عولت ؟

— إفتح الباب فهو يقرعه المرة الثالثة .

— كاترين . رحماك إشفقي على ولدي .

فمدت الملكة يدها مشيرة الى الباب فقالت له : إذهب وافتح .

ف الفلكي ممتثلاً وهو يكاد يتعثر باذياله .

لملكة فإنها اغتنمت فرصة غياب الفلكي القصيرة فرسمت خطتها ،

سكن ثائر اضطرابها . فلما دخل باردالیان لم يجد أمامه غير امرأة باسمة تدل

لاهم على الدعة ومكارم الأخلاق .

عرف لأول وهلة انه بحضرة ام الملك وانحنى أمامها بملء الاحترام .

ا الملكة فانها ابتسمت له وقالت : أتعرف يا حضرة الشفالييه من أنا ؟

قال باردالیان في نفسه : لقد دنت ساعة التأهب والحذر فإنها ستكذب

لأكاذيب قبلها .

ثم قال لها إني أنتظر أن تشرفني سيدتي بذكر اسمها

فاجابته بعظمة إنك بحضرة أم الملك .

فانحنى باردالیان إنحناء عظيماً ووقف الفلكي خائفاً من الملكة معجباً بها

وساعتها لباردالیان بذكر اسمها .

أما الملكة فانها استأنفت الحديث فقالت مخاطبة باردالیان : إنك أظهرت

أمس من ضروب البسالة والجرأة ما يدعو الى الإعجاب بك ، لأن تصديك

لشبان برمته واقتحامك غمرات الموت للدفاع عن امرأة لا تعرفها يعد من

أجل الحسنات

وكانت الملكة تتوقع أن يجيبها باردالیان الجواب المألوف في هذا المقام ،

وهو ان يقول لها مثلاً : إني لم أفعل غير ما يجب علي او غير ذاك مما يشبه

هذا القول .

غير أن باردالیان أجابها بلهجة كبرياء تشبه لهجتها فقال : إني عالم يا سيدتي

بجلال ما صنعت .

فارتعشت الملكة وقالت : إن الذي يزيد جمال صنعك انك لم تكن تعرف

شخص المرأة التي دافعت عنها

— هو ذاك يا صاحبة الجلالة .

— ولكنك تعرف اسمها الآن فيما أظن ؟

وقد توقعت الملكة منه ان يكذب غير انه أجاب بصراحة قائلا :

— نعم يا سيدتي ، إن التي تشرفت بالدفاع عنها كانت جلالة ملكة

وإحدى وصيفاتها .

— وأنا أيضاً أعلم ما تعلم ولهذا أردت ان أكافئك لأنك أنقذت

والملكات متضامنات .

وفوق ذلك إن هذه الملكة من أهلي وهي فقيرة معدمة وأنا أريد

جزاءك توليت عنها مكافأتك إذ لا بد لك من المكافأة .

— أرجو مولاتي ان تطمئن علي من هذا القبيل ، فقد كوفئت

أستحق .

— كيف ذاك ؟

— إن جلالة ملكة النافار أسدتني من الثناء ما يغنيني عن الآخر .

— ولكن هذه القريبة العزيزة ألم تعرض عليك منصباً في بلادها ؟

— نعم لكني رفضته .

— لماذا ؟

— لأنه يستحيل علي مغادرة باريس .

— وإذا عرضت عليك أنا الانتظام في خدمتي أترفض ؟

اصبر واسمع قبل ان تجيب . .

أنت لا تريد مفارقة باريس ، وهذا الذي أريده أيضاً ، وأنت قد خاطرت

بحياتك دفاعاً عن امرأة لم تكن تعرفها ، أفلا تدافع هذا الدفاع عن

ملكتك ؟

— ماذا أسمع ، العل مولاتي في حاجة الى الدفاع ؟

فابتسمت الملكة وقالت : لا أنكر ان هذا القول يدعو الى الاندهال لكن

حقيقة ثابتة لأني محاطة بالأعداء من كل الجهات ، أسهر الليل والنهار لصيانة

الملك وعرشه ، وأنت لا تعلم ما يحدث كل يوم من المؤامرات الشائنة حول

عرش

وارتعش بارتاليان ، إذ ذكر تلك المؤامرة التي حدثت في الفندق

الملكة ، وليس انه يعرف من أسرار هذه المؤامرات أكثر مما تعرفه

الملكة

لكنه لم يجب ، ومضت الملكة في حديثها فقالت :

فأنت لا تعلم اني منفردة وحيدة لا مساعد لي في تأييد تاج ولدي ومنع

الأمير من الوصول اليه .

على ان هذا الخطر لو كان محدقاً بي وحدي دونه كما كان من قبل لما خشيته

لكني أم ولا بد لي من الحياة لوقايه أولادي .

فأجاب بارتاليان دون أن يظهر اضطرابه قائلا :

— ليس في الأرض شريف مستحق لهذا اللقب يتردد لحظة في تضحية نفسه

لهذا الغرض النبيل ...

إن الأم مقدسة يا سيدتي ، وخدمتها فرض إنساني ، غير ان هذه

الأم متى كانت ملكة ، أصبحت خدمتها واجباً مقدساً ، لا ينفر منه

الشريف

— إذاً أنت لا تتردد في الانتظام في سلك أولئك الأشراف الذين يخدمونني

فيخدمون الأم والملكة ؟

— معاذ الله أن يخطر التردد في بالي ولكني لا أعلم كيف يستطيع خامل

مثلي أن ينفع جلالتك .

فبدت علائم السرور على محيا الملكة وانقبضت سحنة الفلكي وتنهد ،

وقالت الملكة لبارتاليان :

اني قبل ان أذكر لك كيف تنفعني أحب أن أخبرك كيف أنفعك لأنك

في رأيك ، وأنت خامل كما تقول ، فسأنفض عنك غبار الخمول وأرفعك

الى المنزلة التي يجب ان يكون فيها أمثالك وأول ما أبتدأ به اني أعينك
منصب بالوفر وأجعل لك راتباً قدره عشرون الف فرنك في العام ، فهل أنت
راض عن هذه البداية ؟

— ليس هذا ما يعبر عنه بالرضى يا سيدتي ، لاني أحسب نفسي من
الحالمين .

— كلاما أنت بحالم لان من أقدس واجبات الملوك أن يحسنوا اختيار الأكفاء
من الرجال وان يكافئوهم بما يستحقون

— إذاً تفضلي يا سيدتي بتعيين واجباتي .

فسكتت الملكة هنيهة وجعل الفلكي يمسح العرق البارد المنصب من جبينه
كأنه كان يعلم مراد الملكة .

أما الملكة فإنها تكلفت لهجة الحزن وأجابته قائلة :

— لقد ذكرت لك ان لي أعداء وان أعدائي أعداء الملك ، وأريدك ان
جرائمهم آخذة كل يوم بالازدياد ، ولولا هؤلاء الأشراف المخلصين
للعرش ، اولئك الأبطال الذين ستنتظم في سلكهم ، لبلغ الأعداء منا
ما أرادوا .

وهنا أخبرك كيف أتصرف حين اجد أحد اعدائي قد اقترب مني .

إنني ابدأ باثنائه عن عزمه بالرجاء وبالوعود ، وبالدموع إذا اقتضت
الحال ، وهي طريقة كنت أفوز بها على الغالب الأعم ، فإن الانسان أقل
شراً مما يقولون .

— وحين لا تفلح هذه الطريقة ماذا تصنعين ؟

— ألجأ عند ذاك إلى عدل الله .

— أسأل مولاتي المعذرة ، فانني لم أفهم كل ما تريد .

— أريد انني حين اضطر ان الجأ إلى عدل الله ادعو أحد رجالي المخلصين
فأعهد اليه أن يجتمع بعدوي ويختلق سبباً لمبارزته فيخرج من هذه المبارزة

قاتلاً أو مقتولاً ، فاذا كان مقتولاً مات وهو واثق اني أبكيه وانتقم له ،
واذا ظفر بذلك العدو وأنقذ ملكته وملكه يحدثنا ممن يقدرون الأعمال ، بل
ممن يحسنون مكافأة الأبطال فما رأيك في هذه الطريقة ؟

— إنها طريقة طبيعية ، ومن لا يجرد حسامه للدفاع عن ملكته ؟

— وإذا أرشدتك إلى أحد أولئك الأشقياء ؟

— اذهب اليه فأبارزه ولو كان يدعى ..

وكاد يخرج من فمه اسم الدوق دي كيز ومونمرانسي فسان المؤامرة التي
حدثت في الفندق تجلت له في تلك الساعة وكان واثقاً ان الملكة ستذكر له
اسم الدوق دي كيز .

أما الملكة فقد جال الشك في خاطرها فقالت له : أي اسم كنت عازماً
على أن تلفظه ثم توقفت ؟

فعادت السكينة إلى باردالیان وقال لها : إني لم أكن أقصد اسماً معيناً ،
ولكني أريد ان اقول اني لا أتوقف عن لقاء عدو لمليكتي مهما بلغ هذا
العدو من الشدة والبأس .

— انك تحقق ما كنت اتوسمه فيك من مخائل النبل والمروءة ، فاعلم الآن
اني مشفقة بالرائك فلا تخاطر بحياتك ، فانها باتت لنا منذ اليوم ويجب أن
تسبح مناهج الحكمة في جميع اعمالك .

— لم أفهم يا سيدتي ما تعنين .

— أريد أن المبارزة أمر محمود مألوف ، ولكن طرق المبارزة تختلف ،
فان خصومك يترصدون عدوهم ويكمنون له حتى إذا مر بهم أخذوه غيلة وقتلوه ،
وانا لا أشير عليك باتباع هذه الطريقة .

— ومن يرتكب هذه الجريمة يا سيدتي غير الجبناء ومن سقطت مروءتهم ،
أما أنا فاني أبارز في الليل وفي النار ، ولكني لا القي العدو إلا وجهاً لوجه
والسيف منصلت بيده ، فلتتفضل مولاتي بمعذرتي إذا لم تكن طريقتي صالحة

فانني لا أحيد عنها .

– بل هذا الذي كنت اتوقع منك ان تقوله ، وان الحكمة تقرن بالشجاعة وهي في المحل الأول ، برأي الحكماء فأنا لا أسلك أن تكون باسلا ، فقد عرفت من شجاعتك مايكفي للدلالة عليها ، ولكني أريد أن تكون حكيما ، وهذا كل ما ابغيه .

– إذا كان ذلك يا سيدتي فلم يبق إلا أن تذكري لي اسم ذلك العدو الذي تريدي أن القاه .

– سأذكر لك اسمه

وعند ذلك ضم الفلكي يديه ونظر الى الملكة نظرة المتوسل

فرمته الملكة بنظرة هائلة صعقته ، فأطرق برأسه الى الأرض وتراجع

أما باردالليان فقال في نفسه : لا شك أن هذا العدو الذي دي كير بعيته ، وأن الملكة عرفت المؤامرة كما عرفتها ، فاذا كان ذلك فاني غرف اعظم من أن ابارز الدوق .

واما الملكة فانها بعد أن رمت الفلكي بتلك النظرة الهائلة وارقته عنه جندي ، التفتت الى باردالليان وقالت له :

لقد تلقيت زيارة أمس يا شفالييه .

– بل أكثر من زيارة ، فقد زارني أمس كثيرون .

– وأنا أعني منهم فتى جاءك من قبل ملكة النافار . .

أن هذا الفتى من أشد أولئك الاعداء الذين ذكرتهم لك فهو ماثل امامك ، وقد بت أخافه خوفاً شديداً . وما انا بخائفة على نفسي ، فلم يبق لي في هذه الحياة مطمع ، ولكني خائفة على ولدي شارل ، أي ملكك يا شفالييه .

فاضطرب باردالليان في نفسه وذهبت امانيه بمبارزة الدوق وتمثلت له الحقيقة الهائلة ، فقطب حاجباه واهتز شارباه وظهرت دلائل الاحتقار على محياه .

فقالت له الملكة : ما هذا السكوت الملك تتردد ؟

وقد قالت له هذا القول بلهجة المتوعد ، فكبر عليه ذلك الوعيد وزاد في كبره فقال لها : كلا ، اني لا اتردد يا سيدتي .

فعادت الملكة الى الملاينة وقالت له .

ورك فيك فهذا الذي كنت اتوقعه من بطل فقير مثلك اتاح له حسن طالعه ان يخدم الملوك .

فاشتد وقع هذا الكلام على باردالليان وقال لها : نعم اني لا اتردد يا سيدتي فاني أرفض رفضاً باتاً .

لم يكن وقع الصاعقة بأشد على الملكة من وقع كلام باردالليان ، فقد تعودت أن ترى الرؤوس مطرقة امامها ، وأن لا يجسر أحد على ان يرفض لها أمراً .

وقد كان يمكن ان تتوقع الرفض من باردالليان ، ولكنها ما توقعت أن يتوج معها مناهج القبحة ، وان يرفض هذا الرفض الصريح الموجز ، دون ان يبد له سبباً من أسباب الاعتذار . ونظرت إلى ما حولها ، كأنها تبحث عن رئيس الحرس كي تأمره بالقبض عليه ، فوجدت نفسها وحيدة .

وقد كبر عليها هذا الفشل لكنها لم تجد بداً من اخفاء اضطرابها فقالت له وهي لا تزال تتكلف الدعة والملاينة : ألا ترى انه يجب ان تظهر لي السبب في رفضك على الأقل ؟

– دون شك يا سيدتي والسبب صريح ، وهو ان هذا الرجل الذي تطلبين إلي التعرض به ومبارزته ، زارني بالأمس وأكل من طعامي ، فكان صديقي ودعاني بصديقه ، وهو مقدس عندي ، ما زالت هذه الصداقة لم تنسخها ثالثة .

– أنه برهان سديد يقنعني ، فماذا يدعى صديقك هذا ؟

– لا أعلم .

– كيف ذلك ، أيكون صديقك ولا تعرف اسمه ؟

– انه لم يذكر اسمه ولم أسأله عنه ، وبعد فكيف تعيبين يا سيدتي جهلت إسم صديقي وجلالتك تجهل اسم عدوهما الألد ، أليس ذلك إلى العجب ؟

فأطرقت الملكة برأسها وقالت في نفسها إني أجد هذا الرجل أشد علي من أعدائي بعد ان أبى خدمتي .

ثم التفتت اليه وقالت إني لم أسألك عن اسمه إلا لأعلم إذا كنا متفقين معرفته ، وقد سرني ما أراه بك من مبدأ الكتمان والتحفظ فهو حلية الرجال كما سرني حرصك على الولاء فهو أشرف ما تتحلى به النفوس فلندع الآن هذا الرجل احتراماً لعواطفك .

– اني من أسعد الناس يا سيدتي بما سمعته من جلالتك فقد خشيت أن اكون أغضبتك بما بدر مني .

– ولماذا لا أرضى عنك وانت تحترم الصداقة وتجل الولاء . فاذهب الى الشفاليه واذكر اني ضمنت لك المستقبل السعيد واحضر غداً إلى اللوفر حيث انتظرك فيه .

ثم نهضت الملكة وابتسمت لبارداليان فانحنى أمامها بكل الاحترام وحيى التحية الملكية وانصرف .

وبعد ذلك بهنيهة كان عند الباب الخارجي حيث كان كلبه ينتظره في طريق الفندق وهو يحاول حل هذا المعمى الذي يدعوه الملكة كما ويقول في نفسه إنها أمرتني ان أحضر في الغد الى اللوفر ميدان الدروع يتسابق فيه رجال الاقدام . .

نعم سأذهب في الموعد المعين ويقيني ان أبي كان محظوظاً في ما أوصاني

أما الملكة فانها كانت بعد ساعة في اللوفر فنادت دي نيس

– ١٩ –

مارشال دي دامفيل

وحده قاضيه

وأما بارداليان فانه صحا من نومه عند الفجر بعد أن نام نوماً مضطرباً . فكان الذي عبها عظمت نفسه وقل اهتمامه بأغراض الحياة اذ فاجأته الثروة والسعادة كما فاجأت بارداليان لا يستطيع أن يتلقاها دون اضطراب .

وأي سعادة يطمع فيها مثل هذا البطل التائه أعظم من أن يصبح في لحظة سفي الملكة وساعدها الأيمن ، بعد ان كان ، في كل يوم يخشى الطرد من الفندق المقيم فيه .

وقد بات اكثر ليلته يتقلب على فراشه وهو يفتكر في ما صار اليه ويعد مشروعاته المستقبلية حتى اعد خطته كما يأتي :

١ – يذهب الى اللوفر بدعوة الملكة كاترين دي مدسيس .

٢ – يذهب الى قصر كوليني فيخبر صديقه ديودات انه يجب ان يبرح باريس في القريب العاجل حذراً من انتقام الملكة .

٣ – يتجسس بالدوق دي كيز ويقاتله فيخدم الملكة اجل خدمة .

٤ – حينما يعود من مركزه الجديد يذهب الى ذات النقاب الأسود فيخبرها

بمنصبه ومجبه لابنتها لويزا ، فلا يرفض زواجها برجل من اهل البلاط ويتزوج غير

٥ - يصبح بعد هذا الزواج من اسعد الناس .

٦ — يبحث عن ابيه حتى يجده فيعيش واياه عيشة صالحة ويقول له : لا

شك ان باردااليان الابن نال الثروة بعصيانه وصية باردااليان الأب

ولما رسم لنفسه هذه الخطة اطمأن خاطره وتمكن من النوم .

ولكنه صحا عند بزوغ الفجر كما قدمنا فتأنق في لباسه كي لا يبرا به رجال البلاط ، حتى اذا أتم لباسه ولم يبق الا أن يتقلد حسامه رأى ان الوقت لا يزال باكراً ، وانه لا يستطيع الذهاب الى اللوفر قبل ساعتين او ثلاث .

وعند ذلك فتح النافذة ووقف امامها وهو لا يطمع ان يرى لويزا في مثل هذه الساعة ، ولكن العاشق يلذ له أن يرى نافذة الغرفة التي تنام فيها حبيبته ولو كانت تلك النافذة مقفلة .

على ان باردااليان لم يكد يفتح نافذته حتى رأى نافذة لويزا قد فتحت بعنف ، ثم رأى حبيبته لويزا أطلت من تلك النافذة وهي محاولة الشعر صفراء الوجه مضطربة العينين فرأت باردااليان وناديته بلهجة المتذعرة قائلة ..

تعال .. تعال ..

فاصفر وجه باردااليان وقال في نفسه رباه ماذا حدث؟

ذلك انها لم تكن كلمته قبل الآن ولم تشر اليه إشارة ، فاستدل من ذلك انها تطلب النجدة وصاح بصوت مرتفع بلغ إلى مسمعها قائلا : لبيك ها أنا آت .

ثم أسرع إلى الجدار كي يأخذ حسامه فسمع في تلك اللحظة كلبه ينبح نباحاً شديداً ، ورأى ان باب غرفته قد كسر ودخل منه اثنا عشر جندياً مدججين بالسلاح .

وعند ذلك قال رئيسهم : أيها الشفاليه إننا نقبض عليك بأمر الملك .

ولكن باردااليان قد أخذ سيفه بعد فوثب اليه كي يدافع به عن نفسه ، ولم يمكن الجنود أحاطوا به من كل مكان فحالوا دون قصده وتمكنوا من إلقائه على الأرض .

في هذه الساعة الهائلة سمع صوت لويزا تناديه قائلة إلي الي !

وهو محاط بالجند مغلول اليدين لا يستطيع تلبية النداء فوقع ذلك النداء من قلبه وقع السهم وأن أنين الموجع .

ثم تكرر الصوت مراراً فكان يفعل به فعل الكهرباء .

فأبدى جهداً عنيفاً في سبيل الافلات من الجند ، ولكنه وجد انه مقيد اليدين والرجلين لا يستطيع حراكاً ، فاغمض عينيه مسترسلا إلى اليأس ، واضطرمت النار في قلب الأسير ، فأساله البخار دمعة على وجنة ذلك البطل العاشق .

ولما تمكن الجنود من التغلب عليه وتوثيق يديه ورجليه ، التفت رئيس الحرس إلى ما حواليه متفقداً جنده ، فوجد بينهم قتيلين وخمسة جرحى ذلك أن باردااليان قتل احدهما بضربة على صدغه ، وخنق كلبه الآخر ، وجرح باثنيابه الخمسة .

وعند ذلك أمر رئيس الجنود أن يحملوا باردااليان فحملوه وخرجوا به إلى الشارع .

وهناك فتح باردااليان عينيه فرأى ثلاث مركبات احداها واقفة عند باب الفندق فأيقن انها معدة لنقله .

وأما المركبتان الباقيتان فقد كانتا واقفتين أمام منزل لويزا ، فرأى أن احداهما فارغة وأن في الأخرى رجلاً عرف انه هنري مونمورانسي مارشال دامفيل .

ولم يبق له الجنود فرصة ليرى اكثر ما رأى فانهم ألقوه في المركبة واقفلوا بابها فسارت به مسرعة إلى حيث لا يعلم .

وقد كانت هيئة هذا المنكود تحمل على الاشفاق فقد كان يجب من يأسه ،
ولكنه على يأسه لم تسر به المركبة بضعة امتار حتى تاب اليه رشده ورأى
سير المركبة والطريق الذاهبة فيها فجمد الدم في عروقه وقال بلهجة تنشف من
الرعب الشديد ..

انهم ذاهبون بي إلى الباستيل ..

ومن عرف شهرة الباستيل في ذلك العهد وما كان يجري فيه من المظالم لا
ينكر هذا الرعب على باردالیان .

فان هذا السجن الرهيب لم يكن كالسجون المألوفة بل كان أشبه بالقبور
منه بالسجون .

وقد أيقن باردالیان انه من الهالكين حين كان يظن أن الثروة قد فتحت له
ابوابها وحين سمع من لا تخطر له الثروة في بال إلا من اجلها تناديه وتستغيث به
وهو مقيد اسير لا يستطيع تلبية النداء ولا اغاثة من يحب .

ولما وقفت المركبة وانزل منها التفت إلى ما حواليه فوجد نفسه محاطا
بالجنود من كل جانب

فكان اول ما خطر له لأول وهلة ان ينقض على الجنود ليس لطمعه بالفوز
عليهم والفرار بل لرجائه ان يهجموا عليه من كل صوب ويجعلوا فيه سيوفهم
فيقتلونه ويريحونه من الحياة .

ولكنه قبل أن يتم هذا الخاطر طوقه الجنود وسار به ثلاثة منهم فوقفوا
من باب حديدي الى رواق طويل نبت العشب على جدرانه لرطوبتها والليشت
منه روائح المفونة .

وقد انتهوا من هذا الرواق إلى سلم من الحجارة فصعدوا بالأسير عليه وانتهوا
منه إلى باب ضخم من الحديد فدخلوا منه إلى دهليز طويل .

وهناك ادخلوه غرفة متسعة كائنة في الدور الثالث من برج السجن الشرقي
فتركوه فيها واقفلوا الباب .

وكانوا قد فكوا قيوده ، فانقض على الباب وحاول أن يحطمه ،
حتى إذا علم ان لا حيلة في كسره تمكن منه اليأس فانقلب على الأرض
مغميا عليه .

* * *

ولنعد الآن إلى لويزا وبيان السبب التي استغاثت من أجله بباردالیان
فنقول :

عرف القراء ان هنري مونمورانسي رأى حنة والدة لويزا من نافذة غرفتها
فعرفها للحال .

فلما وثق إنها هي امرأة أخيه ، تلك التي هام بحبها ، حتى ارتكب
في سبيلها الجرائم ، وفرقها عن زوجها بالمكائد السافلة ، نظر إلى ما حواليه
فرأى أن الشمس قد تعالت والمخازن فتحت أبوابها ، والناس ينظرون
اليه نظرات الفضول مستغربين وقوفه ، فلم يجد بداً من الانصراف والصعود
إلى القصر .

وكان قصره مظلماً وهو بجوار سجن التامبل ، تبدو عليه ظواهر السكينة
فلا يرى فيه غير الخدم والجنود بحيث بات يشبه الحصون .

وقد أقام هنري طول نهاره معتزلاً في غرفة يضطرب لكل حركة
يسمعها ، ويرتعش كلما سمع صوت باب يفتح ، ويقول في نفسه : ألا يمكن
أن يكون أخي فرنسوا قد حضر إلى باريس لنفس السبب الذي حضرت
من أجله إليها .

ألا يمكن أن يقوده الاتفاق إلى شارع سانت دانيس ، كما قادني وان يرى
حنة كما رأيتها .

وإذا اجتمع بها واخبرته بكل ما اتفق وعرف خيانتي الهائلة ، فماذا عسى
يكون بيني وبينه .

وهنا اصفر وجهه وتندى جبينه بالعرق فقال : لقد مرت بنا الأعوام ، وكرت الليالي والأيام ، وأنا أحاول نسيانها فلا أجد سبيلا للسلوان .

ولقد خضت غمرات الحروب فكنت أراها في كل معترك ، وأرد تقبيل السيوف لأنها تلمع كبارق ثغرها ، واذا التمست السلوان بالشراب هاجت المدام مكامن غرامي فتمثلت لي كما رأيتها اليوم ، يفتن جمالها الأبصار وتليه في إدراك سر حسنها الافكار .

نعم اني كلما خلوت بنفسي لا اسمع غير صوتها تنادي زوجها فرسو وكلما نظرت اليها بعين الخيال أراها تنظر إلي نظرات ملؤها الاحتقار .

غير اني انتقمت انتقاماً هائلا ، فقتلت أباها وفرقت بينها وبين زوجها ، والويل لمن يكرهني فان انتقامي لا يقف عند حد .

وكان إذا بلغ بتصوره هذا المبلغ ، يقف ويمشي في الغرفة هائجاً مضطرباً مشية المجانين .

ثم يفتكر بأخيه فيسكن اضطرابه وتنحط كبرياؤه ، وليس ذلك لأنه كان يذكر الجريمة فيقرعه ضميره ، بل لأنه كان يذكر أخاه فيخاف انتقامه .

كان يذكر كل مـــا أساء به إلى أخيه فيطير فؤاده رعباً ، ويخطر له خاطر الفرار .

وقد وضع رأسه بين يديه حين خطر له هذا الخاطر ، وفكر ملياً ثم هاج ثائر غرامه ، فجاءت وهاجت براكين حقده ، فكبر عليه الفرار وجرد خنجره فطعن به المائدة التي كان جالساً عليها كأنه يطعن صدر أخيه .

ثم وقف وقال ، لقد بدأ هذا الغرام بالجريمة ، وهو بالجريمة يختم وليحصر أخي وليناقشني الحساب ، فلا أجيبه بغير هذا الخنجر وأظفر بجنة دونه .

هنا ابتسم الأبالسة كأنه قد وجد طريقة للتوفيق بين غرامه وانتقامه ، فأكل بشهية ونام بعد الأكل بضع ساعات .

وعند انتصاف الليل تدجج بالسلاح ، وخرج من منزله إلى الشارع الضيقة

وأقام هناك يراقب في نفس الموقف الذي كان فيه أمس إلى أن

وعند ذلك قدمت مركبتان تقلان بعض الجنود ، فصعد هنري إلى أحدى المركبتين واختبأ فيها كي لا يراه أحد ، وأشار إلى قائد أولئك الجنود أن يبدأ العمل وينفذ ما أمره به .

ودخل القائد إلى المنزل يتبعه نحو عشرة من الجند .

وكان البواب قد صحا منذعراً لدخول الجند إلى المنزل قبل الفجر ، فناداه القائد وقال له : يوجد في هذا المنزل امرأتان من الهوكينوت متهمتان بالمؤامرة مع أعداء جلالة الملك .

فاضطرب البواب وقال : رباه أيمكن أن يكون ذلك ومن هم أعداء جلالته ؟

ـ هم الهوكينوت الذين سيعاقبون أشد عقاب .

ـ ويلاه ، إذاً سأعاقب مثلهم .

ولماذا ، الملك منهم ؟

ـ كلا ، ولكنهم مقيمون في المنزل الذي أخدمه وسأعاقب بما يعاقبون .

ـ إنك تنجو من العقـــاب إذا ساعدتنا في القبض عليهم دون أن يعلم أحد .

ـ إني رهين أوامركم ، فقد خامرني الشك بهاتين المرأتين ، فإني ما رأيتهما دخلتا مرة إلى الكنيسة .

ثم صعد السلم أمام الجنود حتى إذا وصل بهم إلى منزل حنة قرع الباب ، ففتحته حنة ووجدت أمامها قائداً والجند وراءه .

فاصفر وجهها ولكنها كانت تعودت الشقاء حتى الفته ، فلم تضطرب لرؤية الجنود وقالت للقائد :

ـ ماذا تريد يا سيدي ؟

فاحمر وجه القائد وانحنى أمام حنة باحترام وقال لها :

أسأل سيدتي المعذرة فاني مأمور بانفاذ أمر صارم وما علي غير الامتثال

فنظرت حنة إلى الغرفة المقيمة فيهـا بفتها نظرة المتذمر وقالت له :

أمر يا سيدي ؟

— إني قادم يا سيدتي للقبض عليكم بتهمة التشييع للبوركيين ، وهذا الأوامر الصادرة .

وعند ذلك خرجت لويزا من غرفتها وعلمت كل شيء .

أما حنة فإنها قالت للقائد : إنك مخطىء يا سيدي فلست أنا المتهمة

– إني اتمنى لك البراءة من التهمة ، وفي كل حال فلا بد من أن تتبعني لاثبات براءتك .

فصاحت حنة صيحة رعب وقالت : رباه ايبعدونني عن بنتي .

واسرعت لويزا إلى غرفتها ففتحت النافذة بعنف ورأت بالدليان قادما مستغيثة كما تقدم .

أما القائد فانه تقدم من حنة وقال لها : اقسم إنك لا تفترقين عن بنتك ، فاني سأذهب بكما معاً إلى محل واحد ، فامتثلي يا سيدتي واتبعيني دون مقاومة كي لا اضطر الى استعمال العنف ، وهو مـا اقسم عليه طول الحياة .

فرأت حنة ان لا سبيل الى اقناع القائد بخطئه ، وأنه لا بد من الامتثال له .

– طوعاً يا سيدي ، ولكني أرجوك أن تمهلني هنيهة كي أتأهب .

– لكن ما تريدين يا سيدتي فاني في انتظارك .

ثم خرج من المنزل مع جنوده فوقف بهم عند الباب ، بينما كانت حنة قد دخلت إلى غرفة بنتها .

وقد سمعتها تنادي ، ورأتها تشير بيدها فقالت لها : من الذي تستغيثين

؟ أجبني ؟

— هو ذلك الفتى الذي ينظر إلي دائماً من نافذته .

وقد احمر وجهها لدى هذا القول ، فما خفيت حالتها عن أمها ، فضمتها إلى صدرها وقالت لها . العلك تحبينه يا لويزا ؟

فلم تجب لويزا بكلمة ، ولكنها أطرقت بعينيها وقد سالت منهما دمعتان تكلمتا بأفصح بيان .

فقالت لها أمها : وهو .. ايحبك ؟

— اظن ... بل اني واثقة .

— ان كان ذلك فهل تظنين اننا نستطيع الاعتماد عليه .. أجيبي يا لويزا ، أأنت واثقة باخلاص هذا الفتى ؟

— كل الثقة يا أماه

ماذا يدعى ؟

فاجابتها لويزا بملء البساطة قائلة : ولكني لا أعرف اسمه بعد

قالت حسناً : فان الوقت غير متسع للجدال ، وكل ما أرجوه ان تكوني غير منخدعة بهذه الثقة .

ثم أسرعت إلى مائدة عليهـا أدوات الكتابة ، فأخذت ورقة وكتبت عليها ما يأتي :

سيدي .

انا امرأتين اخفي عليهما الدهر تلتجئان إلى مروءتك .

انك لا تزال في مقتبل الشباب ، ولا تزال عواطف الرحمة والاشفاق تجول في قلبك

فاركنت على ما نعتقده بك فرجائي ورجاء ابنتي ان توصل الكتاب الواصل في طيه إلى صاحبه ، واني اشكرك مقدماً أجزل شكر » .

ذات النقاب الأسود

ثم فتحت درجا فأخرجت منه كتابا مختوما غلافه كانت قد
كتبته منذ عهد بعيد كما يظهر ، فوضعته في طي الرسالة التي كتبت
الى باردالیان .

ثم وضعت الرسالة والكتاب في غلاف فختمته ونادت الخادمة فقالت لها
اصغي إلي يا ابنتي . اننا متهمون بتهمة التشيع للهوكينوت ، وهي تهمة باطلة
لا البث ان اظهر زورها في موقف القضاء .

وغاية ما أطلبه اليك أن تأخذي هذا الكتاب الى هذا العنى المقيم
في هذه الغرفة .

ثم دلتها على الغرفة فأخذت الخادمة الكتاب وانصرفت .

وعند ذلك خرجت حنة مسع بفتها ، ففتحت الباب وقالت للقائد . انسا
مستعدتان للذهاب معك

فنزل القائد بهما وكان هنري مونمورانسي مختبئا في المركبة ، فلما رآهم
برقت عيناه ببارق وحشي من السرور .

وأما الاسيرتان فقد اصعدوهما الى المركبة الثانية ، وكانت الخادمة
قد حضرت ايضاً لوداعهما فقالت لها حنة : أعود فاوصيك باردال الكتاب
الى صاحبه

اطمأني يا سيدتي ، فقد عرفت صاحبه ، وهو الشفالييه دي باردالیان .

فأنت حنة اين المتوجم وحاولت استرجاع الكتاب منها ، ولكن المركبة
كانت اندفعت في السير وجرت تسابق الرياح .

٣٠

قصر هنري

رئيس الخادمة وصية سيدتها فان المركبة لم تكد تتوارى عن الأبصار حتى
ذهبت إلى الفندق المقيم فيه باردالیان كي تدفع اليه الكتاب .
وكانت هذه الخادمة كسائر الخدمات ، تقضي معظم أوقاتها بالتجسس
والخيانة .

وقد لاحظت مراراً أن باردالیان يقف في نافذة غرفته ، ويطيل وقوفه
وهو ينظر إلى مكان واحد .

ما زالت تراقب حتى علمت انه يدعى الشفالييه دي باردالیان .

فلما ابتعدت المركبة ذهبت تواً إلى الفندق ، وطلبت إلى صاحبه أن يأذن
لها بمقابلة باردالیان .

فابتسم صاحب الفندق ابتسام الساخر وقال : ألم تعلمي ما حدث لهذا
الرجل الجسور .

– كلا ، فماذا حدث له ؟

– عجباً كيف لا تعلمين والناس لا يتحدثون إلا بأمره منذ الفجر .

– ولكن قل لي بالله ماذا حدث فاني لا أعلم شيئاً .

– حدث أن هذا الرجل الهائل قد قبض عليه ، فيجازى بما يستحق
من العقاب ، فلا يحاول بعد ذلك القاء الناس من النوافذ .

— وأية جريمة ارتكبها ؟

— يظهر انه من المتآمرين مع الهوكينوت .

فاضطربت الخادمة وخشيت أن يشركوها بالتهمة ، فعادت إلى الـ
فاخرجت الكتاب من جيبها وخبأته في مكان خفي ، وهي تقول في نفسها
لقد اتضح الأمر ولم يبق للريب مجال ، فان هذه المرأة وابنتها متفرکتان في
المؤامرة مع باردالیان ، فإذا علموا بأمر هذا الكتاب اتهموني بمعاونتهم دون
ريب ، ومعاذ الله ان أكون عدوة الدين والملك .

* * *

بينما كانت هـذه الحوادث تجري في شارع سانت فاليس ، كانت مركبة
الأسيرتين تسير مسرعة إلى قصر مسيو ، أي قصر هنري دي موفورانسي الذي
كان يقيم فيه في باريس .

وقد تقدم لنا القول أن هذا القصر كان يشبه الحصون .

فلما وقفت المركبة عنـد بابه ودخل القائد بحنة وابنتها اليه لم تشك في انه
سجن لوقوف الجنود عند ذلك الباب .

وأما القائد فانه صعد بهما حتى انتهى إلى غرفة في الدور الثاني ، فوقف
عندها وقال لهما : تفضلا بالدخول يا سيدتي فان مهمتي قد انتهت ، وأرجو أن
لا تكونا حاقدتين علي ، فاني لم أسيء اليكما من عند نفسي .

فاحنت حنة رأسها قليلا وفتحت باب الغرفة ودخلت اليها مع ابنتها ،
فاقفل الباب في اثرهما للحال من الخارج .

وعند ذلك ايقنتا انهما اسيرتان ، ولكنهما ايقنتا ايضاً انهما ليستا في سجن ،
فقد وجدتا تلك الغرفة التي دخلتا اليها مفروشة بخير الرياش ، وقد افرشت
البسط في أرضها ، وتزينت جدرانها بالصور كغرف القصور الكبيرة .

ثم وجدتا فيها باباً مفتوحاً يشرف على غرفتين للنوم ، ولكل منهما نوافذ

تطل على رواق القصر ، فدنت حنة من احداها وأطلت منها ، فرأت جنديين
يسيران ذهاباً وإياباً وسيفاهما مجردان بيديهما .

فرت اضطراب حنة حين رأت نفسها أسيرة مـع ابنتها في منزل
جيل ، وأطالت التفكير كي تعلم المراد من هذا الأسر ، فما اهتدت إلى
حل هذا اللغز .

ثم عادت مع بنتهـا إلى الغرفة الأولى ، فرأت لويزا على مائدة رسالة
مفتوحة ، فنبهت اليها أمها فأخذتها وقرأت ما يأتي :

« ترجو الأسيرتين أن لا تخشيا مكروهاً ، وإذا احتاجتا إلى شيء مهما كان
ذلك الشيء ، فلتقرعـا الجرس الكائن على المائـدة بجانب الرسالة ، تحضر في
الحال خادمة أعدت لخدمتهما » .

وعلمت الخادمة تعد لهما الطعام والأرجح أن هذا الأسر لا يطول أكثر من
بضعة أيام » .

فالتفتت الأم وقالت : إني أؤثر الف مرة لو كنا في سجن الحكومة على أن
نكون في هذا المكان .

— ماذا تعنين بذلك يا أماه ، فإني أرى كل شيء معد لراحتنا .

فهزت حنة رأسها وقالت : اصبر فستنجلي لنا هـذه الغوامض . وفي
انتظار ذلك أريد أن أروي لك أمراً خطيراً .

فجلست الفتاة بجانب أمها وقالت لها : إني مصغية اليك يا أماه .

— اعلمي يا ابنتي أن ما سأقصه عليك متعلق بهذا الفتى الذي يحبك فهل
تحبينه حقيقة يا لويزا ؟

فاطرقت لويزا برأسها دون أن تجيب .

وتوقفت حنة عن الكلام هنيهة ، كأنها تتردد في القول ثم نظرت إلى ابنتها
فجأة وقالت لها : لقد عرفنا الآن اسم هذا الفتى

فأجابتها لويزا : نعم فقد قالت الخادمة انه يدعى الشفالييه دي باردالیان

ولكني أرى من لهجتك عند ذكر اسمه يا أماه ، أن هذا الاسم عزيز لديك ، وانه قد سبب لك حزناً لا اعرفه . فقد لفظت الخادمة اسمه أمامك ، ذعرت وحاولت استرجاع الرسالة منها ، فقلبت المركبة حالت دون قصدك إذ اسرعت في المسير . .

أواه يا أماه اني اضطرب وقلبي يحدثني باني سأسمع أموراً هائلة .

— هو ذاك يا ابنتي فما اخطأ حديث قلبك .

— إذاً تكلمي ولا تكتمي عني أمراً .

— نعم نعم لا بد لي من الكلام لانقاذك

— لقد زدتني رعباً على رعب ، فهل أنا في خطر ؟

اصغي إلي يا لويزا ، انك حين ولدت كانت أمك قد ذاقت من الدهر ما لم يلقه انسان ، ولولاك لكان قتلني اليأس فاني ما رضيت الحياة بعد ما لقيت إلا من أجلك .

نعم اني كنت أحبك في ذلك العهد كما أحبك الآن ، أي اني أحبك أكثر مما أحب نفسي وأكثر مما أحبه .

— من هو يا أماه ؟

— زوجي وأبوك .

— انك إلى الآن تأبين ان تذكري لي اسم أبي .

— ولكنك ستعرفينه الآن فقد آن الأوان ... فاعلمي ان أباك يدعى ...

— ما بالك توقفت يا أماه .. قولي ماذا كان يدعى .

— انه يدعى فرنسوا دي مونمورانسي .

فصاحت لويزا صيحة دهش ليس لأنها أكبرت أن تكون ان هذا الرجل العظيم ، وهي تعتقد انها ابنة رجل فقير ، ولكنها ذكرت أن أمها طالما قالت لها ان كل نكبتها من رجلين ، وان أحدهما يدعى هنري

دي مونمورانسي .

وأين الشؤم يا أماه في هذه البشارة ؟

— الشؤم هو ان هذا الرجل الهائل اختطفك من غرفتي بواسطة رجل شقي من عماله وهو وحش مفترس كما كان يلقبه هنري نفسه .

وبعد ان أخبرتني بعودة أبيك وانه اختطفك قال لي اني إذا كذبته بكلمة أو بقولة أمام أبيك عني يشير إشارة إلى ذاك الرجل الذي كان يراه من النافذة فيخنقك .

— رباه ماذا أسمع ان هذا هائل عظيم .

نعم وهو هول لا يخطر في بال إنسان . فتصوري ما كان من أمري حين وقف هذا الخائن الذميم يتهمني أمام أخيه بالغواية والخلاعة والعبث بالحقوق الزوجية ، فإذا رأى مني إني أحاول تكذيبه تهددني بتلك الاشارة إلى ذاك الشبح الذي كان يحملك بين يديه ، فأخاف عليك الموت ، وأرضى الفضيحة مكرهة ذليلة .

فأكبت لويزا على صدر أمها تعانقها باكية وتقول : أماه أفعلت كل ذاك من أجلي أماه كم كان عذابك شديداً .

فابتسمت تلك الأم ابتسامة دلت على مبلغ حزنها وصبرها ثم عادت الحديث فقالت :

— لقد علمت الآن السبب في ما طالما قلته لك وهو انه يوجد رجل يحب أن تبغضيه وان تهربي منه كما يهرب الجبان من الموت ... إن هذا الرجل هو عمك هنري دي مونمورانسي .

— لقد ذكرت لي رجلين يا أماه ، فمن هو الرجل الآخر ؟

— أتريدين به الرجل الذي اختطفك ؟

— نعم ..

— تشجعي يا ابنتي ، لأن هذا الوحش الكاسر كان يدعى الشفالييه دي باردالیان .

فاصفر وجه لويزا حتى بات كوجوه الأموات ، وسالت دمعتان من عينيها الذابلتين ثم قالت بصوت خافت : أهو والد الذي أحبه ؟

فأخذت حنة يد ابنتها بين يديها وقالت لها بملء العطف والحنو :

— نعم يا ابنتي ، لقد كتب لي ولك في لوح المقدور ان تكوني شقية في الحب .. لأن رجلا شريفا كريما أنقذك من ذلك المفترس وردك إلي وهو الذي أخبرني ان الذي اختطفك يدعى باردالیان .

نعم انه والد الذي تحبينه ، لقد علمت انه كان لهذا الرجل غلام وقد شب الغلام ووضعته الأقدار في سبيلك كما وضعت أباه في سبيلي .

ولم تفه لويزا بكلمة ، ولكن الشقاء كان يعض قلبها ، فقد كانت تحب الشفالييه دي باردالیان ، ذاك الفتى الباسل الجميل الذي تقول أمها عنه انه رسول شقاء .

وقد خشيت ان تكون أمها صادقة في حديث قلبها ، وان يكون الأمر الآن درج على مبادىء الأب .

ومما زاد في أسفها انها جعلت تسائل نفسها فتقول : إني قد استغثت به

وقد رأت إشارتي وسمع صوتي فإذا كان شريف القلب صادق الحب فلماذا لم يبادر إلى مجدتي .

ولماذا كان واقفاً قبل الفجر في نافذته على غير عادته وفي نفس الساعة التي كانوا يقضون فيها علينا .

ولماذا كان ينظر إلي هذه النظرات منذ عهد بعيد .

إذاً لم يبق شك ان هذه النظرات كانت نظرات مراقبة لا نظرات غرام وان هذا الفتى الذي توهمت انه يهواني لم يكن غير جاسوس ذلك الرجل الذي قبض علينا .

ويحه .. فمن عسى أن يكون هذا الرجل السري ، الذي قبض علينا .

وهنا جمد الدم في عروقها وانقطعت عن متناجاة نفسها فنظرت الى امها وقالت : أماه إن قلبي يكاد ينفطر .

فأجابتها تلك الأم المنكودة وقد أدركت حقيقة شقائها : لا تقنطي يا ابنتي لانك قد اجتنبت بهذا شقاء أشد وويلا أعظم .

— ولكني لا أفتكر بنفسي يا أماه .

— فيم تفتكرين إذاً ، أبه ؟

— كلا ... بل بذلك الرجل الذي اختطفنا ، لاني أخشى أن يكون ...

فقاطعتها أمها كأنها خشيت ان تذكر اسم ذلك الرجل الذي تخشاه ، وقالت لها : اسكتي .

ثم ضمتها إلى صدرها وجعلت تقبلها والدموع تذرف من عينيها .

وفيما هما متعانقتان تبكيان ، فتح الباب فجأة ، فصاحت حنة صيحة رعب ، واصفر وجهها ، وتراخت يداها ، وقالت بصوت متقطع خافت : هذا هو !

وعندها دخل الى الغرفة رجل وضع يديه على صدره ومشى الى سرير جريح
السكينة وهو يبتسم .

أما هذا الرجل فقد كان هنري دي مونمورانسي .

- ٢١ -

الجاسوسة

ذكرنا عرضاً شخصاً من أشخاص هذه الرواية، ثم مضت على ذكره الفصول
دون ان نشير اليه .

ونريد به اليس دى ليكس تلك الفتاة التي كانت مع ملكة النافار حين
أنقذها باردالليان من ثوار باريس يوم حادثة الجسر .

ولقد عرف القراء كيف ان هذه الفتاة ذهبت مع مولاتها ملكة النافار إلى
الجوهري الذى باعته مجوهراتها وكيف انها ركبت وإياها بعد ذلك المركبة التي
كانت واقفة في انتظارها قرب سانت جرمين .

أما المركبة فانها سارت بهما فمرت بقمة مونمارتر واجتازت النهر الصغير
المتسرب في الضواحي وذهبت تواً إلى سانت جرمين في المكان الذي عقد فيه
الصلح بين الكاثوليك والهوكينوت .

وهو صلح لم يكن في حقيقته غير هدنة، لأن كلا الفريقين كان يتأمل اليوم
عصيب يقضي على واحد منهما القضاء المبرم .

ولا بأس هنا ان نذكر كلمة موجزة عن هذا الخصام التاريخي بين الفريقين

قبيل التفكهة والفائدة فنقول :

عقد الصلح كما قدمنا لكنه كان صلح كذب ومواربة تذرع به كل من الفريقين
الى التأهب كي تكون نكايته بعدوه أشد .

فكان الكهنة في الكنائس يحثون المؤمنين على المذبحة علناً غير هيابين
ولا وجلين .

وكان الملك شارل التاسع منع الناس من التقلد بالسلاح ، ما خلا الجيش
وفريق النبلاء .

وقد اتفق مرة انهم أحرقوا منزلاً بمن فيه لتوهمهم ان الهوكينوت يعقدون
فيه الجمعيات السرية .

ومن غرائب الجهل في ذاك العهد ان هذا الخلاف الذي ذبح فيه الألوف من
الناس ، كان منحصراً في ان حزب المصلحين ، كما يدعون أنفسهم ، كانوا
يرضون الصلاة باللغة الفرنسية وحزب الكاثوليك لا يريدون التقرب إلى الله إلا
باللغة اللاتينية .

فلما نشبت بين الفريقين تلك المعركة المعروفة بمعركة « مونكونتور » أبلغوا
الملكة كاترين ، والحرب لا تزال ناشبة ، ان النصر قد استتب للهوكينوت ،
فقالت بملء البساطة :

« إذاً سنتلو الصلاة باللغة الفرنسية »

ثم لما علمت ان النصر قد تأيد للكاثوليك قالت :

« الحمد لله إننا لا نسبحه إلا باللاتينية » .

ومن نوادر التعصب في ذلك العهد ، أنه حدث بعد التوقيع على
شروط الصلح بثمانية أيام ، أن أحد الباريسيين إختصم مع باريسي ،
كاثوليكي مثله .

وكان الرجل لئيماً حقوداً ، فلم يجد لأذية خصمه غير ان يتهمه أنه من
الهوكينوت .

وحدة قاضيه
مقتدى الياس

فلما سمع الباريسيون كلامه ، انقضوا على هذا الكونت الكونت الكواسر ومزقوه شر تمزيق ، وحاول اثنان ان يتصرا له فأصابها ما أصابه من الموت .

وكانوا قد وضعوا في كل عطفة شارع تمثالاً للعذراء .

وكان يقف تحت كل تمثال نحو عشرين رجلاً من أجلاب العوم مسلحين بالسلاح .

واذ قدر تكد الطالع لأحد الناس ان يمر بهذا التمثال دون ان يركع احتراماً له قطعوه اربا بسيوفهم .

وهي حقيقة ثابتة يؤيدها التاريخ ، فقد جاء فيه أنهم قتلوا على هذه الطريقة خمسين بريئاً في مدة شهرين .

ثم تطرف أولئك اللصوص ، بما وجدوه من مراحي الكونت ، فوضعوا صندوقاً تحت كل تمثال ، وحتموا على كل من يمر به أن يضع في هذا الصندوق شيئاً من المال ، والويل لمن كان يمتنع عن دفع هذه الضريبة .

* * *

ولنعد الآن الى سياق قصتنا فنقول :

قلنا ان ملكة النافار ذهبت في المركبة مع وصيفتها اليس ، إلى سانت جرمين .

وهناك دخلت الملكة معها إلى منزل ، ووجدت فيه ثلاثة رجال ينتظرونها فيه .

فنادت واحداً منهم قائلة : تعال يا كونت دى ماريلياك

وكان هذا الرجل الذي نادته فتى في الخامسة والعشرين من عمره قوي

البنية ولكن هيأته تدل على الكآبة .

فانحنى أمام الملكة وتبعها إلى غرفة دخلت اليها .

فلما اختليا ، قال لها الشاب : لماذا دعوتني يا سيدتي بلقب كونت ، وبهذا الاسم .

فنظرت اليه الملكة نظرة تدل على استحكام السوداء منها ، وقالت له :

— أليس هو اسمك الذي دعوتك به ... أما منحتك لقب كونت ودعوتك بهذا الاسم ؟

فهز الشاب رأسه وقال :

— إني مدين لك يا سيدتي بحياتي وثروتي واسمي وقد طوقت عنقي بجميل لا ينزعه غير الموت . ولكني أدعى ديودات وان جميع الألقاب التي تتفضل بها على ملكتي لا تغير اسمي .. وكل ما تضعه علي من الحجب والبراقع لا يخفي شقاء مولدي .

أيتها الملكة العظيمة ألا ترين ان جلالتك وحدك تدعونني باسم الكونت دى ماريلياك وان جميع النـــاس يدعونني الولد اللقيط ، إلا من تلطف منهم فيدعوني ديودات .

فأجابته الملكة بلهجة حنان :

كفى يا ولدي فأنت تكاد تبلغ حد القنوط ، واطرد هذه التصورات من مخيلتك لانها تفضي بك الى ما لا تحمد عقباه .

لقد رأيتك مخلص شريف وقد خطت لك الأيام أفضل ما يكتب في صحيفة المستقبل ، فكن بحيث وضعك حسامك وعقلك ولا تتمادى في حلبة الأوهام ، فذاك خير لك وأبقى .

فأجاب بصوت أجش : كلا لو أرادت الأيام ان تبسم لي لما أوقفني الاتفاق على سر مولدي ولما علمت اني ابن تلك الحية الرقطاء والدامية الدهماء التي لا يلذ

لها غير شرب الدماء . . تلك الملكة التي يدعونها كاترين دي مديسيس وهي بكل الفضيلة وعار النساء .

ولم يكد يلفظ اسم الملكة حتى سمع صوت في الغرفة المجاورة فكان صوت اندهاش ممتزج برعب .

ولكن الملكة وديودات لم يسمعا هذا الصوت ، فأجابت الملكة ديودات قائلة :

— مهما يكن يا بني من الأمر ، فقد وجب عليك أن تحتفظ بهذا السر الهائل .

وأنت تعلم مقدار حبي إياك ، اقد ربيتك كما ربيت ولدي ، فنشأت وإياه نشأة واحدة ، وتلقيتما العلوم من معلم واحد ، وكنتما صغيرين متلازمين متحدين في كل أمر . . . فابق كما كنت من قبل ولدي بالتبني لان قلب الأم يتسع لاثنين .

فانحنى ديودات وقبل يد الملكة باحترام ، فقالت له :

— والآن إصغ إلي . . اني محتاجة في باريس الى رجل صادق مخلص وفي ، أعتمد عليه في مهماتي كما أعتمد على ولدي

— أنا ذلك الرجل يا ملكتي ، ولن تجدي أصدق منه إخلاصاً .

فأخفت الملكة ظواهر حنوهـا وقالت له : لقد كنت أتوقع منك هذا الجواب ، ولكن يجب ان تعلم ان الأمر خطير وانك معرض لمهماتك للأخطار فيه .

— إن حياتي لك ، وقد عرضتهـا مراراً للأخطار في سبيل ذلك الذي يدعوني أخاه الأكبر ، أي ولدك يا سيدتي ، فكيف لا أجود بها من أجلك .

ربما اقتصر الأمر على الحياة ، ولكني أخشى ان يطرأ من الحوادث ما يدعوك الى تضحية قلبك ، فأنا لا أسألك أن تكون باسلاً ، بل أريد أن

تكون متناهياً في الإخلاص .

مهما كانت تلك الحوادث فلا أنسى اني مدين لك بالحيـاة وإني اذا لم أكن سعيداً شقياً معدماً كما كان ينبغي ان أكون فما ذلك الا من فضلك ، فمري يا سيدتي بما تشائين .

— إذاً اصغ الي يا ولدي العزيز .

وعندها جعلت تكلمه بصوت منخفض يشبه الهمس ، على ثقتها انه ليس من يتجسسها .

دامت المحادثة بينهما ساعة حتى اذا فرغت الملكة من القاء أوامرها انحنى ديودات وحاول تقبيل يدها .

ولكن الملكة جذبته اليها فقبلت جبينه وقالت له : اذهب يا ولدي العزيز وليبارك الله أعمالك .

فانصرف ديودات وذهب الى القاعة التي دخلت اليها الملكة حين قدومها ، فلم يجد فيها غير الرجلين اللذين كان معهما .

فنظر نظرة سريعة الى ما حواليه ، كأنه يبحث عن غيرهما ، فلم يجد من كان يبحث عنه ، ونزل الى الشارع وامتطى جواداً وذهب في طريق باريس .

وقد أطلق لجواده العنان يسير كما يشاء وهو يلتفت من حين الى حين الى البرج كأنه يأسف لفراقه .

وما زال يسير حتى وصـل الى فندق ، فترجل عن جواده ، وطرق باب ذلك الفندق ، وبات فيه تلك الليلة لان أبواب باريس كانت مقفلة في الليل ولا تفتح الا في الصباح . ولكنه بات بليلة الملسوع لكثرة تفكيره وهواجسه

* * *

وحده قاضيه
منتدى ليلاس

ولنعد الآن الى ملكة النافار فانها بعد انصراف [illegible] بقيت في الغرفة مطرقة مفكرة .

ثم هبت من سبات تصوراتها فقرعت جرساً وصبرت قليلا ثم رجعها أصغت الى قرع الجرس .

وعند ذلك فتح الباب ، ودخلت منه اليس وصيفتها ، فقالت لها

— لقد قلت لك يا اليس ، بعد ان سلمنا وأمنا الخطر انك أخطأت بجعل مركبتنا تمر فوق الجسر ، وأخطأت برفع سقف المركبة ، وأخطأت بذكر اسمي أمام تلك الجماهير المحدقة بالمركبة ، وأنت تعلمين أنهم أعدائي .

— لقد أصبت يا سيدتي ولكني أوضحت لجلالتك ...

فقاطعتها الملكة قائلة :

— اني قلت لك في تلك الساعة « أخطأت » وكنت منخدعة في هذا التعبير بل كنت أوهمك اني منخدعة لأني لو قلت لك حقيقة ما أعتقده في تلك الساعة لعرضت نفسي لبوادر أخرى تبدر منك قد تكون القاضية علي في ذاك الوقت الرهيب .

فاصفر وجه اليس وقالت : اني لا أفهم يا سيدتي ما تعنين ؟

— ولكنك ستفهمين مرادي ، إعلمي الآن يا اليس انك حين حثت إلى بلاط النافار قلت لي إنك هاربة من فرنسا خائفة من انتقام الملكة كاترين لاعتناقك مذهب الهوكينوت

وكان ذاك منذ ثمانية أشهر فتلقيتك بالرضى كما أتلقى جميع الملتحقين بي

في هذه الشؤون .

وقد رأيت انك كريمة النسب فجعلتك من نساء الشرف في بلاطي ، وأنا الآن إياك وأريد ان تجيبي بجلاء ... هل حدث لك في بلاطي مدة إقامتك فيه ما يدعو إلى الشكوى ؟

— كلا بل ان سيدتي قد غمرتني بإحسانها وحيث ان جلالتك قد تدانت إلى أسأل جلالتك العفو ، لقد كنت بعيدة عن غرفتك ، فلم أسمع سؤالي فالتمس منها ان تأذن لي بسؤال القيه ، هل فعلت أنا خلال الثمانية أشهر ما يوجب سخطها علي ؟

ألم أقم في جميع هذه المدة بكل ما فرض علي من الواجبات في خدمة جلالتك خير قيام ؟

ثم يلقبونني « النافارية الحسناء » فهل بدرت مني على هذا الجمال بادرة ، وهل أغريت احد أبطالكم فأشغلته عن الاهتمام بالحرب ؟

وأخيراً هل ظهر مني منذ اعتنقت مذهبكم ما يدل على عدم الاحتفاء بامر هذا المذهب ؟

فأجابتها الملكة بلهجة خطيرة أضعفت همة الفتاة وقالت :

— لا أنكر انك أظهرت من الغيرة على المذهب والتشيع له ما لم يظهره سواك من المتمكنين . . ولا أنكر أنك نهجت أشرف المناهج مع رجال البلاط ...

ولا أنكر انك أقمت بواجب خدمتي حق القيام بل أزيد على ذاك انك كنت تلازمينني وتأتين إلي في غير حين حاجتي اليك بحيث كنت دائماً بقربي لترى كل شيء وتسمعي كل ما يقال .

وقد كانت الشكية ظاهرة جلية ، فاضطربت اليس اضطراب ورق الخريف وقالت

— إني أخاف ان أفهم .

فنظرت اليها الملكة نظرة إشفاق ، وقالت : ولكن يجب مع ذاك أن تفهمي .

إن الشك بك لم يخامرني إلا منذ أسبوعين . وكنت أود ان
من خجل العار لأني أحبك ولكن لا بد لي من إبعادك لأني
من خيانتك .

— أتطردني جلالة الملكة ؟

فأجابتها بملء البساطة : نعم .

وساد السكوت هنيهة كانت اليس في خلاله واقفة وقلبها يخفق بين ضلوعها
ما حواليها نظراً قلقاً مضطرباً لا يستقر على شيء .

ثم تنهدت تنهداً طويلا وقالت : إن جلالتك منخدعة . وأني بريئة
النعيمة دون شك .

وقد كانت ملكة النافار متأثرة من اضطراب وصيفتها فوق تأثر تلك
الوصيفة من طردها لأن النفوس الكبيرة لا تطيق احتمال الخيانة وتشفق على
ضعف الانسان .

وقد نفرت من خيانة اليس ، واستعظمت ان تخونها بعد طول إحسانها
اليها . ولكنها أشفقت ان تراها في هـذا الموقف الحرج ، تجمع كل قواها
العقلية في التماس برهان يؤيد براءتها ، كما يخبط الطير بأجنحته للافلات من
يد القناص .

فنظرت اليها نظر المشفق وقالت لها : إصغ إلي يا اليس

لقد كان يجب علي ان أدفعك الى قضاتنا كي يثبتوا خيانتك ويعاقبوك
بما تقضي به القوانين ، ولكني أشفق عليك وأكتفي بإرجاعك الى الملكة
كاترين .

— إن جلالتك منخدعة . . إني بريئة

فهزت الملكة رأسها وقالت : ألا تذكرين ذلك اليوم الذي دخلت إلي
غرفتك فجأة وأنت تكتبين ، فلماذا القيت ما تكتبينه في النار حين دخولي
وعرضت نفسك للظنون

ليس بالاضطراب الشديد وقالت : أرى انه لا بد لي من أن
تظاهرت لجلالتك بالحقيقة ... إني أحب يا سيدتي ... وقد كنت أكتب الى
حبي أحب
— هذا الذي اعتقدته في ذاك اليوم وهذا الذي دعاني الى السكوت
لكن أحد رجالي رآك في ذاك اليوم تتحدثين مع رجل يحمل البريد إلى
باريس ، ثم ذهب الرجل مسرعاً الى باريس ولم يعد ، فلماذا ؟
— إني عهدت اليه بمهمات الى بعض الأصدقاء في باريس ، أيكون الذنب
في ذلك يا ترى بعد ؟ وبعد : فمن يعلم ، إنه قد يكون قتل في الطريق .
— وعندما اجتمع قواد جيوشنا للمداولة فلماذا كنت يا اليس مقيمة في تلك
الغرفة المشرفة على قاعة المداولة ؟
— ان هؤلاء القواد باغتوني بالدخول الى القاعة وانا في الغرفة ، فلم أستطع
الخروج منها .
— حسناً ، إنك تدافعين عن نفسك بالبراهين المختلفة ، وقد أقنعتني
براءتك .. ولكني ، كما قلت لك ، بدأت أرتاب بك منذ أسبوعين
بريبة شديدة .
— ولماذا يا سيدتي ، لماذا ؟
— لقد بدأ شكي بك منذ إلحاحك علي بمرافقتي الى باريس وكان جميع رجالي
يشكون بوفائك ويرسلون إلي التقارير الكثيرة عنك فأردت أن أعرض حياتي
للخطر إثباتاً لبراءتك .
— وأنت ترين يا سيدتي اني بريئة ، لأنك لا تزالين في قيد الحياة .
— لولا هذا البطل الذي أنقذني لبلغ أعدائي مني ما يريدون .. اليس إنك
كنت متفقة مع الذين كانوا يريدون قتلي ؟
— معاذ الله يا سيدتي أن أفعل .
اليس دي ليكس — إنك أنت التي أردت ان تمر المركبة فوق الجسر ،

وأنت التي كشفت السجف كي يروني ، وانت التي ذكرت اسمي كي يسـ
أعدائي ، وأنت التي حاول أحد أولئك القتلة ان يحطبك رسالة
انقلبت المركبة ، فلم تنتبهي الى الرسالة لاضطرابك ولكني كنت أول الناظر
منك فالتقطتها وهذه هي

ثم دفعت اليها تلك الرسالة مطوية .

فركعت اليس وقد شعرت ان الأرض تميد بها لما اعتراها من الخجل وسلبها
الكلام فلم تستطع .

فقالت لها الملكة : خذي الرسالة إنها لك .

فأخذتها الجاسوسة دون ان تجسر على النظر الى الملكة .

فقالت لها : أأمرك ان تقرأيها لانها واردة اليك من أسيادك

فقرأت اليس بصوت يتلجلج ما يأتي :

« إذا نجحت المهمة فاحضري غداً صباحـاً الى اللوفر ، واذا لم تنجح
فالتمسي إجازة بعذر من الأعذار واحضري الى اللوفر بعد ثمانية أيام لان الملكة
تريد ان تراك »

وكانت الرسالة خالية من التوقيع .

فأنت اليس بعد قراءتها أنين الموجع ثم عادت الى الاطراق دون ان تتبس
بكلمة او تجسر على النظر الى الملكة .

أما الملكة فانها أشارت بيدها الى الباب وقالت لها : إذهبي !

فنهضت الجاسوسة ومشت الى الباب وهي تتعـثر بأذيالها ، ففتحت
الباب بيد تضطرب . وما كادت تخرج منه حتى جعلت تركض كالمجانين وهي
لا تعلم أين تسير .

أما الملكة فانها عادت الى الغرفة التي كان يقيم فيها الرجلان وقالت لهما
هلموا بنا فانتما مسافرون .

وذهبت وإياهم فنظرت الى ما حواليها قبل ان تركب المركبة كأنها تبحث

عن اليس لتعلم في أية وجهة ذهبت .

وأما اليس فإنها خرجت من المنزل ومشت وهي لا تعلم أين تسير .

ثم وقفت مضطربة حائرة وجعلت تحدث نفسها فتقول :

إلى أين أذهب ؟.. وأين أختبىء ؟.. وماذا يحيق بي متى عرف
بما جرى ؟..
رباه !.. ماذا أصنع ؟.. أأذهب الى باريس ؟.. أأسير الى الملكة كاترين
الخائنة ؟..
كلا .. كلا .. رباه ماذا صنعت ؟.. وأي إثم اردت ارتكابه فقد حاولت
قتل ملكة النافار .

اني أرى الأرض تميد بي من الخجل والعار ، وأي إثم أفظع من هذه الجريمة ..
ان الظلام مدلهم الآن فلا يراني أحد ..
ولكن النهار على وشك الطلوع ، ومن يراني ولا يقرأ بين عيني ما كتب
من العار .

ثم جلست على حجر ، وحملت رأسها بين يديها ، وتاهت في مهامه
التفكير .

كانت هذه الفتاة من أبدع ما تراه العيون جمالاً ، ولكن من رآها في هذه
الساعة وقد جحظت عيناها واصفرت وجنتاها ينكر فيها ذاك الجمال الفضاح
الذي كانت تضرب به الأمثال في بلاد النافار .

وقد جلست على الحجر وجعلت تقول : مـــاذا أصنع ؟.. أأهرب من
الملكة كاترين ؟..

هيهات لنفسي وأين أختبىء منها الا في ظلمة القبر ... ولكني يعز علي الموت
فلا أزال في نضارة العمر .. كلا .. لا أريد الموت .. فسيري أيتها الشقية الى
أقصى ما رسمته لك الخيانة من المهاوي .. اذهبي أيتها الجاسوسة السافلة الى
تلك الملكة الهائلة فانها تنتظر قدومك .

وهكذا كانت هذه المنكودة تؤنب نفسها وهي لا تدري ما تصنع في موقفها الحرج

على اننا قد نكون تسرعنا في الاشفاق عليها فستظهر لنا حوادث هذه الرواية حقيقة حالة هذه الصبية فيحكم عليها القراء بما يرون

وبعد ان استقر رأيها على الذهاب الى الملكة وقفت وجعلت تسير مشية في طريق باريس كأنما قوة خفية تجذبها اليها .

وهي تسير مسرعة ، كأنها تريد الإسراع بالبعد عن ملكة الشاطر فرارا من الخجل .

وكانت المسافة بينها وبين باريس ساعة ، وأبواب العاصمة مقفلة في الليل . فجعلت تسير بين الأشجار وهي خائفة وجلة حتى انتهت الى منزل كان ينبعث منه النور فأسرعت اليه وقد وهت رجلاها من السير .

حتى اذا وصلت اليه علمت انه فندق للمسافرين فدخلته وأسناها تصطلي من البرد ، فدخل بها صاحبه في البدء الى محل الاستدفاء ، وذهب ليعد لها غرفة لمبيتها .

فلما دخلت اليس رأت رجلا جالساً في ذاك المكان يستدفيء بناره وظهره الى الباب .

وخرج بارق من النار أضاء المكان لحظة ، فعرفت الرجل ، وصاحت صيحة دهش .

الفنـدق

كان هذا الرجل ديودات وقد سمع صيحة الفتاة فالتفت فرأى أليس دي ليكس واقفة في تلك الغرفة تنظر اليه .

فاصفر وجهه ، ووثب من مكانه وثباً فسار اليها وأخذ يدها بين يديه وهو يقول :

من أرى ؟ أليس . كيف أتيت وما هذا الاتفاق السعيد فقد رأيتك وأنا أفكر بك وقلبي يكاد ينفطر لفراقنا الطويل ..

إذاً ، لست شقياً إلى الحد الذي كنت أتصوره ولا يزال للمسافة رفق بي إذ قد رأيتك .

وقد أخذ بيدها وسار بها إلى حيث كان جالساً عند المستوقد وقال لها :

أدني من النار يا أليس . ماذا أرى ، أهذا أنت ؟ اني أكاد أكذب عيني . ما هذا الاصفرار ؟

فقالت أليس في نفسها ويلاه ماذا اجيبه ؟

فتأمل ديودات لسكوتها وقال لها :

ماذا اصابك يا أليس وما هذا السكوت ؟

ثم نحب أيضا .

وكان كل من الاثنين يحب الآخر حبا مبرحا صادقا فذعر ديودات لما رآه من

اضطرابها فأخذ يدها بين يديه وقال :

أليس ، لماذا لا تجيبين ؟

فاغمضت الفتاة عينيها وقالت في نفسها : رباه ما أشد وبال هذه الساعة اني اؤثر الموت الف مرة على أن أقول الحقيقة وأعرض نفسي لاحتقاره .

أما ديودات فقد انقلبت دهشته إلى رعب فقال لها بصوت حنون .

اراك مريضة أيتها الحبيبة ، وسأعود بك إلى ملكة النافار ، فانها لم تسافر بعد .

فاهتزت اهتزازاً عنيفاً ولكنها أيضاً لم تجب .

فقال لها يا ملاكي المحبوب ويا كل ما ارجوه في هذه الحيـــاة اني لا أجد لساناً يفصح عن امتناني لما اراه من اخلاصك وصدق حبك وكفى دليلاً على طهارة قلبك وصدق غرامك انك ما أطقت فراقي فسافرت ساعة سفري ، وانعمت علي بهذا اللقاء بل بهذا النعيم .

ولكن أمر قدومك إلي يجب أن يبقى مكتوماً ، إذ لم تحن الساعة بعد لإظهار غرامنا .

تدفأي أيتها الحبيبة وسنعود بعد ساعة إلى سانت جرمين فاعترف للملكة النافار بغرامنا وأعود إلى السفر فتنتظرين عودتي آمنة مطمئنة .

وعند ذلك عولت أليس على الكلام إذ وجدت ما تقوله فنظرت إلى حبيبها وقالت له بصوت مضطرب : أن الملكة سافرت .

فذهل ديودات وقال : سافرت ؟

قالت نعم ، منذ ساعة وقـــد اغتنمت فرصة صعود الملكة إلى المركبة وهربت .. وسمعت صوتها يناديني ، فلم أجب ، فسارت المركبة بالملكة وجئت أنا اليك .

— لقد اخطأت خطأ عظيماً يا أليس فان هربك للحاق بي يدلني على صدق اخلاصك في حبي بل قد يزيدني غراماً بك إذا بقي في قلبي متسع للمزيد

أيتها الخطيبة الحبيبة ، ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من أمر خطبتنا وغرامنا فما عساها تفكر وما عساها تقول :

فنظرت أليس اليه نظرة ملؤها الحب وقالت له : لتقل ما تشاء فلا ابالي بما يقولون .

اني لم أطق احتمال فراقك الطويل .. ولما رأيتك ذاهباً في طريق باريس شعرت بقوة لا تغلب تدفعني إلى السير في أثرك .. فابقني معك أيها الحبيب ولا ترجعني من حيث أتيت .

وكانت أليس تقول هذا القول وهي تضطرب غير أن اضطرابها لم يكن اضطراب غرام ولا حياء أو أنس ، بـل كان لاندفاعها في الكذب مكرهة أمام من تحب .

غير أن ديودات لم يفهم من هـــذا الاضطراب غير معنى الغرام فهاجت عوامل الحب في قلبه الشريف ، واغرورقت عيناه بالدموع فركع أمام الفتاة وجعل يقبل يديها ويغسلها بدموعه ويقول :

أسألك العفو يا أليس ، فإنك أطهر مني قلباً وأعظم نفساً ، فلا أستحق أن أفوز بنعمة حبك .

نعم أيتها الحبيبة أنت لي وأنا لك بحملتي إلى الأبد ، ونحن كذلك منذ أول يوم رأيتك فيه .

أتذكرين يا أليس يوم جئت من باريس .. حين كنت وحيدة ، وقد قطعت مركبتك على الجبـال ، وتخلى عنـك المرشدون فجعلت تسيرين وحيدة وحيدة إلى أن لقيتك على شاطىء ذلك النهر الذي لم تستطيعي اجتيازه ؟

أتذكرين يا أليس كيف رويت لي حكايتك ، وكيف كنت أصغي اليك مفتوناً بذلك الحديث .

انا لبثنا ذلك اليوم حيناً طويلاً تحت شجرة الجوز إلى ان ظهر

الشفق ، فحملتك بين ذراعي واجتزت بك ذلك النهر ودخلت بك إلى
ملكة النافار .

وعند ذلك وقف بعد أن كان راكباً ، وقد انقدت عيناه بأشعة الحب
الخالص ، وبقيت الفتاة تنظر اليه باعجاب وافتتان ، وقد نسي كلا العاشقين
انهما مقيمان في فندق عام .

[redacted] فيها الناس في
[redacted] .

[redacted] أي امتزاج ، حتى لا تبرح ذكرى تلك الساعة أذهان العاشقين ولو كرت
عليهما الأدهار .

فقد كان يخـــال لها أن السماء قد فتحت أبوابها لتظهر لها كيف
يكون النعيم .

وقد بلغت تلك الجاسوسة من الجمال مبلغاً تقف عنده الأبصار حائرة ،
وهو جمال نادر فضاح يشبه جمـال ملائكة الشر ، كما كان يمثلها الأقدمون فلا
تزرع حيث تمر غير الشر ، ولا يحصد العالق باشراكها غير المصائب

ومع ذلك فقد كانت صادقة في غرامها مخلصة في حبها لابن الملكة كاترين ،
فلا يتسرع القارىء في الاشفاق عليها ، ولا يندفع في كرهها وليصبر إلى أن
يقف على كل أمرها ويعرفها حق العرفان .

وعاد ديودات إلى الحديث فقال :

منذ ذلك اليوم بدأ حبنا يا اليس ، واني لو عشت عشرين مرة في عشرين
وجود لما نسيت تلك الساعة التي حملتك فيها بين ذراعي .

نعم ان حبك نفذ إلى قلبي منذ تلك الساعة كما تنفذ أشعة الشمس إلى الآنية
فتملأه نوراً .

نعم اني كنت في ذلك العهد مظلم النفس تثور الهموم في قلبي ثورة العواصف

ريعك اليأس عناني فتظلم الدنيا في وجهي ، وتضيق بي على رحبها ، فجعلت
ظلامي ضياء ، ويأسي رجاء وشقائي سعادة وهناء .

اليس انك غبطتي ونعيمي في هذه الحياة ، فلنعش سعيدين ولننسى كل ما
في هذا الوجود .

[redacted] ، ثم أسندت رأسها
[redacted] وقالت :

أواه انك لو استطعت الثبات على ما تقول ، وقدرت على نسيان كل ما في
هذا الكون ، لما أعوزنا من أسباب السعادة شيء .

اصغ إلي أيها الحبيب ، فأنا أيضاً كنت مثلك حليفة اليأس ، فما ظهر لي
الرجاء إلا من بارق عينيك ، وكلانا أنقذ صاحبه من مهاوي الشقاء .

وأنت لي بجملتك وأنا لك بجملتي ، وكلانا لا يرى النعيم إلا بقرب حبيبه

فلنهرب أيها الحبيب ولنبرح فرنسا إلى بلاد ساكنة آمنة ندفن فيها شقاءنا
القديم ، ونحيي سعيدين بغرامنا الخالد .

قل ، أريد أيها الحبيب . سر بي إلى حيث تشاء أكن لك أتبع من ظلك
وأطوع من بنانك بشرط أن نكون بعيدين عن باريس وعن فرنسا

هلم بنا أيها الحبيب ولنهرب من هذه البلاد إلى حيث يطيب لك المسير ،
أكن لك زوجة بل أمة ، فإنك بذلك تنقذني من نفسي .

وكانت تلفظ هـــذه الكلمات بلسان يتلعثم ، وقد بدت عليها دلائل
الرعب ، فذعر ديودات لذعرها وقال لها : اليس . مـاذا أصابك وما
هذا الخوف ؟

قالت : أرضيت بالفرار أيهـا الحبيب ... هلم بنا ولنذهب قبـــل
طلوع النهار .

وكأنها خشيت أن يسيء الظن بها لما رآه من خوفها ولالحاحها عليه
بالفرار ، فبذلت جهداً عنيفاً بحيث أعادت اليهـا السكينة ، ونظرت إلى

ديودات فابتسمت له وقالت :

لا تتكلم علي تكرير لفظة الفرار ، فما أردت بهذا التعبير غير السفر ، أردت بالسفر واياك إلا الابتعاد عن هذه البلاد ، فلا يكون لك ما يشغلك عن ولا تضطر مكرهاً إلى فراقي حتى دون وداع كما اتفق لك هـــذه الليلة ، أكون بذلك نجوت من الأحزان .

– هو ذاك أيتها الحبيبة ، ولكنك شديدة الاضطراب .

– لقد زال اضطرابي وها انا الآن في اتم حالات السكون ، اعيد عليك ما قلته ، واسألك موافقتي على السفر .

هلم بنا إلى اسبانيا إذا اردت او إلى ايطاليا إذا احببت ، فان من كان باسلا مثلك لا يعدم ملكاً او اميراً يحتاج إلى سيفه .

فأجلسها ديودات على كرسي بجانبه ، واطرق هنيهة مفكراً ، ثم نظر اليها وقال :

اصغي إلي يا اليس فاني اقسم بك وبغرامك ، وهو اجل قسم عندي ، إني لو كنت مطلق الإرادة لأجبتك لفوري ، هلمي بنا إلى حيث تشائين ، فان كل بلد من بلاد الله احسبه فردوساً إذا كنت معي فيه .

– كيف ذلك : الست مطلق الارادة ؟

– بل انت كيف تسألينني هـذا السؤال ؟ الا تعلمين من امري مـا اعلم ؟ وسيأتي يوم اخبرك فيه بسر مولدي بجملته حتى اني سأخبرك باسم امي .

فارتعشت اليس لأنها كانت قد علمت هذا السر الذي يكتمه عنها ، بما سمعته من محادثته مـع ملكة النافار حين كانت مختبئة في الغرفة المجاورة كما تقدم .

ومضى ديودات في حديثه فقـــال : نعم سأخبرك بكل امري ، ولكن اعلمي الآن انه يوجد امرأة اضحي حياتي في سبيل افتدائها وهي ملكتنا اي ملكة النافار .

ان هذه الملكة كستني من عري واشبعتني من جوع ، وكفلتني فصيرتني رجلاً بعد ان كنت من اشقى الأشقياء ، فأنا مدين لها بحياتي وشرفي وهنائي .

فاذا عرفت ذلك فاعلمي ان هذه الملكة التي تناديني ولدها وادعوها امي حقاً ، وقد اقسمت لها ان انفذ اوامرها ، فاذا سافرت الآن فلا اكون قد فررت فقط فرار الجبناء ، بل اكون نذلاً خسيساً خائناً ، بل اكون أخس من اولئك الجواسيس الذين تستخدمهم الملكة كاترين في سبيـل اغراضها .

فهمت الآن السبب يا اليس ؟

فامتقع وجه الفتاة لعبارة عشيقها الأخيرة وقالت له بصوت خافت : نعم فهمت ولا سبيل إلى السفر .

دون ريب فان حياة الملكة معرضة للخطر إذا لم اذهب إلى باريس .

– هو ذاك فان الأخطار تتهددها ولا بد من نجدتها .

– وسأكون في خدمتها مـا حييت ، فلا تحسبي ان خلوصي في خدمة الملكة يؤثر في شيء على خلوصي في حبـــك ، فكلاكما ملاكي وكلاكما حارسي .

اما وقد سافرت الملكة فلم يبق بد من الذهاب معي إلى باريس ، وهناك تقيمين في منزل اعرفه فتكونين آمنة كل ريب .

– منزل من ؟

– منزل الاميرال كوليني .

هزت الفتاة رأسها ولم تجب .

فقال لها ديودات ، الا تحبين الاقامة في منزل الأميرال ؟

فأطبقت عينيها كأنما النعاس والتعب قـــد انهكاها فهي تطلب الرقاد ، والحقيقة انها كانت متعبة غير انها لم تكن تريد النوم كما تظاهرت بغية الراحة بل كانت تبغي الاختلاء كي ينطلق لها العنان في التفكير والتدبير ، واختلاق الكذبة جديدة تنقذها من موقفها الحرج الشديد .

فقالت له وهي مغمضة العينين : اني محتاجة الى النوم ، وانوه الم
قرب هذه النار فان تعبي شديد .

فأسرع ديودات فنـــادى صاحب الفندق وامره ان يحضر
وغطاء ، ففعل وناءت اليس : وديودات ساهر بقربها ينظر اليها
مفتوناً بذلك الجمال .

اما اليس فانها كانت تفكر في ما صارت اليه وفي موقفها الحرج ، فا
هذه الجاسوسة كانت تعبد ديودات عبادة .

ولكن الفرق في غايتها وسعيها كان شديد التناقض ، فان ديودات
الملكة كاترين كان يحملته لملكة النافار .

واليس كانت جاسوسة الملكة كاترين ، ولا تسعى إلا لقتل ملكة النافار
والعداء بين الملكتين عظيم .

فكان ديودات واليس خصمين في السياسة ، عدوين لدودين يقضي الواجب
على كل منهما ان يقتل الآخر .

غير ان ديودات لم يكن يعلم شيئاً من امر اليس ، في حين ان اليس كانت
تعلم كل خفاياه .

وقد طـال تفكير الفتاة الى ان حصرت افكارها في امرين ، وجعلت
تنظر فيهما وتمحصهما ، وهما الانتحار او الحياة .

فبدأت تفحص فكرة الانتحار فاستسهلته في البدء حتى أرشكت ان
ترجحه كي تنجو من العار أمام حبيبها .

ولكنها كانت تحبه حباً مبرحاً ، فتمثلت لها السعادة بقربه حتى انتهى
الغرام ونبذت فكرة الانتحار .

ثم عادت إلى الافتكار بالحياة فخطر لها انها تستطيع ابعاده من باريس
والتخلص من الملكة كاترين .

ولكنها لا بد لها قبل كل ذلك ان تفترق مدة عن حبيبها .

لها خاطر مخيف وهو ان ديودات قد يجتمع خلال هـذه المدة
كة النافار ، وان الملكة قد تخبره بما كان من أمرها .
ثم قالت : ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من حبنا ، وهي قـد طردتني
من خدمتها طرد المشفقة علي ، فاذا لم يباحثها ديودات بشأني فلا سبيل
إلى ان تفاتحه به .

ولذلك فقد وجب ان أجد حيلة تمنعه من محادثة الملكة بشأني .

وقررت عليها بعد ذلك إلا ان تجـد حيلة للفراق الموقت كي تتمكن من
مقابلة الملكة كاترين والتخلص من خدمتها .

وعند الفجر نهضت من مضجعها ، فوجدت خطيبها لا يزال ساهراً عليها
فابتسمت له ابتسام سحره .

وبعد مناولة الطعام عادا إلى الحديث ، فعرض عليها ديودات أن
تقيم في قصر الأميرال كوليني ، فابت واقترحت أن تكون اقامتها في
منزل قريبة لها على زعمهـــا ، على ان يزورها في ذلك المنزل مرتين
في الاسبوع .

فوافقها ديودات وخرجا من ذلك الفندق ، فامتطى جواده واردفها وراءه
حسب العادة في ذلك العهد ، وسار بها حتى وصلا إلى باريس ، فاوصلها إلى
المنزل الذي ذكرته له وهناك ودعها وانصرف .

- ٢٣ -

اليس دي ليكس

وطرقت اليس ذلك الباب ففتح لها ودخلت منه رواق طويل ثم صعدت سلماً إلى دور هذا المنزل الأعلى ، فاستقبلتها امرأة كهلة بالترحاب ، وسارت بها الى قاعة فاجلستها وقالت لها . كيف انت يا اليس ؟

فتنهدت الفتاة وقالت : على اسوأ حال يا لورا ، فقد انهكت اليسالس عقلي واضعفت جسمي وأنفت لكثرة خيانتي فسئمت العيش

فضحكت لورا وقالت : ما هذا الانقلاب يا اليس وماذا حدث ؟

— لم يحدث شيء ، ولكني متعبة منهكة القوى ، فاعطني شيئاً من ذلك الاكسير الذي عودتني شربه عساي ارتاح مما انا فيه .

— ألا تريدين أن تأكلي ؟

— لا أجد شهية للطعام .

فاحضرت لورا ما طلبته وسقتها جرعة من ذلك الشراب ، فانتعشت لورها وتبدل اصفرارها بالاحمرار ، فأخذت تفحص كل ما كانت تراه في تلك القاعة كأنها لم تعرفه من قبل ، ولورا تراقبها وهي منذهلة مما تراه .

حتى وقفت اليس عند رسم معلق على الجدار ، فاهتزت حين رأته ووقفت تتأمله ملياً .

ثم التفتت فجأة إلى لورا وقالت لها : يجب نزع هذا الرسم من مكانه .

— لماذا ؟ أتريدين نقله إلى غرفة النوم ؟

فاحمر وجه اليس وقالت : كلا بل اريد اتلافه امامي .

فضحكت لورا فوق كرسي لنزع الرسم وهي تقول : مسكين انت ايها المارشال .

ثم اولت الرسم فقطعته اربا والقته في النار .

وبقيت اليس تراقب تمزيقها حتى انتهى ، فجلست على كرسي وقالت

لكهلة سيحضر شاب إلى هنا يا لورا يوم الجمعة في المساء .

فابتسمت لورا ثم نظرت إلى الفتاة نظرة حاولت ان يكون لها معنى الاشفاق .

فقالت لها اليس — لماذا تنظرين إلي هذه النظرات ، العلك مشفقة علي . . .

نعم اني محتاجة إلى الشفقة . فاصغي إلي الآن .

ان هذا الشاب يأتي يوم الجمعة والاثنين من كل اسبوع .

— لا كان يأتي الآخر .

من ذلك ، فاني لا اكون مطلقة الحرية إلا في هذين اليومين . أفهمت ما اقوله لك يا لورا ؟

دون ريب وساعود إلى تمثيل دور القرابة ، فانا ابنة عمك ،

اليس كذلك ؟

— كلا ، فقد قلت له انك عمتي .

— اجل هذا العاشق الجديد خير من المارشال هنري دي مونمورانسي الذي مزقت رسمه .

— لا تذكري هذا الرجل امامي ، فانه لم يكن غير عشيقي .

وهذا الجديد .

هو الرجل الوحيد الذي احببته واحبه في هذا الوجود

والمارشال ، لم تحبيه ، والذي كان قبل المارشال ؟

فاصفر وجه اليس وقالت : أتريدين به المركيز دي باني جارولا

— نعم هو نفسه اتعلمين ماذا جرى له .

— كيف تريدين ان أعلم .

— انه انخرط في زمرة رجال الدين ، وبات من الكهنة المواظبين تحمساً وغيرة على الدين ومن كان يدور في خلده ان هذا الفتى الذي كا ابسل رجال السيف ينقلب هذا الانقلاب . فقد خطب أمس خطبة بليغة فيها الناس على الفتك بالهوكينوت .

فذهلت اليس وقالت : المركيز باني جارولا من الرهبان ؟

— قالت هذا حال الانسان في تقلبه ، فبينما هو من أهل الشر والفساد بتو توبة صالحة ويستحيل فجأة ميله إلى الخير .. فلندعه في شأنه فقد طوي ذكره عندنا ، ولنبحث في هذا العاشق الجديد ، فماذا يدعى ؟

فلم تسمع اليس سؤال لورا لاسترسالها في التفكير ، وقد تقلب وجهها عاد اليه اشراقه تباعاً .

فنظرت إلى لورا وقالت لها : إذا كان ذلك فقد اصبحت مطلقة السراح كما أريد ، ولكنك لم تقولي لي في أي دير يقيم

— في دير جبل القديسة جنفياف .

— وهو يتولى الوعظ والارشاد كما تقولين

— نعم وأكثر من يسمع عظاته من النساء الجميلات ، وهن يعترفن له بخطاياهن ايضاً . وقد اتصل بي انه كثير التسامح ، يغفر كثيراً لاه اخطأ كثيراً .

— إذاً بوسعك يا لورا ان تنقذي حياتي .

— كيف ذلك وماذا يجب أن اصنع ؟

— يجب أن تذهبي إلى هذا المركيز أو هذا الراهب ، وتحملينه على القبول بسماع اعترافي .

فنظرت لورا اليهـــا نظرة الفاحص ، فلم تجد غير وجه مضطرب بحزن وعينين تدلان على الطمع بالرجاء ، فقالت في نفسها : لا بد ان يكون لهذا الامر شأن يجب ان اعرفه .

ثم اجابتها قائلة : ان الأمر سهل يا اليس فانه يخصص معظم اوقاته لقبول الاعتراف

— ولكن احذري ان تذكري له اسمي ، وأنت تعلمين يا لورا إني أحبك حباً أكيداً ، فقد انقذتني مرة إذا كنت تذكرين .

— نعم ولا شك عندي انك تثقين بي ثقة شديدة ، ولكنك لم تذكري لي بعد اسم هذا الشاب الذي سيزورك يوم الجمعة ويوم الاثنين .

— لم يحن الوقت بعد يا لورا للاباحة باسمه فان هـــذا الاسم سر هائل لا أجسر الى الآن أن أردد ذكره في ضميري والما الناجي به نفسي .

انما يجب أن تعلمي إني أحبـه حباً مبرحاً تقصر عن وصفه الأقلام ، واني أضحي حياتي في سبيل هنائه ، فقد شقي كثيراً ولا أدري ما خبأت له الأقدار أيضاً من الشقاء .

وما يراعني إلا اني لست من اكفائه ، فهو يعتقد اني طاهرة نقية وأنا على ما تعلمين .

نعم لا استطيع أن أبوح لك باسمه يا لورا لأني أحبه واني اوثر الموت على ان اخاطر بذكر اسمه الحقيقي .

ولكن اصغي إلي يا لورا .. انك تعرفين ما اكابده من العناء في خدمة هذه الملكة المشؤومة كاترين ، واني تلبست بجميع أنواع الاثام في سبيلها ، حتى صغرت نفسي وانفت الدنيا وبت اشتهي الموت . ولولا ما أجده في قربك من العزاء ، وما اسمعه من فمك من النصح والارشاد لمـــا بقيت الى الآن في قيد الحياة .

وقد عزمت اليوم عزماً اكيداً على التخلص من قيود هذه الملكة الجائرة

التي لا يعرف قلبها معنى الرحمة والاشفاق فقد كرهت اكون آلة في يدها تديرني كما تشاء أغراضها السافلة .

وحسبك انها جعلت عواطفي العوبة وجعلتني اتخذ الغرام فخا اصيد
تريده من أعدائها ، واحتال به على اسرارهم فأنقلها اليها ولا يكسون
بعد ذاك غير الموت أو السجون الأبدية .

نعم اني أحب الآن ، وقد فتح الحب عيني وانار قلبي بنور الفضيلة فشاهدت
لي جرائمي الماضية بأفظع تمثيل ولم يبق لي مطمع إلا بكسر هـذه الأغلال
والخلاص من أسر الملكة والنجاة من هذه المعيشة الشائنة .

وهنا استرسلت في البكاء ، تبكي بكاء النادمين ، فجعلت لورا تطيب
خاطرها وتقول لها لم يثر هذه الأفكار المظلمة في نفسك غير الشيء
الذي أصابك .

فمسحت اليس عينيها وقالت : نعم اني متعبة يا لورا ولكن تعبي أعظم
من أن يحيط به تصورك .

ثم قالت بصوت أجش : بقي لي رجاء وحيد إذا لم يتحقق لا يبقى لي
غير راحة واحدة وهي الموت .

— أنت تتوهين في نضارة شبابك وربيع جمالك . أطردي هذه الأفكار
السوداء ، فما خلقت لمثلك ، ام تريدين أن تفدي ذلك المركيز عشيقك القديم
فيما فعل ، فإن الرهبنة نوع من الموت .

فوضعت اليس يدها على جبينها وقالت .. الراهب ؟

— اطمئني فستعترفين له بخطاياك ويغفر لك تلك الذنوب .

— متى يكون ذلك ؟

— في مساء السبت . ولكن قولي لي متى عزمت على الذهاب إلى الدير ؟
فأنت تعلمين انهم ينتظرونك فيه .

— تقولين اني أستطيع الاعتراف للمركيز يوم السبت مساء ؟

إذاً أذهب إلى الدير في صباح ذلك اليوم . والآن دعيني وحدي
يا لورا فاني محتاجة إلى الراحة .

فتركتها لورا ودخلت اليس إلى مضجعها فنامت وقد انهكها التعب .

وفي تلك الليلة نفسها بينما كانت اليس نائمة خرجت إمرأة عند منتصف
الليل من ذلك المنزل ، فذهبت مسرعة إلى ذلك القصر الذي بنته الملكة
كاترين لعشيقها الفلكي .

وصعدت هذه المرأة إلى برج ذلك القصر وهناك مصباح ينفذ من جدار
البرج وهو مرتفع بقدر قامة الانسان عن البرج وله كوة من فوقه نافذة اليه .

فأخرجت المرأة رسالة من جيبها والقتها من تلك الكوة فسقطت في البرج .

ثم عادت إلى المنزل ودخلت توأ إلى مخدعها .

أما هذه المرأة فقد كانت لورا .

- ٢٤ -

بيبو كلب باردالیان

إن هذا الفصل سيكون موجزاً قصيراً وعلى كونه مصدراً باسم كلب لا
يهم فائدة ، وفوق ذلك ، فكيف لا يحق لهذا الكلب ان يكون له مقالة
خاصة في هذه الرواية وهو من أبطالها ، بل منقذ أبطالها ويفضل الكثيرين
من رجالها .

في ذلك اليوم الذي قبض فيه الجنود على باردالبان ويلقوه في غرفة
يذكر القراء ، إندفع « بيبو » بعاطفة الود الأكيد فدافع عن سيده وصد
أجمل دفاع .

فإذا دميت رجل جندي في ذلك اليوم ، أو تمزقت جلود آخر فقد
مرجع الفضل في ذلك لهذا الكلب .

ولكنه غلب كما غلب سيده فسار في أثر الجنود الذين كانوا يحملون باردالبان
وقد لقوا من غضه ونهشه ما لا يلقونه في الحروب ، حتى اضطروا الى مقاتلته
بالسيوف فقطعوا إحدى أذنيه .

ولما خرجوا من الفندق وحملوا باردالبان في المركبة سار في أثر المركبة
إلى الباستيل .

حتى إذا ما وصلوا اليه وأدخلوا باردالبان رأى « بيبو » وهو يحمل نظام
السجون ، إن من حقه أن يدخل أيضاً كما دخل صاحبه

غير ان الحراس لم يوافقوه على هذا الحق ، فاحتدم الخلاف بينهم وبينه
عليه حتى أفضى الى المراك وانتصار الجنود عليه وطرده بالحجارة .

ولكن « بيبو » لم يكن ممن يرضون بالهزيمة ، فلما ابتعد عن مرامي الجنود
ولم تعد تصل اليه الحجارة عاود الكرة على باب السجن فوجده مقفلا ولا
سبيل الي فتحه .

فوقف عند ذلك الباب وجعل ينبح نباحاً مستطيلا كانت تختلف لهجته
بين الحزن والحدة .

أما نباح الحزن فقد كان يدعو به باردالبان ، وأما نباح الحدة فقد كان
يتوعد به الحراس .

ثم لما رأى ان صاحبه لا يجيب نداءه ، وان الجنود لا يحفلون بوعيده جعل
يطوف حول السجن ويدور دوران حجر الرحى ثم يرجع الى المركز الذي
بدأ منه بالدوران دون أن يجد منفذاً الى السجن .

أن طوف ما طوف ، ويئس من الدخول ، ذهب الى قمة تبعد
عشرين خطوة عن السجن وجلس فوقها . فكان الغلمان يرشقونه بالحجارة
فلا يجيبهم بمثل اعتدائهم ، بل يكتفي بالابتعاد عن مراميهم والانتقال إلى
مركز آخر .

وانقضى النهار ، وفرغت معدة « بيبو » ، وبدأ الجوع يعض
أحشاءه ، فصبر عليه صبر الكرام ولبث في موقفه ينتظر خروج صاحبه
من السجن .

إلى أن هجم الظلام ولم يعد له طاقة على الجوع فانقلب راجعاً إلى الفندق
على رجاء ان يأكل حسب عادته ويعود .

فعاد في الطريق الذي جاء منه حتى وصل إلى الفندق فكان اول ما صنعه
أنه صعد الى غرفة صاحبه .

ولما لم يجده فيها نزل الى قاعة الطعام ودخل منها إلى المطبخ حيث كان
صاحب الفندق ينظف طيوراً يطبخها .

وقد عرف القراء حادثة صاحب هذا الفندق مع باردالبان حين هم أن
يلقيه من النافذة ، وكيف ان باردالبان كان يقيم في أحسن غرفة من غرفه ،
ويأكل خير طعام دون ان يدفع شيئاً ، فكان صاحب الفندق يكرهه كما كان
يكره كلبه وجواده ، ولكنه لا يجسر أن يبدي أقل اعتراض لخوفه
من باردالبان .

فلما قبض الجنود على باردالبان ، كان ذلك اليوم من أسعد أيام صاحب
الفندق .

فليتأمل القراء جسارة « بيبو » حين دخل آمناً مطمئناً لغاية المطبخ ،
أما صاحب الفندق ، فإنه حين رأى الكلب ترك الطير الذي كان
ينظفه وهاج غضبه ، فهجم على الكلب ورفسه برجله ، وهو يشتمه
أقبح شتم .

ولكن بيبو مرق من بين رجليه ، فلم تصبه رجل صاحب الفندق الذي سقط على قفاه ، وأسرع الى الإناء واختطف طيراً وهرب به لا يلوي على احد .

فلما نهض صاحب الفندق من سقطته كانت نكبته مزدوجة بأن لسعته وبسرقة الطير .

وأما بيبو فإنه بعد شبعه ذهب إلى جوار الباستيل ، وبات ليلته فوق تلك القمة .

ومضى على ذلك بضعة أيام وهو يسرق طعامه في الليل ، ويراقب في النهار باب السجن ونوافذه ، وعليه علائم الحيرة ، كأنه يعجب كيف ان صاحبه يطيل الاقامة في ذاك المكان الذي دخل اليه إلى هذا الحد .

إلى ان اتفق يوماً انه رأى ، وهو يدور حول السجن ، وجهاً من خلال النافذة فوقف وجعل يحرك ذنبه كأنه عرف صاحب هذا الوجه ولكنه لم يكن واثقاً بعد .

ثم برز هذا الوجه بجملته من النافذة فجعل بيبو ينبح نباحاً قوياً إذ لم يعد لديه شك ان هذا الوجه وجه صاحبه بارداليان .

أما بارداليان فانه أخذ يناديه باسمه والكلب يجيبه مشوداً بالنباح .

وقد سمع الحراس صوت بارداليان ونباح الكلب ، فأسرعوا كي يستطلعوا الخبر .

فرمى عندها بارداليان لكلبه كتلة من الورق الأبيض ، فانقض الكلب عليها وعضها بانيابه .

ورأى الحراس ما رماه السجين إلى كلبه ، فحسبوا ذلك رسالة وأسرعوا في أثر الكلب كي يأخذوا منه الرسالة ولكنه مرق أمامهم من ثقب السور ، قبل ان يستطيعوا إدراكه .

أما بيبو فإنه لما ابتعد عنهم ، وأمن شرهم ، وقف وجعل يلعب بتلك الورقة ، حتى إذا وجد أنه لا يوجد فيها ما يؤكل تركها وعاد مسرعاً الى الباستيل .

وبعد هنيهة عثر أحد المارة بهذه الورقة ففتحها ووجدها بيضاء ، لا أثر للكتابة فيها فألقاها على الأرض وانصرف .

- ٢٥ -

الباستيل

ولنعد الآن الى بارداليان فإنهم بعد ان أدخلوه إلى تلك الغرفة فكوا قيوده ثم تركوه وخرجوا وأقفلوا الباب .

وكان الباب قوياً متيناً ، فكان أول ما خطر لبارداليان ان يكسر ذاك الباب فانقلب عنه عاجزاً خاسراً بعد ان أعياه الجهد .

ولما رأى أن لا حيلة له إلا بكسر الباب جعل يتلهى بفحص تلك الغرفة فوجدها متسعة ولكنها خاوية خالية مظلمة ينفذ اليها نور ضعيف من السقف وهي غرفة رطبة .

وقد وجد فراشاً من القش ومائدة صغيرة من الخشب تحت نافذة عالية وعلى هذه المائدة قطعة خبز وابريق ماء .

وهذا كل ما كان موجوداً في الغرفة ، فوقف بارداليان مكتئباً حزيناً لا يسمع غير خطوات الحارس في الرواق ، وهو واثق ان من يدخل إلى الباستيل

لا يخرج منه حياً .

وعندها اتجهت أفكاره بجملتها إلى لويزا ، فكاد يتفجر قلبه يأساً
افتكر انهم قبضوا عليه حين كانت تناديه نداء المستغيث ، ويقول في نفسه
إنها استغاثت بي قبل سواي وافتكرت بي دون سواي حين الخطر ، وأنا الآن
في هذا السجن بل في هذا القبر . فما عساها تقول وأنا لم أجب نداءها ولم أسعفها
دمي في سبيلها .

وقد عض اليأس قلبه ونفر الدمع من عينيه وعاد إلى ذلك الباب يريد كسره
فارتد عنه كما ارتد من قبل بعد القنوط .

ولم يكن يشك في ان لويزا لم تستغث به إلا من الدوق الجو فكان حين يفتكر
أنه في السجن وان من يحبها في قبضة الدوق تطير نفسه شعاعاً ثم يسقط على
الفراش قانطاً منهد الحيل .

ومضى على ذلك أربعة أيام ، وهو إذا أراد العزاء بالافتكار بلويزا زاده
تذكارها يأساً وعذاباً .

وينصرف على ذلك إلى التفكير بالسبب الذي قبض عليه من أجله ومن الذي
نكبه هذه النكبة .

وقد كان خطر له في البدء ان الملكة كاترين الآمرة بسجنه ولكنه قال في
نفسه : إنها كانت راضية عني وانها عينتني في خدمتها وأمرتني ان أحضر إليها
اللوفر فلا سبيل الى هذا الظن .

ولكن إذا لم تكن هي الآمرة فمن عساه يكون .

أيكون الدوق دي كيز صاحب هذه الفعلة ، وقد عرف اني علمت
بسر المؤامرة ؟

ولكن كيف علم اني علمت ؟

وقد كانت هذه الأفكار تعذبه عذاباً شديداً ، حتى رق جسمه
ونحل ، فعول على ان يعرف السبب في سجنه ، بكل ما استطاعه من

الوسائل .

وفي اليوم السادس جاءه السجان بالخبز والماء كعادته في كل يوم ، فقال له
باردالیان : أود أيها الصديق ان أسألك سؤالاً ، وأتوسل اليك أن تجيبني عليه
قبل تعمل ؟

فأجابه السجان قائلاً : لا يحق لي محادثة المسجونين .

ولكن كلمة ... كلمة واحدة ... بربك لا تذهب ، وقل لي لماذا
المسجون .

لقد قلت لك انه لا يحق لي مباحثتك فاذا عدت إلى سؤالي اضطررت إلى
تقديم تقرير عنك الى مدير السجن .

وماذا يحدث بعد هذا التقرير ؟

يحدث انهم ينقلونك من هذه الغرفة إلى سجن مظلم ضيق .

وأنا رضيت ايها الشقي ان أزج في أعماق السجون بشرط ان أعلم السبب
في هذا السجن فتكلم او أقتلك شر قتل .

ثم وثب يريد القبض عليه وإكراهه على الكلام .

ولكن السجان كان متأهباً متوقعاً منه هذا الوثوب فأسرع وثباً إلى الرواق
وأقفل الباب قبل ان يتمكن باردالیان من إدراكه .

وعاد باردالیان الى محاولة كسر الباب كما فعل في الأيام الأولى فكانت النتيجة
واحدة هي الفشل .

وبعد حين أقبل حاكم السجن يصحبه عشرة جنود مدججين بالسلاح حتى
إذا وصلوا إلى غرفة باردالیان ناداه السجان من الخارج قائلاً : هوذا حاكم السجن
يريد ان يكلمك

فهدأ ثائر باردالیان وقال : ليكلمني من يشاء ، بشرط ان أعلم السبب
في سجني .

ففتح الباب عندها ودخلت الجنود .

وعاد باردالیان إلى الهياج ، ورم ان ينقض عليهم ، غير انه رأى حاكم السجن فتوقف عن عزمه ، لأنه عرف هذا الحاكم إذ رآه في حي المتآمرين في الفندق .

أما الحاكم فانه بدأ الحديث معه فقال له بلهجة اللوم الصريح : إنك فعلت ما لا يفعله سواك بتهجمك ، ورجائي ان لا تعود إلى مثل ذلك فلا تعرض نفسك للعقاب الذي يقضي به قانون السجن . أتعرف هذا النظام ؟

إنه صارم شديد ... فاعلم انك في اول مرة تسيء الى الحراس تنقل من سجنك هذا الى سجن عميق مظلم ... وفي المرة الثانية تعاقب بصب المياه الباردة عليك ... وفي المرة الثالثة تعاقب بالجلد وغيره من أنواع التعذيب .

وقد أنذرتك الآن ويجب ان تعلم انه إذا كان السجن حرمك الرقاد فما ذنب حراسك لتحرمهم النوم ؟

وكان باردالیان قد تراجع خطوتين وجعل يصغي الى كلام حاكم السجن بالظاهر ، ولكنه كان يفكر في سره بأمر هذا الرجل فبدت عليه علائم الهدوء خلال التفكير .

وحسب الحاكم انه تاب الى الهدوء واتعظ بوصاياه فقال له : يسرني انك اهتديت فأمنت العقاب .

فأجابه باردالیان بملء الهدوء . ثق يا سيدي الحاكم اني لا ارتكب ما يخالف نظام السجن بعدما سمعته من إرشادك ، ولكني التمس منك أن تأذن لي بسؤال .

لقد عرفت سؤالك ، أنت تريد ان تعرف السبب في سجنك ، إعلم إني لا أبالي بمعرفة الأسباب ولا يسعني معرفتها لانهم يدفعون إلي السجين ويقولون لي يجب ان تحتفظ به ، ولكن الذي أرجحه انك لا تخرج من هذا السجن

واجب ان تكون عاقلا صبوراً .

سامتثل يا سيدي الحاكم لنصائحك مع الشكر لك ، ولكن ليس هذا الذي أردت التماسه منك .

إذاً ماذا تريد ؟

ورقا وقلما وحبراً .

ولكن الكتابة ممنوعة في السجن .

إني لا أريد ان أكتب مذكراتي ، بل أريد الاباحة بسر عظيم .

أتقول سراً عظيماً ؟

نعم يا سيدي الحاكم واني أريد ان أبوح لك به كتابة ، فقد اكتشفت مؤامرة بالصدفة .

فاصفر وجه الحاكم وقال : مؤامرة !

نعم يا سيدي وهي مؤامرة الموكينوت على قتل الدوق دي كيز وغيره من كبار المخلصين لكنيستنا .

وانت اكتشفت هذه المؤامرة ؟

نعم يا سيدي فإذا أذنت لي ان أكتب لك مهدت لك السبل للقبض على المتآمرين وأثبت التهمة بالبراهين المقنعة ورجائي بعد هذا الاكتشاف أن أكافأ بالعفو عني .

ومتى كتبت ما أريد كتابته ، واقتنعت ببراهيني ، لا أعود الى الكتابة بل أنتظر بملء الصبر صدور الأمر بالعفو عني لأن هذه الخدمة تستحق هذا الجزاء .

هو ذاك يا بني ، فإذا صدقت براهينك كان العفو مضموناً ، لأن الأمر خطير .

بل هو أشد خطورة مما تتوهم .

– إذاً سأنيلك ما تريد .

وكان الحاكم قد قرر خطته ، فقال في نفسه : إني أدع هذا الرجل يخط إقراره حتى اذا علمت سره أنزلته الى أحد السجون العميقة ، فلا يعيش فيها شهراً .

وإذا عرفت مثل هذا السر أنقذت الدوق دي كيز ، بل كنت منقذ ملكي القادم .

ثم تركه وانصرف بجنوده .

وبعد هنيهة ، جاء السجان بأدوات الكتابة ، ودفعها الى باردالیان فأخذها بسرور لا يوصف ، وقال لذلك السجان : ساكون حراً طليقاً بعد بضعة أيام .

فارتعش السجان لاعتقاده ان من يدخل الى الباستيل لا يخرج منه حياً ، وقال له : كيف ذاك ؟

– لا تخف لأني لا أهرب من سجنكم ، ولكن الحاكم نفسه سيفتح لي أبواب السجن .

فقال السجان في نفسه : لقد عاد اليه الجنون ، غير ان جنونه هذه المرة محتمل لطيف لا خطر منه علينا .

وفي صباح اليوم التالي جاء السجان باكراً وقال له : هل كتبت إقرارك ؟ وهل تريد ان يحضر الحاكم لأخذه ؟

– لم أكتبه بعد لأن مثل هذا التقرير يحتاج الى إعمال الروية كي لا يفوتني شيء من مفصلاته .

– إذاً عجل به لأن الحاكم يلح في طلبه .

– قل له لا بأس من الانتظار ، لأني اذا أبطأت في كتابته ، كتبت أوفى وأتم .

فانصرف السجان ، وبقي باردالیان وحده فصعد على تلك المائدة

فجعل ينظر من خلال حديدها ، ويعمل

وقد طالما وقف تلك الوقفة وفكر ملياً ، حتى انه كان يرتعش احياناً

ينظر الى العلو الشاهق كأنما كان يخطر له الفرار من تلك النافذة ،

والهبوط من ذاك العلو .

وفيما هو يراقب نظر كلبه يرود حول السجن ففرح وبرقت عيناه بخاطر

سريع فنزل عن المائدة وأخذ ورقة من الورق الذي أحضره له السجان وكتب

عليها بضعة أسطر وخبأها في قبعته .

ثم أخذ ورقة ثانية ووضع فيها قطعة صغيرة من الحجر ولفها عليها بحيث

باتت تشبه كرة .

وعاد الى النافذة ورأى كلبه ، فناداه باسمه ، ورمى له تلك الورقة ،

وهو يقول في نفسه : اذا أدركه الحراس ، وأخذوا منه الورقة ، فاني

من الهالكين .

وبعد ان رمى الورقة ورأى الكلب قد التقطها وفر بها والحراس جدرا

في أثره فلم يدركوه عاد الى الغرفة وعليه علائم الاطمئنان .

غير انه لم يلبث ان سمع ضجة في الرواق ثم فتح باب سجنه بعنف ودخل

الحاكم فقال له : أريد ان تقول لي ماذا كتبت في تلك الورقة التي رميتها الى

الكلب من النافذة .

فتنهد باردالیان تنهد سرور وقال في نفسه لقد نجوت بحمد الله

وعاد الحاكم الى التهديد فقال : لا تحاول الانكار لقد سمعك الحراس تنادي

الكلب ورأوا ما رميت له .

فأجابه باردالیان قائلاً : إني مستعد للاجابة فسل ما تشاء .

– أهذا الكلب كلبك ؟

– نعم ..

– انك رميت اليه بورقة فأخذها وقرأها ، قل الحقيقة ولا تكذب .

– لا انكر شيئاً ولا اقتصر على الاعتراف بما رأيتموه بل ازيدكم ان

ممرن على نقل الرسائل منذ عهد بعيد .

– إذاً فهو يعلم الى اين يتوجه بالرسالة .

– دون شك ، فقد ذهب بمثلها الى المكان نفسه ، مساء

على الأقل .

– لأجل هذه الخيانة طلبت ان نعطيك ورقاً للكتابة . . انت

عذاباً لا يخطر في بال إنسان الا اذا اعترفت بكل شيء .

– بماذا تريد ان اعترف ؟

– انك كتبت رسالة .

– دون ريب .

– إحترس ايها الوقح .

– انت تسألني وانا اجيب ، فأين الوقاحة ؟

– الى من كتبت ؟

– الى رجل لا اذكر اسمه الا لك وحدك .

– ايتوجه الكلب بالرسالة الى ذاك الرجل ؟

– كلا ، بل الى صديق وفي امين سيصير الى المساء ويتوجه بالرسالة الى

الذي يجب ان يقرأها وازيدك على ذاك ان صديقي يدخل الى اللوفر حيثما

وله فيه كلمة مسموعة .

فارتعش الحاكم وقال له : وهذا الرجل ، الذي سيقرأ الرسالة ، أيضي

في اللوفر ؟

– نعم . .

– ماذا يدعى ؟

– ستعرفه قريباً .

فاستهزأ الحاكم هنيهة ، وقد قلق لما سمعه من حرية باردالیان في إجابته ؛ ثم

قال له : والآن أتريد ان تقول لي مضمون الرسالة ؟

– حباً وكرامة ، ولكن الأفضل ان تسمع كل ذلك وحدك .

– ولكني لا أريد بل آمرك ان تتكلم في الحال

– لكن ما تريد ، فاعلم اني كتبت إلى رجل كانوا يبحثون في شأنه

في أحد فنادق باريس ، منذ عهد قريب ، وكان ذلك في الساعة العاشرة

من المساء ، فقد كنت موجوداً في ذاك الفندق ، وهو في شارع سانت

ديديس

فقاطعه الحاكم قائلاً : اصمت !

وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً .

ولكن باردالیان لم يمتثل له فقال : وكان في هذا الفندق جماعة من الشعراء . . .

وغيرهم من كبار النبلاء . . .

وأدرك الحاكم خطورة الأمر ، وشر العاقبة ، فقال له بصوت

مضطرب : أتضمن لي أيها السجين ان الرسالة التي كتبتها خطيرة ، فأأذن

لك بالخروج بي .

– إنها سر مملكة يا سيدي الحاكم .

– إذاً لا بد من ان أسمعك وحدي .

– ثم أشار الى الجنود ان يخرجوا .

فاعترضه أحدهم قائلاً . ألا يخشى ، سيدي الحاكم ، أن يريد به هذا

الرجل شراً .

– كلا وفوق ذاك إن السر خطير كما يظهر ، ولا بد من الوقوف عليه فاذهبوا

وإذا دنا أحد منكم من الباب عاقبته بالسجن

فانسحب الجنود مسرعين .

أما الحاكم فإنه أقفل الباب ، ودنا من باردالیان ، وهو يرتجف

من الخوف .

فقال له باردالیان لا أظنك تندهش كثيراً يا سيدي حين أخبرك باسم الرجل الذي بعثت اليه الرسالة .

— أخفض صوتك .

— إنه يا سيدي ملك فرنسا .

— الملك ..

— الملك نفسه ، والآن إذا أحببت ان تعلم ما كتبته إلى جلالته أعطيتك نسخة من تلك الرسالة فقد كتبت منها نسختين وهذه هي فاقرأها .

ثم أخرج من تحت قبعته تلك الورقة التي كتبها ودفعها اليه ، فقرأ الحاكم ما يأتي :

« أتشرف باخبار جلالة الملك انهم يأتمرون على قتله وان المؤتمرين على جلالته هم الدوق دي كيز وهنري دي مونمورانسي ودي تافان رئيس حرس اللوفر وحاكم الباستيل .

« وإذا أراد جلالته الوثوق فليأمر باستنطاق حاكم الباستيل لأنه كان أشدهم تحمساً في هذه المؤامرة .

« وقد كان آخر اجتماع عقده المؤتمرون في فندق دوفير ، في شارع سانت دينيس » .

فوهت عزائم الحاكم وقال : ويلاه لقد بت من الهالكين .

وقد أوشك ان يسقط لاضطرابه .

فقال له باردالیان . تشجع يا سيدي فلكل داء دواء .

— ويحك كيف أتشجع وقد قضي الأمر .

— نعم تشجع ، فقد يمكن إنقاذك . ولكن أراك تضطرب كالأطفال في حين حاجتك الى الصبر والتخلق باخلاق الرجال .

— أترجني أيها الشقي بهذه الهاوية ثم تهينني وتهزأ بي ؟ والله لأعذبنك

يذوق الموت أشكالاً قبل ان أموت .

فقاطعه باردالیان قائلاً : إحترس مما تقوله أو تفعله ، ولا تتهمني لأني بريء ، لا أدري أية مكيدة دفعتني إلى هذا السجن الأبدي بل إلى هذا القبر ، وأنا أسعى في سبيل الخلاص من الموت فلا حرج علي ، ولكنني سأنقذك أيضاً .

— أنت تنقذني وكيف ذاك ؟ كلا ، فقد قطع الرجاء وسيعلم الملك قريباً الحقيقة الهائلة ويقبضون علي .

— وكيف عرفت ان الملك سيقف على الحقيقة في وقت قريب .

— من هذه الرسالة .

— ولكنه لا يطلع عليها إلا في المساء ، فقد عهدت إلى صديقي ان يسلمها الى جلالته في الساعة الثامنة من المساء ولا يزال لدينا اليوم بطوله .

— ماذا تريد بذلك أتريد به الهرب . . والى أين المفر ؟

— لا أشير عليك بالفرار ، بل بالتفكير بطريقة تمنع وصول الرسالة الى جلالته .

— وما هي هذه الطريقة ؟ إني لا أجدها .

— أما انا فقد وجدتها ، وهي ان هذه الرسالة لا يوقف إرسالها غير رجل واحد .

— وهذا الرجل ؟

— هو انا ، فأطلق سراحي وبعد ساعة أرى صديقي ، فآخذ منه الرسالة وأمزقها .

فنظر الحاكم الى باردالیان نظرة تشف عن الرعب وقال له : من يضمن لي انك تفعل ما تقول ؟

— أقسم لك يا سيدي الحاكم بكل عزيز في الأرض ومقدس في السماء اني أفي بما وعدت به واني لست من أهل الخيانة والغدر .

وبعد ، إني لا أجد لك مطمعاً في سلامة إلا بهذه الطريقة

أما انا فاني خارج من السجن لا محالة ، فاذا لم تطلق سراحي لك الملك بعد وقوفه على الحقيقة . وكل ما في الأمر سأقيم في السجن يو اثنين ، وأما انت فلا حياة لك إلا باطلاق سراحي فاصنع ما انت صا آخر ما اقول .

ثم تراجع حتى وصل إلى فراشه فجلس عليه غير مكترث لما يا

أما الحاكم فقد رأى انه لم يبق بينه وبين القضاء المبرم غير بضع وتمثلت له بسرعة التصور فظائع الباستيل وعذابه الذي كان يزاد كل قلبه خوفاً ولعن الساعة التي دفعته فيها المطامع الى الدخول في سلك ان ورود لو كان سجاناً بسيطاً او كان احد اولئك المسجونين الذين عليهم بالتعذيب .

ومع ذلك فانه كان لا يزال مـــتردداً في عزمه ، لا يطلق يستقر .

وكان باردواليان يتظاهر بعدم الاكتراث ويراقبه بطرف خفي نفسه : إما ان يحمل الخوف هذا الرجل على إطلاق سراحي او يطلق تسريحي فلا يفعل وفي هذه الحالة أكون من الهالكين

فاذا لم يقتنع في الحال انه لا يستطيع انقاذ نفسه إلا بانقاذي غرفته وينتظر الحوادث .

وهنا يضطرب ويقلق اسبوعاً او اسبوعين او شهراً ، فاذا مضى ورأى انهم لم يقبضوا عليه علم اني من الكاذبين او ان الكتب ضاع فيعود الى الانتقام مني أفظع انتقام .

أما الحاكم فانه جعل يسير في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً ، وقف فجأة وبدت عليـــه علائم العزم ، والتفت إلى باردواليان أأنت مسيحي ؟

ـ دون ريب .

ـ أتقسم لي بالمسيح والانجيل اني اذا أطلقت سراحك تصل الى صديقك ـ وصول الرسالة إلى الملك ؟

ـ اني اقسم بالمسيح والانجيل الطاهر انك إذا أطلقت سراحي ، لا تصل رسالة إلى جلالة الملك ، ولكن لا بد لي من الملاحظة ان الوقت يمر سريعاً وهو كما تعلم .

فمسح الحاكم العرق المنصب من جبينه وقال : لقد صدقت .

ـ إذاً على ماذا عولت .. أسرع يا سيدي الحاكم فإني سأنجو في الحالين كما قلت لك ، لأن الملك متى وقف على الحقيقة لا بد له من إطلاق سراحي وسؤالي الثورة عليك .

فأجاب الحاكم بصوت أجش قائلا : ستكون ، بعد نصف ســـاعة ، خارج السجن .

فقال باردواليان جهداً عنيفاً كي يخفي ظواهر فرحه وقال له : كما تريد سيدي .

فرفع الحاكم يده الى السماء كأنه يلتمس عون الله في موقفه الحرج ثم تنهد تنهد الارتياح كأنه قد اطمأن بادخال الله في امره .

وعندما فتح باب الغرفة ونادى الحراس والتفت الى باردواليان وقال له ، بصوت مسموع :

ـ ان سراك خطير يا سيدي يستحق ان يصل الى مسامع جلالة الملك وانق من ان جلالته سيتلقى إقرارك بالشكر ، واما أفتح لك بيدي هذه الباستيل .

فتأمل سجان باردواليان ورأى باردواليان دهشته فقال له مبتسماً : ألم اقل لك انك ماخرج من السجن ؟

ـ نعم ولكني كنت احسبك من المجانين .

— والآن ؟

— أظنك من السحرة .

أما الحاكم فانه امر باعداد مركبة فركبها ، وقد قال امام اولئك الذين

انه ذاهب لمقابلة الملك .

فغاب نصف ساعة وهو الوقت اللازم للذهاب الى القصر والعودة منه

يوهم الجنود انه كان فيه .

ولما عاد الى السجن قال للضباط والجنود : إن هذا السجين ، قد

خدم جلالة الملك أجل خدمة ، ولكن يجب عليكم كتمان كل ما رأيتموه

وسمعتموه ، ومن باح منكم بحرف ، خسر منصبه ، لأن السر من اسرار

المملكة .

ثم ذهب الى غرفة باردالیان وقال له امام الجنود : ابشرك يا سيدي ان

جلالة الملك قد عفا عنك .

فانحنى باردالیان وقال : لقد كنت واثقاً من عفو جلالته .

وبعد هنيهة كان باردالیان خارج السجن وقد شيعه الحاكم الى الباب

الخارجي فصافحه مودعاً وهو ينظر اليه نظر المتوسل .

فقال له باردالیان بلهجة المازح : اتريد ان اطمئنك يا سيدي الحاكم

بشأن الرسالة ؟

— نعم . .

— وبشأن ذاك الصديق الذي يحملها الى الملك ؟

— نعم نعم .

— إذاً إعلم ان الورقة التي حملها الكلب كانت بيضاء لا كتابة فيها والصديق

الذي سيحملها غير موجود .

فحار الحاكم في امره ولم يعلم اذا كان باردالیان يقول الحق او يمازحه .

وكان واثقاً انه مطلع على سر المؤامرة ، فقال له انك رجل كريم الأخلاق

ولكن [illegible] منك إذا خطر لك ان ترجع عن عزمك وتبلغ الملك خبر

المؤامرة لا تذكر اسمي بين المتآمرين .

— ٢٦ —

رسالة حنة والدة لويزا

ولنعد الآن الى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه حنة وابنتها لويزا ،

فقد تركنا الخادمة التي عهدت اليها حنة بإيصال الرسالة الى باردالیان حائرة

في أمر تلك الرسالة ، خائفة أن تتهم بالمؤامرة ، وان يقبض عليها كما قبض

على الآخرين .

وكان أول ما خطر لها أن تحرق تلك الرسالة فإن الرعب قد استولى

عليها حتى هون عليها احراقها .

ولكن الفضول دفعها الى استبقائها كي تعلم ما فيها .

وما زال حب الفضول يتنازعها حتى عولت على فتحها ، فأقفلت باب

الغرفة وجميع النوافذ ، ثم فضت الغلاف فرأت في طيه رسالتين احداهما من

السيدة حنة الى الشفاليه باردالیان ترجوه ان يوصل الرسالة التي في طي

رسالتها الى صاحبها .

وكانت الثانية مختومة ومعنونة باسم فرنسوا مارشال دي مونمورانسي .

فوخزها ضميرها حين قرأت الرسالة المرسلة الى باردالیان وعلمت ان لا علاقة

بين حنة وبينه ، ولم تستفد شيئاً من فضولها ، لأنها لم تعلم شيئاً من رسالة باردالليان ورسالة المارشال مختومة .

غير ان الرسالة هاجت فضولها هياجاً لا يوصف وجعلت تقول : ترى ما علاقة بين هذه المرأة الفقيرة الخاملة ، وبين هذا المارشال العظيم ، أعظم رجل في فرنسا بعد الملك .

وجعلت منذ ذاك اليوم تغالب فضولها الى ان غلبها .

فأخذت تلك الرسالة فوضعتها على المائدة وفضت ختمها بيد ترتجف من الخوف .

وفي اللحظة نفسها قرع الباب فارتعشت حتى أوشكت ان تسقط ، وقبل أن تضبط نفسها وتخفي الرسالة فتح ذاك الباب ودخل منه الشاليه دي باردالليان .

فمدت الخادمة الرسالة بيدها وقالت له : أهذا أنت يا سيدي ؟

فقال باردالليان في نفسه : يظهر انها تعرفني ..

ثم قال لها : اطمئني ، فلا أريد بك شراً ، واعذريني لدخولي دون استئذان ، فقد دعاني الى الحضور شأن خطير .

فقالت الخادمة بلسان يتلجلج من الرعب : العلك قادم في شأن الرسالة ؟

فذهل باردالليان وقال : أية رسالة تعنين ؟

فعضت الخادمة شفتها لأنها فضحت نفسها . وحاولت اخفاء الرسالة ، لكن باردالليان كان يراها .

فقالت له : أخرجت من السجن يا سيدي ؟

– انك ترينني مطلق السراح ، لقد سجنت خطأ ، وبقيت في السجن الى أن ظهر الخطأ ، فكانت زيارتي الأولى لكم ، ورجائي ان اطمئن منك بكلمة .

فاطمأنت الخادمة لأنه لم يسألها عن الرسالة وقالت له : سل يا سيدي ما تجيبك في الحال .

– إنهم قبضوا علي منذ عشرة أيام وذهبوا بي إلى الباستيل بخطأ ظهر لهم بعد حين من إطلاق سراحي .

– في تلك الساعة التي قبضوا علي فيها كانت امرأتان تقيمان في هذا المنزل معرضتين بخطر عظيم ، لأنهما استعانتا بي ، وقد علمت انهما اختطفتا عنوة في الساعة التي قبض علي فيها .

– هو ذاك ، يا سيدي .

– أتريدين إخباري بتفصيل ما حدث ؟

– إني أخبرك بكل ما أعلمه يا سيدي ، فقد قبضوا على السيدة وابنتها بتهمة المؤامرة معك .

– معي أنا ؟

– ولكن لا شك انهما بريئتان ، بدليل براءتك ، ولا بد من ان يطلق سراحهما كما أطلق سراحك .

– من الذي قبض عليهما ؟

– عشرة جنود بزعامة قائد .

– أهم من جنود الملك ؟

– لا أعلم .

– أكان الدوق دانجو بين هؤلاء الجنود ؟

– كلا ...

فسكت باردالليان هنيهة لاعتقاده انه لا سبيل إلى معرفة شيء من أمر المرأة .

ثم قال لها : الا تعلمين شيئاً عن المكان الذي ارسلتا اليه ؟

– كيف أستطيع أن أعلم ، لاسيما وقد كنت تلك الساعة في أشد حالات

الاضطراب ..

وكانت يدها تضغط على الرسالة وهي ترتجف ، حتى انتهى الأمر بها

من يدها .

فسألها باردالیان : ما هذه الرسالة التي سقطت من يدك .

فتلعثم لسانها وقالت : ثق يا سيدي اني لست أنا التي فتحتها .

ثم التقطت الرسالة ودفعتها اليه ، فأخذها باردالیان وقرأ رسالة مسرعة .

وقالت له الخادمة : إن السيدة حنة كلفتني بايصال هذه الرسالة اليك ، واقسم لك اني ذهبت في الحال إلى الفندق الذي تقيم فيه فعلمت انهم قبضوا عليك فحفظتها عندي .

فقال لها باردالیان بصوت يضطرب : ألم يطلع عليها أحد ؟

— كلا .. كلا يا سيدي ، وأقسم بالعذراء على صدق ما أقول .

— إذاً من الذي فض الغلاف ؟

— انه انفض بنفسه يا سيدي لأنه لم يكن محكم الختم

— ولكنك قرأت الرسالتين .

— كلا يا سيدي بل قرأت واحدة وهي رسالتك

— والأخرى ؟

— تريد بها رسالة المارشال مونمورانسي ؟

— نعم .

— كنت عازمة على قراءتها ، ولكن حضورك حال بيني وبينها .

فنهض باردالیان وقال : إني آخذ معي هذه الرسالة ، وقد عهد إلي بايصالها إلى صاحبها كاترين ، ولا توجد قوة في الوجود ، تحول دون القيام بهذه المهمة . .

أما أنت فقد ارتكبت خطأ لا يغتفر ، ولكني أغفره لك بشرط واحد .

— ما هو هذا الشرط يا سيدي ؟

ان لا تذكري أمر هاتين الرسالتين لأحد .

كني واثقة يا سيدي فساكتم أمرهما كل الكتمان ، إذ لا أود أن اتهم

باردالیان في نفسه ، ان خوفها اعظم ضمين لسكوتها وهو خير

من ليمين .

ثم تركها وانصرف ، فوجد « بيبو » ينتظره فذهب به إلى الفندق ، والكلب يمشي أمامه مشية الأسود ، غير مكترث لصاحب الفندق ما زال

صاحبه .

ولما دخل باردالیان إلى قاعة الطعام كان لاندري صاحب الفندق قادماً

بزجاجة خمر لاحد الزبائن .

فاحمر حين رأى باردالیان ، حتى سقطت الزجاجة من يده ، ووقف

وقفة البلهاء .

فقال له باردالیان : أسعدت صباحاً يا لاندري .

— أهذا أنت يا سيدي الشفالييه .

— نعم اطمئن فاني عارف بقدر سرورك لعودتي بعد أن يئست من لقائي ، ولكن ذلك لا يمنعك من اعداد الطعام لي ، فاني أكاد أموت جوعاً .

فلم يجب لاندري بل تنهد تنهداً يشبه الانين ، وجعل ينظر إلى باردالیان

وقد جلس إلى المائدة وإلى كلبه المكشر عن انيابه

ثم دخل إلى المطبخ وجلس على كرسي جلوس القانطين ، فرأته امرأته

وظنت ان باردالیان قد عاد ، فأدركت السبب في يأس ذلك الزوج .

ولم تكن زوجة لاندري تكره باردالیان ، فاسرعت اليه واستقبلته

أحسن استقبال .

وقالت له : ان قلقي عليك كان عظيماً ، فاني لم اذق طعم الرقاد في مدة

سجنك خوفاً عليك .

فقال في نفسه : مسكينة هذه المرأة فإنها من أهل الاخلاص والولاء ، لم تكن علمت بمجيء لويزا لكنت في فندقها من السعداء .

وبعد ان اعدت له المائدة عادت إلى زوجها فقالت له : مسكين هنا الشفاليه ان السجن انحله .

فذعر لاندري وقال : اتشفقين عليه أيضاً وهو سيكون علة شقائي بكلبه وجواده .

— لا تحقد عليه أيها الصديق ، فقد دفع لك مقدماً .

— ماذا تعنين بذلك ؟

— ألم تأخذ جميع النقود التي تركها في غرفته ، فإذا طالبك بها فإنما تجيب ، والذي أراه انه يجدر بك ان تلاطفه وتلاينه ، فتشغله بالملاطفة عن مناقشتك الحساب .

فاقتنع لاندري ببرهان زوجته السديد ، وقام يتولى خدمة باردالیان بنفسه ويبالغ في إرضائه .

وبعد ان فرغ باردالیان من طعامه ذهب إلى الاصطبل ، فتفقد جواده وصعد إلى غرفته فجعل يفكر في تلك الرسالة ، رسالة جنة إلى زوجها

ولم يكن قرأ رسالة المارشال ، ولكنه قال في نفسه : ان جنة لم تكتب إلى المارشال إلا بغية التماس حمايته .

فكبر عليه ذلك وقال : ان حماية المارشال صالحة فانه من أشد أهل النفوذ ولكني لا أريد أن يحمي لويزا سواي .

وقد جعل يتردد في أمر قراءة الرسالة حتى أقر على وجوب قراءتها .

وقد دفعه إلى ذلك عاملان ، عامل الغيرة على من يحب ، وعامل الحكمة فقد كان يرجو ان يجد في الرسالة دلائل تعينه على انقاذ الفتاة وأمها .

وعند ذلك فتح الرسالة وجعل يقرأها بعناية بالغة ، فلما فرغ من تلاوتها وضعها على الطاولة ، وقد اصفر وجهه وتاه في مهامه التفكير

وكان كلما أمعن في التفكير زاد جبينه تقطباً ووجهه تجهماً .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وعاد إلى تلاوة الرسالة ، فكان يقف عند بعض عباراتها ، ويلفظها لفظاً كأنما قراءتها بضميره لم تكن كافية لاقناعه على صحة ما يقرأ .

ولما أتم القراءة الثانية سقطت الرسالة من يده ، وجعل يبكي بكاء الأطفال .

* * *

كانت رسالة جنة دي بيالس زوجة المارشال هنري مونمورانسي مؤرخة في ٢٠ أغسطس سنة ١٥٥٨ ، أي نفس ذلك اليوم الذي تزوج فيه هنري دي مونمورانسي ديانا دي فرانس ابنة هنري الثاني .

فتكون الرسالة مكتوبة منذ أربعة عشر عاماً .

وهي مودعة في خزائنها منذ هذا العهد البعيد تنتظر فرصة مناسبة لارسالها إلى زوجها ، وهذا ما قرأه باردالیان .

« لقيت اليوم من الشقاء ما لم تلقه امرأة قبلي .

« ان قلبي ينفطر واشعر ان صدري قد ضاق به ، ولكني مع ذلك لم أمت ، ولا أزال لنكد طالعي في قيد الحياة .

« وقد يكون ذلك لأن ساعتي لم تأتي بعد .

« ولكني متعلقة بهذه الحياة الشقيه حرصاً على حياة ذلك الطفل ، ومن عسى يعول طفلتي إذا قضيت نحبي ؟

« إذاً يجب علي ان أعيش .

« إني حين أشعر بأن اليأس أنهك قواي ، وان قلبي سيجنح إلى السكون ، وان الشقاء سيفتح لي هوة الأبد .

« إني حين أشعر بذلك أذهب إلى مهد تلك الطفلة ، فانظر اليها نظرة تزيل

ذلك اليأس ، وتبعد ذاك الشقاء وتجدد قواي المنهوكة

« لقد بلغت الآن من العمر خمسة أعوام .. أواه يا فرنسوا كم أود تراها .. انها الآن نائمة في مهدها نوم الملائكة ، هادئة مطمئنة واثقة ان ساهرة عليها .

« ان شعرها الجميل قد حدق بوجهها ، وتدلى على صدغيها وشفتها تتحرك وصدرها يخفق خفوقاً منتظماً .. إنها سعيدة يا فرنسوا لم تفهم العبوس على وجهك منها . إنها من ملائكة الله وهي ابنتك أيها الزوج الحبيب

« لقد احتفلوا بزواجك اليوم يا فرنسوا ، ولا يلوح الناس إلا بهذا الزواج الفخم ، ويقولون ان مدام ديانا جديرة بهذا الزوج العظيم وأسفاه إلم أكن أنا جديرة بك وبأسعادك .

« لقد انتهى اليوم كل شيء وانطفأ آخر شعاع رجاء من نفسي .

« ان ذلك اليوم الذي طردني فيه أبوك وسحق قلبي سحق الزجاج ذلك اليوم الذي خرجت فيه من قصره خروج آدم من الجنة ، ذلك اليوم الذي وقعت فيه على صك الطلاق بقية انقاذك ، وسرت هائمة في باريس وطفلتنا على يدي .. ان ذلك اليوم يا فرنسوا قد تجاوزت به حدود الشقاء الانساني .

« وكنت على استحكام يأسي ، لا أزال أرى في ذاك الجو الناعم لمعاناً يشبه ضياء الشفق ... أما اليوم فقد انطفأ هذا النور ، وأصبحت في حالك من الظلام

« قضي الأمر يا فرنسوا .. ولكن لا يزال بيني وبينك صلة ، وهي ذاك الطفل .

« ان بنتك لا تزال في قيد الحياة وهي ستعيش بإذن الله . وإن من أجلها رضيت الجريمة ، ولم أدفع تهمات أخيك .. ومن أجلها رضيت أن أكون شهيدة مضطهدة ، فهي كما قلت لك ستعيش بإذن الله .

« إن ابنتنا يا فرنسوا تدعى لويزا ، ولا بد ان تراها فترى ملائكة السماء هبطت إلى الأرض .

« إني رضيت بسقوطي إلى مهاوي اليأس .. رضيت أن أكون زوجة مطلقة دون ان استحق هذه الاهانة .. رضيت ان اتحمل من ضروب الشقاء ما لا يتحمله بشر .. ولكني لا أرضى أن تكون ابنتنا منكودة الحظ كأمها ، وأن تظلم كما ظلمت بل أريد ان تكون سعيدة هنيئة ، فإنها ابنتك يا فرنسوا .

« ولذلك يجب ان تفتح لها قلبك فتحل فيه .. يجب ان تدخل إلى منزلك مرتفعة الرأس .. يجب ان تحل منك محل البنين من الاباء فإنها ابنتك يا فرنسوا .

« ولتبل هذه الامنية أيها الزوج العزيز ، يجب ان تعرف الحقيقة كاملة بتفاصيلها .

« إني لا أزال أدعوك زوجي وسأناديك هذا النداء إلى ان ينقطع صوتي

« انك تزوجت بي بمطلق ارادتك في كنيسة ماجيني ، فاذكر تلك الليلة التي بارك زواجنا فيها ، ذلك الشيخ المحتضر واذكر ما وعدت به أمام والدي وهو يردد النفس الأخير ، بل ما اقسمت عليه وهو انك تحبني ما حييت .

« إني لا أزال أراك أيها الزوج الحبيب كما رأيتك في تلك الليلة ، ولا عبرة عندي بأوامر أبيك والحبر الأعظم ، فإن ما بناه الله لا ينقضه غير الله وأنت زوجي بأحكام الله .

« إذاً ، يجب ان تعرف تلك الجريمة الهائلة التي فرقت بيننا ، بل يجب أن تعرف أن أباك كان ظالماً عاتياً ، وان أخاك كان مجرماً سفاكاً ، وان امرأتك كانت شريفة طاهرة ، وان ابنتك يحق لها ان تكون في بيت مونمورانسي .

« ولا تحسب أيها الحبيب إني اريد تكدير صفو حياتك ، فانما كتبت اليك كي تتضح الحقيقة .

« ولكني امتنعت عن ارسالها إذ كنت انظر ثلاثة أمور .

« أولها وفاة أبيك لأنه إذا علم انك وقفت على هذا السر الهائل عج حقده ويحل سخطه عليك .

« والثاني بلوغ ابنتي إلى سن تستطيع به الدفاع عن أمها كما تدافع فتاة من أسرة موغور النسي وبيانس .

« والثالث حين أشعر بدنو الأجل أو حين أجد نفسي في خطر شديد لأني لا اعبأ بالحياة بل بسعادة بنتنا .

« وعندما يصل اليك كتابي هذا تكون لويزا قادرة على محادثتك ، ويكون أبوك قد مات فلا أخاف عليها شراً .

« وفي هذه الحالة أما أن أكون مريضة لا رجاء بحياتي أو نكون في خطر ، وفي الحالتين فكل ما أرجوك به ان تسرع إلى اغاثة لويزا أو ان تمنحها اسم اسرتك ، وهو حقها لانها حين ولدت كنت لا أزال امرأتك فهي وريثتك لانها ابنتك الشرعية .

« والآن أيها الزوج العزيز فاسمع ذلك السر الرهيب .

« ان أخاك هنري كان يهواني .

« وجميع شقائنا ورد من هذه اللفظة .

« وما خشي بل ما خجل ان يبوح لي بهذا الغرام ، ولكني كنت أرجو أن يثوب إلى رشده ويرجع عن غروره ، بل كنت أرجو أن يستشرف حبي لك اهانة حبه لي ، فلزمت الصمت حذراً من القاء الشقاء والفرقة في اسرتكم .

« ففي الليلة التي سافرت فيها إلى الحرب كنت أحاول أن أبوح اليك بسر فحال دون ذلك تلك الحادثة التي قضت بزواجنا تلك الليلة .

« ثم ذهبت على أن تعود بعد ساعة ، فرجوت أن أخبرك بذلك السر ولكنك لم تعد وأسفاه .

« أما هذا السر يا فرنسوا فهو إني كنت أصبحت أماً ، وكان ذاك الجنين الذي يتحرك في أحشائي بنتك لويزا ، وقد ولدت وأنت تخوض غمرات لندن دفاعاً عن الوطن .

« وقد قضيت تلك الشهور الطويلة الهائلة في غيابك وأنا أحسبك ميتاً .

« وقد غاب أخوك فكنت أحسب انه لا يعود .

« ففي ذات يوم خطفت بنتي ، وفيما أنا أبحث عنها وقد ضاع رشدي جاءني أخوك فأخبرني بعودتك وقال لي في الوقت نفسه : انه يعرف الرجل الذي اختطف بنتي .

« واسمع يا فرنسوا ماذا جرى بينما كنت قادماً إلي .

« أن لويزا كانت في قبضة رجل من اتباع أخيك ، وهو رجل سافل يدعى باردالیان استأجره أخوك لغرضه الدنيء .

« وقد كان الاتفاق بين أخيك وبين هذا الوحش الكاسر أن يقتل لويزا لأول إشارة تبدو من أخيك .

« أما أخوك فقد أخبرني بما اتفق عليه مع ذاك الرجل وقال لي : انه إذا كذبتني بشيء مما أقوله أمام أخي عنك أشرت هذه الإشارة إلى الرجل فقتل ابنتك .

« وعقب ذلك حديث هائل سمعته يا فرنسوا ، وهذا هو السبب في سكوتي عن وشايات أخوك .

« نعم إني لزمت الصمت صيانة لحياة ابنتي ، ورضيت العار غير انه لم يكن بيني وبين الجنون في هذه الساعة الرهيبة غير لحظة ، ولكن الله أعانني بالاغماء ، فلما صحوت لم أجدك .

« نعم حكم علي في ذاك الحين بالعار ، ولكن لويزا نجت من قبضة المفترس . .

ان نكبتنا يا فرنسوا لم تكن إلا من أخاك ، فلتنصب عليه لعنة الله
ما اقترف ، وليلتقم الله من شريكه في الجريمة ، باردالیان

« ولكن يجب أن تعرف بقية الحديث ، فاعلم أن ابنتي ردت إلي بعد
ذهابك ، فاسرعت إلى حصن مونمورانسي كي أقول لك الحقيقة ، فقيل لي
انك سافرت إلى باريس .

« فهرولت إلى العاصمة ورأيت أباك وأخبرته بكل أمري ، فخيرني بين
أمرين ، سجنك السجن المؤبد أو افتداؤك بالطلاق .

« فاخترت فديتك وأمضيت صك الطلاق وعشت من أجل ابنتي ، ولولاها
لما بقيت في قيد الحياة .

« إني كتبت هذا السر يا فرنسوا ، وستعرفه حين أشرف على الموت ،
فأموت مطمئنة على ابنتنا ، فاسرع أيها الزوج العزيز اليها حين يصلك هذا
فإني أريد قبل الموت أن أضع ابنتي بين ذراعي أبيها .

حنة دي بيانس
دوقة مونمورانسي

هذا هو الكتاب الذي قرأه باردالیان .

وقد كانت الرسالة سقطت من يد باردالیان كما قدمنا لاضطرابه ، وجعلت
دموعه تتساقط على خديه وهو لا يفتكر بمسحها .

ثم التقط الرسالة ونظر أيضاً إلى التوقيع ، فان أنين الموجع وقال في
نفسه : قبح نكد الطالع فان قلبي لم يعلق إلا بمثل هذه الفتاة ، وهي ابنة
أعظم عظماء البلاد ، فكيف أطمع بزواجها وأنا لا نسب لي غير هذا السيف ؟

ثم أطرق برأسه وقال السلام على هذه الأماني ، ويا ضيعة الرجاء بل يا
ويح هذا القلب كيف يخفق بعد الآن بلا رجاء .

غير انه بعد التفكير وبعد ان خفت وطأة تأثير الكتاب عليه ، عاوده
شيء من الرجاء فقال في نفسه .

ان لويزا قد استغاثت بي وكنت أقرأ في عينيها سور الحب ، فاذا كانت
تحبني وكان هذا الحب صادقاً لا يحول بيننا تباين المقام ، بل يكون الحكم
لسلطان الغرام .

ولكن أباها وهو صاحب هذه المكانة ، أيرضى أن يزوج ابنته من مثلي ،
والي المتشردين .

ثم هز رأسه وقد عاوده اليأس فقال : وأي برهان يثبت حبها أياي ،
فإني ما كلمتها كلمة بعد .

وغاية ما في الأمر أنها كانت إذا نظرت اليها نظرت إلي غير مغضبة ، انها
استغاثت بي في ساعة خطر شديد ، أيعد هذا حباً .. إني أبله لا محالة فلاطرح
هذا الفكر أنه من العبث .

ثم قام وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً وايابا ، إلى ان وقف فجأة وقال :
وقد أطبق يديه مغضباً ، ويح لنفسي ان بيني وبين هذه الفتاة مهامه
في ليس فقط لا تحبني ، بل إنها لا بد أن تكرهني حين تعلم ان أبي اختطفها
وهي طفلة تنفيذاً لاغراض عمها السافلة ... أبي ماذا فعلت ، وكيف حلت
بيني وبين مستقبلي .

ثم عاد إلى الكتاب فقرأ فيه الفقرة الخاصة بأبيه وهو يرجوا ان يكون
غلطاً فيما قرأ .

غير ان التهمة كانت جلية واضحة هائلة .

انه يحب لويزا وأبوه اختطفها حين كانت طفلة لغرض سافل دنيء ، فلا
يسع هذه الفتاة إلا ان تكره وتحتقر هذا الأب والأبن .

وعند ذلك اشتد غضبه وقال : إذا كان ما جرى يقضي علينا بالفراق ،
واذا كان قضي عليها بأن تكرهني وتحتقرني فلماذا أهتم بها .. وأي شأن
لي باوصال هذا الكتاب إلى صاحبه ... وماذا عسى تفيدني دوقة
مونمورانسي ، وهي قد لعنت أبي وستلعنني أيضاً .. وماذا تفيدني ابنتها

وقد عرفت الحقيقة .

انهما شقيقتان محتاجتان إلى المـدد ، فلتستغيثا بغيري وليبـادر إلى نجدتها سواي من الأغنياء الذين يحق لهم مصاهرة بيت مونمورانسي .

والآن كفى يا قلبي ضعفاً وقنوطاً . . وأين انت يا ابني فتعينني في هـذا الموقف الحرج ؟

على انك إذا غبت عني فان نصائحك لا تزال عالقة في ذهني واقسم هـذا قسماً صادقاً انني سأعمل بها هذه المرة .

كن رجلا يا باردالیان ، وانت يا أيها القلب الخفوق يجـــاني اشتد وكن قوياً ، فما ظفر بالسعادة غير الأقوياء ، دع الضعف والاشفاق والبس درعاً من الفولاذ كي لا تصل اليك سهام المراحم ، واذهب فالتمس السعادة والحسام فقد عز نيلها بالغرام .

وهنا جعل يسير في الغرفة حائراً مضطرباً قانطاً ، وقد نظر في حـالك فاستنتج منها أن الملكة كاترين ضده ، وهي أعظم قادر في ذلك العهد .

وان الدوق دانجو وأتباعه من أعدائه وهم يبذلون الجهد للتنكيل به .

وان الدوق دي كيز سيكون أيضاً من ألد أعدائه ، فان جاء السجن لا بد ان يخبره بكل ما جرى ، وانه واقف على سر المؤامرة .

ثم ينظر إلى حالته ويقارن بين نفسه وبين أولئك الأعـداء ، ويعلم من أصحاب التيجان ، وان في وسع كل منهم ان يسحقه سحق الزجاج فتهون عليه نفسه ، وتهيج عوامل كبريائه فيثور فيه ثائر يشبه الجنون ، ويجرد حسامه ، كأنما أعدائه قد تمثلوا له ، وتظهر عليه علائم الارتياح ، فيقول في نفسه : إني وحيد أقاوم ملكة ودوقين . . فـإذا مت ، مت موت الأشراف .

ثم ضحك ضحكاً عصبياً وقال : لقد نسيت مونمورانسي ، وانه سيكون ألد هؤلاء الأعداء متى علم ان أبي كان السبب في نكبة إمرأته فيحث علي

الانتقام مني إذا أبقى علي أولئك الأعداء .

ويح لأولئك الأعداء ، لأني لا أموت موت الجبان المنخلع القلب .

وعند ذلك انقدت عيناه باللهب وتدفق العرق من جبينه وظهر الابتسام على شفتيه ، وجال الدمع في عينيه ، وانقض على الحـائط بحسامه ، فكان منظره في ذلك الحين عجيباً وهائلا في حين واحد .

وقد هم أن يعيد الكرة على الجدار وهو يحسب ان أعداءه تمثلوا له .

ولكن الباب فتح في ذلك الحين ودخلت منه امرأة صاحب الفندق وقالت له : رباه ماذا تصنع العلك جننت .

ـ كلا ايتها العزيزة ، ولكني اتمرن فقد كدت انسى فنون القتال خلال إقامتي في السجن .

ـ أسألك العفو لقدومي اليك ، فإني ما جئت إلا لأرد لك هذا الكيس فقد نسيت نقودك هنا حين قبضوا عليك فأعدتها اليك

فلبث باردالیان هنيهة مفكراً ثم قال لهـا : انك لا تقولين الحقيقة ، ايتها العزيزة .

ـ كيف ذلك اني ، اقسم لك . .

ـ لا تقسمي بشيء . . فإن زوجك سرق هـذه النقود من غرفتي وانت أرجعتها . .

ـ انت مخطيء يا سيدي . .

ـ ليكن ما تريدين ، وفي كل حال فاني ارجوك ان تردي هذا المال إلى زوجك فإني مدين له بأكثر منه .

ـ ولكن الا تبقي لك شيئاً ، فلنقتسم على الأقل .

ـ لقد فاتك امر يا سيدتي لم تعلميه مني وهو اني لا اشعر بنفسي غنياً إلا حين يكون في جيبي فلس ، وفوق ذلك فلا يزال معي هذه الياقوتة .

وقد اشار إلى الياقوتة التي اهدته إياها ملكة النافار فزين بها قبعته .

فتنهدت امرأة صاحب الفندق واسترجعت الكيس وانصرفت .

اما باردالیان فقد قال في نفسه بعد ذهابها :

لقد قطع الأمل ولم يبق لي رجاء بحبها ، فالسلام على تلك الأماني ورحم الله احلام الغرام .

والآن فلم يبق لي إلا ان ابحث عن ابي حتى اجده ويفعل الله ما يشاء ، واما هذا الكتاب فسأرسله الى صاحبه بالطريقة التي اجدها .

ثم اعاد ختم الكتاب فوضعه في جيبه وخرج من غرفته وهو عازم على ان يهتم باويزا وامها .

* * *

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حين خروجه فسار وهو لا يعلم اين يسير فيزور الحانات التي تعود ان يزورها غير محاول ان يختبىء وهو هائج واليأس مستحكم منه .

وفي الساعة الخامسة عادت اليه السكينة فنظر إلى ما حواليه فوجد نفسه قرب نهر السين بازاء اللوفر ، وبجانب قصر عظيم .

وقد علم لفوره ان هذا القصر لأسرة مونمورانسي ، فذعر لما رآه ، وحاول الابتعاد عنه ، ولكنه شعر ان قوة خفية تدفعه اليه فذهب إلى ذلك القصر وطرق بابه .

- ٢٧ -

الراهب المعرف

في مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه باردالیان من الباستيل بفضل تلك الحيلة الغريبة ، وذهب فيه بالرغم عنه إلى قصر مونمورانسي حدث حادث خطير في كنيسة سانت جرمين .

ففي الساعة التاسعة من تلك الليلة كان الراهب بانيكارولا وهو من أجل القتيان يعظ في تلك الكنيسة بحرية لم يكن يجسر عليها سواه .

فانه كان يحض سامعيه على قتل الهوكينوت بعبارات جلية ، ويدعوهم الى قتل ملكة النافار والبرنس دي كونديه والأميرال كوليني وكل من ينتصر للهوكينوت او يقتدي بالملك فيرأف بهم .

وكان الجميع يصغون اليه معجبين بفصاحة لسانه وجرأة جنانه ، ولا سيما النساء فانهن كن يعتقدن ان هذا الراهب قديس جاءت به الملكة كاترين من ايطاليا لانقاذ فرنسا وغفران خطاياها .

هذا ما كان يقوله نساء العوام ، وأما نساء الخواص فلم يعترفن بقداسته ، بل كن يقلن انه رجل أخطأ كثيراً فهو يغفر كثيراً كما جاء في الانجيل .

ذلك أنهن عرفنه من قبل ، حين كان يدعى المركيز دي بانيكارولا ، وحين كانت تزدان به القاعات لجمال وجهه ، وأدب لسانه ،

وحسن تأنقه .

ثم احتجب فجأة ، إلى ان رأيته يلبس الملابس السوداء ، وقد تقمص بشكل راهب ، بعد ان كان يضرب به المثل في الغواية ، وغرور الصبى .

وبعد ان فرغ من خطبته تلك الليلة ، ركع مصليا ، فركع الحضور مقتدين به .

ثم نهضوا وجعلوا يخرجون أفواجاً من الكنيسة وهم يصيحون : ليمت الهوكينوت .. ليمت أعداء الدين !

ولم يبق غير بضع نساء كن راكعات حول كرسي الاعتراف .

غير ان أحد الشمامسة جاءهن فقال لهن : إن الراهب متعب هذه الليلة ، لا يستطيع سماع الاعتراف .

فذهلن وقد بدت عليهن علائم الاستياء ، ما خلا اثنتين منهن ، بقيتا في مكانهن راكعتين .

وبعد هنيهة أقبل الراهب والمرأتان لا تزالان راكعتين ، فمر بهما ودخل إلى كرسي الاعتراف .

وكانت إحدى المرأتين كهلة والثانية فتاة بلغت مبلغاً وافراً من الجمال ، وهما اليس دي ليكس جاسوسة الملكة كاترين وعشيقة ديودات ، والكونه لورا التي أقامت عندها اليس .

فلما مر بهما الراهب قالت لورا : هوذا الراهب يا اليس .

فرفعت اليس عينيها وارتعشت ثم التفتت الى لورا وقالت لها : إني لا أجسر أن أقول شيئاً .

— تشجعي يا ابنتي لقد أطلق جميع النساء كي يسمع اعترافك .

— أرجو ان لا تكوني ذكرت اسمي أمامه .

— كلا إذهبي ، إنه ينتظرك في كرسي الاعتراف .

فذهبت اليس إلى المكان المعد للمعترفين وجلست أمام الراهب حتى أتم صلاته فقال لها : تكلمي يا ابنتي إني مصغ اليك .

فقالت اليس في نفسها : يظهر انه لم يعرفني فلأباغته بذكر اسمي .

ثم قالت له : أيها المركيز دي بانيكارولا إني اليس دي ليكس تلك المرأة التي طالما أحببتها ، والتي ربما كانت تحبك أيضاً ، وهذه المرأة جاءتك تتوسل اليك .

فأجابها المركيز بلهجة دلت على عدم الاكتراث قائلا : إني مصغ اليك أيتها السيدة فتكلمي .

فارتعشت اليس لما رأته من عدم اهتمامه وقالت له : ألم تعرفني من صوتي يا كهانت ؟

— لا يوجد أمامك يا سيدتي كهانت ولا مركيز ، بل رجل من رجال الله يسمع اعترافك ويسأل الله غفران ذنوبك إذا استحقيت الغفران .. تكلمي يا سيدتي فإني مصغ اليك ؟

فأجابته اليس بلهجة القنوط قائلة : يستحيل ان تكون نسيت غرامنا ولا يزال اثر قبلاتي على شفتيك .

— أيتها السيدة ، إنك إذا استمريت على هذا الكلام ، أضطر إلى مفارقتك .

— كلا كلا . إبق لا بد لي ان أكلمك .

— إذاً تكلمي كما تكلمين رجلا من رجال الله ، لان ذاك العاشق الذي تعرفينه قد مات .

— ليكن ما تريد ، والآن فاصغ إلي أيها الأب واسمع اعترافي ، لترى إذا كنت قد لقيت من الشقاء ما يكفي لرحمة الله ورأفته بي .

— قولي يا ابنتي ما تشائين ؟

— إني أبدأ باخبارك عن ذنوبي ، ثم أخبرك عن توبتي ، كي تستطيع

الحكم ، فاسمع ..

كنت في السادسة عشرة من عمري فاستلفت جمالي أنظار ملكة عظيمة وجعلتني من نساء بلاطها .

وكنت يتيمة لا أب لي ولا أم ولا أسرة ، فضمنت لي هذه الملكة العظيمة أن تكون بمثابة أمي وأسرتي .

وكان الفتيان يتسابقون إلى رضاي في ذلك العهد ، وكلهم يتدلهون بحبي ولكني لم أكن أحب احداً منهم ، بل كنت أعشق الملابس الجميلة ، والحلى النفيسة .

وكنت على يتمي شديدة الفقر ، فلم تقتصر الملكة على وعدي بما كنت أتوق اليه من الزينة والمجوهرات ، بل وعدتني ان تجعلني من أهل الثروة إذا عملت بآرائها .

فوعدتها ان أطيعها طاعة لا حد لها .

وكان ذلك أول ذنب ارتكبته ، ولكنه لم يكن في الحقيقة ذنبي ، فقد بهرت عيني بما عرضته علي من المجوهرات ، فعقدت معها اتفاقاً ، وكأني تعاقدت مع إبليس .

والأسفاه إني كنت أمضيت ذلك الاتفاق .

وذلك ان الملكة دعتني اليها ذات يوم ففتحت أمامي درجاً كانت تتوهج فيه حجارة الماس والياقوت واللؤلؤ والزمرد فقالت لي : إني أمنحك جميع هذه الجواهر إذا امتثلت لي فيما أريد .

فاغتررت بهذه الدراري ، وقلت لها : ماذا يجب ان أصنع ، يا صاحبة الجلالة ؟

فابتسمت الملكة وأخذت بيدي فسارت بي الى غرفة مجاورة لغرفة كتابتها فأزاحت ستاراً فانجلى عن الرواق الخاص بالملك .

وكان رجال البلاط وقوفاً في هذا الرواق وأنا أعرفهم بحلتهم ، فدلتني على

واحد منهم وقالت : أريد ان يحبك هذا الرجل ؟

فلم يمض شهر على ذلك حتى كنت خليلة هذا الرجل .

فقال لها الراهب : ماذا كان يدعى هذا الرجل ؟

فارتعشت اليس وقالت له : تريد ان تقول لي انه كان لي كثير من العشاق وانه يجب تعيين اسم هذا العاشق ... نعم فهو كما تقول .

أما هذا الرجل فقد كان يدعى كليمانت جاك دي بانيكارولا وكان مركيزاً وقد جاء من ايطاليا ، فهل عرفته يا أبي ؟

فأجابها الراهب بسكينة قائلاً : أتمي حديثك يا ابنتي .. إنك كنت تحبين هذا الرجل دون شك ، فاذا كان هذا كل ذنبك فأنا الضمين لك بنيل عفو الله .

— إنك تهزأ بي يا أبي ، فاهزأ كما تشاء ولكن إصغ إلي ، فإني لم أكن أحب هذا الرجل .

فارتعش الراهب ارتعاشاً خفي على اليس فمضت في حديثها فقالت :

— نعم اني لم أكن أحبه في حين إني لم أكن أرى أجمل منه بين فتيان البلاط ولا أشد بسالة وأكمل عقلاً ، فهو قد خلق ليكون محبوباً ولكني لم أكن أحبه .

— وهو أكان يحبك ؟

— بل كان يعبدني ، وقد أكون مخطئة ، ولكني أقول الذي كنت أعتقده فيه .

ومهما يكن من أمره ، فاني ولدت بعد هذا الحب بعام ، مولوداً في منزل وهبتني إياه الملكة ، فولدت سراً فيه ، أما الأب فإنه أخذ المولود .

— أرى ان قلبك قد سرت اليه عواطف الحنو ، فصرت تشبهين الأمهات وانك تحبين ان تعلمي ماذا جرى لهذا المولود ، فاذا كان ذاك مرادك أخبرتك

بما تشائين لأني أرى المولود كل يوم .

فأجفلت اليس وقالت : ألم يمت هذا المولود .. أكنت كاذبا حين أخبرتني بموته ... قل أين هو وأين أراه ... قل أو أملأ المكان صياحا وأذيع أمرنا لجميع الناس .

– أسكتي او أفارقك فلا تريني بعد الآن .

– رحماك لا تذهب ... بربك إصفح عني وقل أين المولود ؟

– لقد أراد الله ان يبقى حيا ، ولعله أراد أن يجعله فريسة لانتقامه العادل .

إن هذا المركيز والد الغلام قد عهد به إلى مرضعة ودعاه باسم كي لا يكون من القطاء .

– بماذا دعاه ؟

– دعاه باسمه ، وسماه جاك كليمانت .

– وأين هو الآن ؟

– إنه يتربى في أحد أديرة باريس ، وقد رأيت إني لا أزال أشفق عليك إذ أخبرتك الحقيقة ، فعرفت ان الجريمة لم تتم ، وان الولد لا يزال في قيد الحياة .

فسكتت اليس سكوتا هائلا ، ولبث الراهب هنيهة يتأملها ، ثم قال لها :

– اليس ، إنك أردت ان تكلميني فوجب عليك ان تصغي إلي لأني أنا أيضا أريد ان أكلمك

اليس ، إنك أتيت تعكرين صفو حياتي بعد انقطاعي الى خدمة الفضيلة بإشعال تلك الجذوة التي بدأت تنطفىء في قلبي .

اليس ، إنك حسبت ان الغلام قد مات وإنك ربما تكونين قد تسببت بموته فأتيت تسألين الغفران والصفح عن ذنب لم يرتكب .

إني يا اليس بعد ان أخذت الطفل ، ذهبت به ولم أعد إلى الأم . الملك بحثت عن السبب في ذلك ، بل هل عرفت السبب الذي قذفت بنفسي من أجله إلى تلك الهاوية التي لا حد لعمقها والتي يدعونها الدير ؟

فقاطعته اليس قائلة : كليمانت إني بحثت عن السبب وعرفته ولذلك جئت كي أنطرح على قدميك وأتوسل اليك ان لا تنفذ انتقامك فقد لقيت من الشقاء ما يغني عن كل انتقام .

فارتعش الراهب وقال لها : تكلمي وأخبريني ماذا عرفت وابسطي لي أساس الجريمة إذا أردت ان أوازن بينها وبين الغفران .

إذاً إسمع ، إن الملكة كانت تحسب ان حزب مونمورانسي كان يبحث عن حلفاء له في ايطاليا .

وكانت تعلم انك حين جئت إلى باريس مررت بمدن فيرورم ومانتو وبارج وفينيسيا .

وقد رأوك مع فرنسوا دي مونمورانسي ، فأرادت الملكة ان تجد برهانا على هذه المؤامرة ، ولأجل ذلك أكرهتني على ان أستغويك . وهذا هو أساس الجريمة .

– حسنا أذكري الجريمة نفسها الآن .

– انك كنت نائما عندي نوما عميقا ... أواه يا كليمانت ... رحماك ولا تكرهني على قول ما يخجلني .

– إن الخجل من لوازم التوبة .. تكلمي .

– إني اغتنمت فرصة رقادك ...

ثم توقفت مضطربة فقال لها .

– أرى انك لا تجسرين على تتمة الحديث ولكنني أتمه عنك . . انك اغتنمت فرصة رقادي فسرقت أوراقي وفي صباح اليوم التالي كانت تلك الأوراق عند الملكة كاترين دي مدسيس

نعم عرفت في اليوم التالي بسرقة هذه الأوراق واتهمتك تهمة لم تكن قائمة عندي ، ولكني وثقت بعد بضعة أيام ان هذه المرأة التي كنت أعبدها لم تكن غير جاسوسة سافلة .

– رحماك اعف عني لقد تبت توبة صادقة وان ندمي لشديد .

– ولكن لحسن طالعي ان هذه الأوراق لم يكن لها أهمية ولم يقضى على بسببها بالموت .

– رحماك كفى .

– وبعد شهر من ذلك ولدت غلاماً ، أما أنا فاني كنت في خلال ذلك أعد وسائل الانتقام .

– إنه انتقام هائل ... لقد خدعتني وانا ضعيفة أثر الولادة فاستكتبتني كتاباً أمليته علي وجعلتني اعترف اعترافاً جليـــاً بهذا الكتاب إني أنا قتلت ولدي .

وهز الراهب كتفيه وقـــال : كيف ذاك ؟ ألم تتفق على أن أخذ الولد لقتله ؟

ألم يكن ذاك بأمرك ورضاك أيتها الخليلة الخائنة والأم المجردة عن الرحمة فكيف تتهمينني بعد هذه الجناية .

– كلا .. كلا . إني لا أتهمك ولكني أتوسل اليك .. ان انتقامك عادل ولكنه هائل . . إن هذا الكتـــاب الذي استكتبتني إياه يدفع بي إلى المشنقة .

وقد أعطيته الى الملكة كاترين اليس كذلك .

نعم أعطيتها إياه ولا أنكر .

– ولكنك أتعلم ماذا كانت نتيجة هذا الكتاب . إني أصبحت بعده عبدة الملكة وآلة لتنفيذ جرائمها ، ولا يسعني مخالفة أوامرها، وهذا الكتاب تسلمني به الى الجلاد حين تريد .

نعم إنها باتت تكرهني بسبب هذا الكتاب الذي أردت ان تنتقم مني بتسليمها إياه ان أستغوي بجمالي كل عدو لها .. وقد كانت عهدت إلي باغواء فرنسوا دي مونمورانسي فلم أتمكن منه لأن هذا الرجل يعيش عيشة الزهـــاد الناسكين او انه بدون قلب .

ولما عجزت عنه واعترفت لها بالقصور ، عهدت إلي باغواء اخيه هنري وكثير غيره .

فانت ترى اني لا أعيش إلا لتنفيذ أغراض هذه الملكة الهائلة فأبيع قلبي بيع السلع وأسرق أسرار الفتيان وأدفع بهم إلى البلاء.

كفاك يا كليانت انتقاماً لأن ما أحتمله فوق طاقة البشر ولم أعد أطيق العمل بهذه المهنة الشائنة .

فابتسم الراهب وقال لها : ما يمنعك من الخلاص وقد علمت ان الجريمة لم تحدث وان الغلام في قيد الحياة ؟

– هو ذاك ، ولكني كيف أستطيع إثبات هذه الحقيقة ؟

فابتسم الراهب ايضاً ، ابتسامـــة شفت عن غايته ، وكانت أبلغ جواب . فاضطربت اليس ، وقالت له : إن انتقامك هائل ... أنزعت الرحمة من قلبك .

كلا ولكنك امتهنت التجسس والاغواء ، وكل ما أريد هو ان أكرهك على مواصلة هذه المهنة .

رباه لقد ماتت المروءة وخلت القلوب من الاشفاق .

– كيـف عرفت اني تجـردت من الرحمـة ؟ . أسالتني أمـراً لم أجبك اليه ؟

فاطرقت اليس وقد عاود قلبها شيء من الرجـاء فقالت : أيمكن ذاك أن يكون ؟

إني أقف امامك كما يقف الخاشعون امام الله .

إني أقبل موطىء قدميك . كليانت كليانت ... قل لي انك تنقذني من هذا الجحيم .. قل انك قد تعفو عني .

فامتنع الراهب عن الابتسام ومسح العرق عن جبينه وقال لها ببطء : قولي ماذا تريدين ان أفعل ؟

فصاحت اليس صيحة فرح قائلة : لقد نجوت . .

ثم نظرت إلى الراهب نظرة المتوسل ، وقالت له : انت تستطيع إنقاذي يا كليانت من الخجـــل والعار واليأس والموت ، بكلمة تخرج من فمك .

كليانت اني ما أتيت الا من اجل هـذا ، وقد علمت انك انقطعت الى خدمة الله ، فأيقنت ان الرحمة قـــد حلت من قلبك محل ذاك الحقد القديم

كليانت اني أسأت اليك كثيراً فليكن عفوك اكبر من ذنبي واصفح عن هذه الأثيمة التي تتوسل اليك .

– ماذا يجب ان اعمل لإنقاذك ؟

– انت تستطيع كل شيء ، فلا تنس يا كليانت انك احببتني ... اني لا اعلم شيئاً الآن من علاقتك بكاترين . ولكني اعرف هذه الملكة حق العرفان ، واعرف الكثير من اسرارها واعلم انها تعجب بك الآن بقدر ما كانت ترتاب بك من قبـل ، فهي لا ترفض لك ملتمساً يا كليانت .. قل كلمة ، ترجع اليك ذاك الكتاب الهائل ، الذي استكتبتني إياه .

فقال لها الراهب برفق اهذا الذي اتيت تسأليني إياه ؟

– نعم وهو كل ما التمسه منك .

– انت لم تخطئي فيما زعمته من اتصالي بالملكة وتأثيري عليها ، واني استطيع استرجاع هذا الكتاب بكلمة كما تقولين ، فيكون عندك بعد بضع ســـاعات

لتحريقه وتأمين شر تلك الملكة الجائرة .

– بارك الله بمروءتك فما أخطأ ظني فيك .

– إذاً تريدين ان استرجع هذا الكتاب ؟

– وحق ما ملت يباركك الله وتكون انقذتني من شر المهن .

– ولكني لا استرجعه الا بشرط .

– قل فاني أمتثل لكل شروطك .

– اريد ان تبرهني ان استرجاع الكتاب يفيدك .

– كيف ذاك ، الم اخبرك بكل ما اعانيه .

– ليس ذاك بالبرهان الناصع فقد الفت العشاق حتى تعودت عدم المبالاة بزفراتهم وتقسماتهم ، فاذكري لي السبب الصحيح الذي تريدين من أجـــله استرجاع الكتاب .

– اقسم لك ..

– لا تقسمي بل قولي الحقيقة ، فأنت قـــد جئت الي للاعتراف ، وليس علي ان انتزعه منك انتزاعاً ، بل عليك ان تعترفي بكل ما يجول في ضميرك .

– واعلمي انك لم تأنفي العار والخجل والتجسس الا لأن شعـــاع الحب الأكيد الخاص قد نفذ الى قلبك . فهل اخطأت فراستي يا اليس ؟ . قولي الحقيقة ... ثم تريدين ان اذكر لك ايضاً اسم الذي تعشقينه ، فاذا كان ذاك فاعلمي انه يدعى الكونت دي ماريلياك ، واذا شئت ، فهو يدعى ايضاً دي وردات .

فوضعت الفتاة يدها فوق قلبها وقالت : نعم احبـــه ، وهي اول مرة تسلط الحب فيها على قلبي . نعم اني احبه حب عبادة فدعني احبه يا كليانت فقد رويت غلك من الانتقام ، وانا تبت توبة صادقة عما اسأت به اليك والى سواك .

كليانت اذكر انك احببتني .. كليانت انقذني ودعني اعيش عيشة طاهرة نقية بعد ذاك العيش الذميم .

ووجم الراهب هنيهة ولبث مفكراً مطرقاً كأنما ذكر هذا الحب قد هاج في قلبه مكامنه القديمة وانه يحاول تهدئة هذا الهياج .

فقالت له اليس : الا تجيب ؟

— بل اجيب يا اليس،انت تسأليني ان اذهب إلى الملكة كاترين واسترجع منها ذاك الكتاب الذي اعطيتها إياه ..

اليس هذا الذي تريدينه ... نعم ان هذا كل مرادك ولكنه محال يا اليس فلست على صفاء مع الملكة كما تظنين ، ولم اخدعك بما قلته لك من حسن اتصالي بها الا كي ادفعك الى الحديث ، والحقيقة اني لم ارها من عهد بعيد وقد لا اراها الى الأبد ويسوءني عجزي عن قضاء هذه المهمة .

فصعقت اليس لهذا الرفض الصريح ، وقالت له : أترفض إذاً ، انقاذي .

فضاق ذرع الراهب ولم يعد يطيق المواربة والتهكم فقال لها : اتطمعين ان اتولى بنفسي انقاذك ، وان أساعدك على حب ذاك الرجل ؟ انت اذاً من المجانين .

فجمد الدم في عروق اليس ورأت انها لا تكلم ذاك الراهب الذي اعتزل الدنيا وانقطع الى الدين ، بل تخاطب ذاك المركيز الذي كان بها من الهائمين وقد خدعته ثم خداع .

ثم رعبت رعباً شديداً وقالت في نفسها . كيف عرف اني احب ديودات ؟ ومن الذي باح له بهذا الغرام ؟ وكيف اتصل به هذا الاسم ؟

وكأنما الراهب قد عرف ما كان يجول في خاطرها فقال لها اصغي إلي فاني موضح لك ما تجهلين .

أتحسبين يا اليس اني غفلت عنك لحظة خلال هذا الفراق . اني كنت

أراقبك من صومعتي ، واقتفي آثار خطواتك ، وأرى إشاراتك ، وأسمع كلماتك ، فلم يفتني شيء من أعمالك ، أي من خياناتك ، فإن كل أعمالك خيانات وآثام .

وإذا شئت ذكرت لك أسماء عشاقك واحداً واحداً ، فلا تحسبي اني كنت غيوراً من اولئك العشاق ..

بل أنا الذي كنت أدفعك إلى الآثام فتنزلين في سلم الخيانة إلى هاوية العار درجة درجة بتسليمي إياك لتلك الملكة .

وقد كنت أريد بذلك الانتقام ، وهو ما تستحقينه فإن جرائمك تجاوزت كل حد .

أني كنت أول ضحية من ضحايا خيانتك فقضيت عليك ان تعيشي العمر منغمسة بحمأة الخيانة .

وعندما ارسلتك الملكة جاسوسة إلى بلاط النافار كنت أعرف كل ما تضمرين وكل ما تكيدين .

وقد عرفت إنك تعشقين ديودات فكان سروري بغرامك لا يوصف لأنه شديد دعائم انتقامي .

ثم ضحك ضحكاً مائلاً وقال أتأتين إلي بعد ذلك وتريدين أن أكون واسطة سعادتك في هذا الحب؟ أأثير منك عاطفة الأمومة وأخبرك ببقاء ولدك حياً ، ثم لا تبالين به لانشغالك عنه بهذا الغرام ؟

إنك تطلبين عفو الله عن آثامك ، ولو عقلت لما طلبت غير المزيد من نقمة الله .

فإن هذا الإله ، الذي أتقرب اليه كل يوم بالصلاة والابتهال ، إذا أصغى إلى صلاتي وابتهالي ، أجاب توسلي وزادك على ما أنت فيه من الشقاء واليأس والعار .

وهنالك وقف الراهب وخرج من غرفة الاعتراف بملء العظمة والجلال

تاركاً اليس فيها مغمياً عليها لا تعي .

وبعد هنيهة دخلت لورا وأعانت اليس حتى استفاقت فانتبهت إغمائها مرعوبة منذعرة وقالت لها لنهرب من هذا المكان فليس الشقاء والعقاب .

٢٨

سياسة كاترين

رقضت اليس ليلة هائلة فقد شعرت انها مقضي عليها ولكنها لم تجزع ، بل جعلت تفكر في وسيلة تنقذها من ذلك الموقف الرهيب وتقول في نفسها : سأدافع إلى اقصى حدود الدفاع .

على انها اعترفت بأنها مغلوبة ، وأن رجاءها قد حبط ، ولو رأت عاشقها القديم ورضي ان يرجع اليها ذلك الكتاب القاضي باعدامها من كاترين لما أقامت لحظة في اللوفر ولاعتزلت خدمة هذه الملكة الهائلة .

ولكن جميع أمانيها بنيل الحرية ذهبت أدراج الرياح ، ولم يبق بد أن ترصف بالقيد ، ومن أن تذهب إلى اللوفر تلبية لأوامر الملكة .

نعم انها كانت تستطيع أن تقول للملكة أن الرسالة التي أرسلتها وصلت إلى ملكة النافار قبل أن تصل اليها ولكنها كانت عارفة بطبع الملكة وما يثير سخطها .

وفي صباح اليوم التالي ضبطت نفسها وحاولت نسيان ما جرى لها بالأمس

ثم ذهبت إلى اللوفر والتمست مقابلة الملكة .

فأمرتها الملكة أن تنتظر ، وان لا تبرح اللوفر إلى ان تفرغ من مهماتها

فقد كانت مختلية مع الفلكي وكانت تنتظر زيارة ابنها الملك .

وكان الفلكي في ذلك الحين يودعها وهو يحاول الانصراف فقال لها :

— إذاً لقد اتفقنا على السلم .

— هو ذاك يا رينيه ، فإن سلاح السلم أمضى من سلاح الحرب في بعض الأحيان .

— أتظنين ان ملكة النافار تعود إلى باريس ؟

— نعم انها تعود .

وكوليني

— وكوليني ايضاً وكذلك كوندبه وهنري دي بيرات ، فاعمل بما أوصيتك به .

— أن أشيع بأن ملكة النافار مريضة ؟

— هو ذاك ، واني أؤكد لك انها مريضة جداً ، ولكن ليس هذا كل ما أريده فقد نسيت الأساس .

فاصفر وجه الفلكي وقال تريدين ان أشيع أيضاً ان الملكة النافار ولداً آخر غير ولدها هنري .

— نعم ، وأن هذا الولد أكبر من ابنها هنري ، وانه يحق له الملك إذا احتفى هنري .

فاطرق رينيه برأسه متنهداً وهو يقول ولدي ، ثم قال لها : إنها نميمة يا كاترين .

— نعم إنها نميمة .

— ولكن لا يصدقها أحد .

فهزت كتفيها وقالت : لقد عرفت رجلاً يا رينيه كان من بطانة الملك

فرنسوا الأول ، وهو ذكي الفؤاد لم أجد أكمل منه عقلا .

كان هذا الرجل يا رينيه شديد المطامع يريد ان يمتلك العالم بأسره ، ولكن مطامعه لم تكن قاصرة على تملك العالم في الحياة ، بل كان يريد أن ينتقل هذا الملك بعد موته إلى تلاميذه ، أما هذا الرجل فكان يدعى لويولا .

وصمتت كاترين هنيهة مفكرة ، وربما كانت تقول في نفسها إنها هي أعظم تلامذة هذا الرجل العظيم ، ثم عادت إلى محادثة رينيه فقالت :

أن لويولا هذا رآني يوماً وحيدة منفردة لا يكترث بي أحد في هذا البلاط فمد يده إلى نصرتي ولا أعلم أكان ذلك اشفاقاً منه علي أم انه رأى نفسي أرضاً صالحة لزرع بزور تعاليمه ، فلزمني مدة وعرف كل امري فما برح بلاط فرنسوا الأول حتى وهبني سلاحاً ماضياً استخدمه للدفاع والهجوم .

— وما هذا السلاح يا كاترين ؟

— سلاح الكذب .

— الكذب ؟

— نعم الكذب ، فهو سلاح الأقوياء .. سلاح اولئك الذين حذقوا بالحياة فعلموا ان اطايبها لا تلين إلا به .. سلاح اولئك الذين فحصوا ضمائرهم فحص الخبير فعرفوا أن الذمة وهم ، وشرف الصدق خرافة .. أولئك الذين خبروا الحياة الدنيا فعلموا انها انشئت من العدم .

ان هؤلاء العوام ، بل هذه القطعان التي نسوسها ونرعاها ، يجب أن تكره الكذب وتعلم انه من أفظع الاثام فانهم إذا عرفوا من قوته ما نعرف ، حاربونا به وكان لهم علينا الفوز .

أما نحن يا رينيه فيجب علينا ان نكون من الكاذبين كي نؤسس ملكنا على اساس متين .

— لا انكر يا ملكتي أن الكذب سلاح قوي ولكنه شديد الخطر على من

يستعمله . فاحذري منه .

— لقد أجبت لويولا ، بمثل ما اجبتني به الآن يا رينيه .. أتدري ما اجابني ؟

قال لي أن هذا السلاح يكون خطراً علينا إذا لم نحسن استعماله او اضطربت ايدينا حين الطعن به .

انك إذا اقبلت نمراً هائجاً وطعنته بخنجرك فاضطربت يدك حين الطعن تجرح ذلك النمر ولكنك تبقي له قوة يهجم بها عليك ويصيبك باكثر مما اصبته ، أما اذا أحكمت الطعن وابلغت الخنجر إلى القلب أجهزت عليه وأمنت انتقامه .

ثم ابتسمت الملكة وقالت ان هذا الرجل العظيم بعد ان اجابني هذا الجواب بسط لي افكاره وقال :

انك اذا كذبت كذب الجبان الوجل يتذعر الشعب او يتظاهر بالذعر واما إذا كذبت كذب الواثق المطمئن وأكدت الأكذوبة بما ينبغي من اسناد ، وجعلت الاشاعة تلو الاشاعة وثق الشعب انك تقولين الحقيقة او تظاهر بتصديق كذبك وهذا كل ما ينبغي .

ان من يخاف عدم تصديق كذبه ، يكون ضعيفاً منخلع القلب ، فليس في الوجود كذب لا يصدقه الناس ، بل يوجد كاذبون يعرفون ان يكذبوا .

ولأضرب لك مثلا على ذلك فافترض اني أشعت هذا القول وهو ان مدام اتامب حاولت تسميم الملك فرنسوا الأول .

فتفكر قبل كل شيء بعدد اولئك البلهاء الذين يقولون حين انتشار الاشاعة (لا دخان من غير نار) وأضف اليهم اعداء تلك السيدة الذين يطوفون في كل مكان فيقولون (لا نصدق هذه الاشاعة المتناقلة ولكنهم يؤكدون ان مدام اتامب ارادت تسميم الملك فرنسوا الأول) .

وأضف اليهم أيضاً اولئك الذين يتمنون اشاعة مثل هذه الأراجيف لمجرد ميلهم إلى الأراجيف والفضائح او لمآربهم الخاصة .

فاذا تم كل ذلك تجد انه لا يمر زمن وجيز حتى تعم تلك الاشاعة الكاذبة ، وتصبح حقيقة ثابتة يسجلها التاريخ .

أما مدام اتامب فانها تقدم على واحد من امرين فهي اما ان تحتقر هذه الاشاعة ولا تدفعها او انها تحاول الدفاع .

فاذا لم تدافع عن نفسها جرت الاشاعة في مجراها فلا تزال تنتقل من فم إلى أذن حتى تعم ، ثم يقول الناس ان هذه الاشاعة لم تنقض فهي صادقة لا محالة .

واذا أرادت الدفاع وحاولت نقض الاشاعة ، أشفع الاشاعة الأولى باشاعة أخرى تعززها وأذكرها مفصلة ، فأقول مثلا إنها قتلته بالسم ، وكان هذا السم رشاشاً أخضر اللون ، فتبرهن المتهمة انها لم يكن عندها في حياتها رشاش أخضر ، وتحصر دفاعها بالإشاعة الثانية فتثبت الأولى ، ويجعل الناس يتراهنون على أن يكون هذا الرشاش أخضر اللون ، أو أبيضه ، ولكنهم بينما يتناقشون في لون السم تكون الجريمة الأساسية وهي التسمم قد رسخت في الأذهان .

هذا ما تلقنته يا رينيه من لويولا ذاك الفيلسوف العظيم .

فقال لها رينيه : الملك اتبعت يا سيدتي هذه التعاليم .

— نعم وقد طالما جريت عليها فنفعتني .

فقاطعته قائلة : إن من يستخدمه ويحسن استعماله يسود العالم .. وإذا وجد زعيم حاذق وكان له تلامذة مدربون خاضعون فيجري على هذا المبدأ بلغ به وبهم من السيادة ما يشاء .

وهذا الذي يسعى لويولا ان يصل اليه ، ولا بد أن يأتي يوم تعلم فيه الأحزاب السياسية فائدة الكذب وتتخذه رائداً لها في الأعمال .

كن كاذباً يا رينيه فإن الكذب مقدس ، بدأنا به وبه نختتم ، فالكذب يا رينيه يؤرق واطمئنان إذا أردنا ان تبقى لنا هذه السيادة .

— إذاً ، سأكون يا ملكتي الجميلة من الكاذبين .

— إن ملكة النافار ستعود إلى باريس ، كما قلت لك فيجب إشاعة مرضها أن تسبقها ، فاذكر الآن ما يجب ان تشيعه وهو : أولاً انها مريضة وثانياً ان لها ولداً اكبر من ولدها هنري . ما بالي اراك مضطرباً ، ومن انباك اني لا أهتم لهذا الولد وأصيره ملك النافار بدلاً من هنري .

فقبل رينيه يد كاترين وقال لها وهو لا يستطيع إخفاء ظواهر سروره واعجابه : انك عظيمة في صدقك ، عظيمة في كذبك ، عظيمة في كل ما يوحيه ضميرك .

فابتسمت وقالت له : إذهب الآن وكن من الطائعين .

فخرج الفلكي من عندها وخرجت في أثره فذهبت إلى حيث كان الملك

* * *

ولما دخلت إلى قاعته الكبرى أسرع الملك إلى استقبالها فقبل يدها وأجلسها بجانبه .

فقالت له الملكة وقد تلبست بملامح القلق : اني قادمة اليك يا بني كما أحسنك كل يوم لأطمئن على صحتك ، فكيف أنت .. اني أرى عليك ملامح العافية والحمد لله على تعافيك .. فاني لم أذق طعم الرقاد منذ أكد لي طبيبك الخاص ..

فقال لها الملك : ماذا قال لك الطبيب يا أماه ؟

— يقول هذا الطبيب الحاذق يا بني ، إن هذه النوبات تقضي عليك ، ولكني لا أصدق شيئاً من هذه الأقوال ، فإنك بحمد الله على أحسن حال ،

وقد أمرت باقامة الصلوات السرية من أجلك في ثلاث كنائس

ـ اني لو كنت يا أماه في حاجة إلى الاطمئنان لاطمـأنيت لكلامك ، ولكني مثلك لا أثق بقول هذا الطبيب .

وفوق ذلك ، فإني أشعر من نفسي انني في خـيـر وعافية ، وان الذين ينتظرون موتي لا بد لهم ان يصبروا .

ـ حقق الله ما تقول يا بني ، وبعد فهل تظن انه يوجد في فرنسا من يسره موت الملك .

إنه حين مات ابوك كان يوماً مشهوداً في باريس ، وفي فرنسا ، فإن جميع الناس كانوا يبكونه ، فلماذا تريد أن يسروا إذا قدر الله وفاتك بعد عمر طويل .

فاصفر وجه الملك من الخوف والغضب ، وربما كان اصفراره من كليهما ، ثم حدق بأمه وقال : كيف يتفق هذا يا أماه ، فإنك لم تحـدثيني مرة الا وذكرت في حديثك أمر موتي .

ـ لأن قلوب الأمهات ضعيفة يا بني ..

ـ ولكن .. أقول لك ، انني في أتم عافية فلا تباحثيني بشأن صحتي بعد الان ..

أما أولئك الذين يسرهم موتي ويـستبشرون اذا أصبت بأقل عارض فهم في كل مكان حتى في نفس هذا القصر .

ـ الملك تريد الإشارة الى الهوكينوت ، يا بني ، فإن كان هذا فإني أحب ان أحادثك في شأنهم .

وبدت علائم الجزع على الملك فهز كتفيه وقال لمن حوله : ان أمي تريد الاختلاء بي أيها السادة .

فانصرف الجميع وبقي مع أمه فقال لها : إني مصغ اليك يا اماه .

ـ ألا ترى يا شارل إن حالة المملكة سيئة .. ألا ترى ان هذا النزاع

الدائم بين الأحزاب يفضي إلى انتقاص ذلك الارث الذي ورثته عن أبيك ، وهو وديعة عندك لخلفائك من بعدك .!

ـ بلا ريب ، فانه يسوءني ، بل يؤلمني أن أرى رؤوس أولئك البواسل تتساقط من أجل الخلاف على أمور تافهة .

وانا يسرني أن أرى منك هذه العزائم .

ـ ومتى رأيتني على غير هذا يا أماه ، ألم أكن دائماً ميالاً إلى السلم والتوفيق بين المذهبين . ألم أذعر لمنظر الدماء وأنشر الأمر تلو الأمر في منع الخصام . الست أنا الذي أراد التوقيع على معاهدة السلم في سانت جرمين ؟ فكيف تظهرين الآن سرورك لأمياني السلمية ، وأنا أول المجاهرين بها ، وطالما عالجتك فيما كنت تريدينه من الحرب والمذابح .

ـ إنك تجهلني أتم الجهل يا شارل .

ـ ولا أحب إلي من ان اعرفك حق العرفان يا أماه .

ـ لا يسوءني ان يعرفني اولادي فقد جهلني أبوهم قبلهم ، ولكن إعلم يا بني إني إذا كنت اردت الحرب فلم اقصد بها غير الوصول إلى السلم .

ـ لقد عرفت مرادك فانك تريدين إبادة الهوكينوت بغية الراحـة ، ولكني رأيت نتائج الحروب ، فاننا لم نضعف الهوكينوت في جهة إلا زادوا قوة في جهة أخرى

وقد كفى ما جرى يا أماه ، واحب ان تنفذ ارادتي ، فليكف اعوانك عن التحرش بالهوكينوت وينقطع رهبانك مثل بانيكارولا وسواه عن تحريض الشعب على العدوان .

ثم وقف مضطرباً حانقاً وقال سوف نرى من الحاكم في هذه البلاد فاني سأرسل جميع اولئك الأعوان الى الباستيل وكذلك رهبانك فسأبدأ منهم ببانيكارولا .

فضحكت الملكة ضحكا مغتصباً وقالت . لو سمعك الناس يا شارل لقالوا

انك مغضب على امك .

فوقف شارل فجأة وقد احمر وجهه فقال : اسألك المعذرة فقد احرجني هؤلاء الناس حتى لقد بت مهدداً في نفس قصري .

— انك مخطىء يا بني وعندي انه لا يجب ان نقبض على احد ولا سيما ذلك الراهب ومن دعوتهم بأعواني .

— بل اقبض عليهم ان استحسنت هذا ، بل اقبض على أعظم منهم ان راق لي بل اقبض على هنري نفسه ، فليحذروا فان للصبر حداً .

— عجبت لأمرك يا بني كيف تتكلم عن السلام وتريد ان تبدأ هذا السلم بالقبض على الناس حتى على اعضاء اسرتك .. كلا اني لا ادعك تحتاج الى القبض على احد فاني سأرشدك الى طريقة تضمن السلم العام .

— وهذه الطريقة ؟

— قد وجدتها .

— بشرط ان لا تكون فيها مذبحة او حرب جديدة ، او دفع مال .

فابتسمت كاترين وقالت له : اطمئن يا ابني ، فليس فيها شيء من ذلك ..

— اذاً تكلمي فاني مصغ .

— لست يا ولدي ، كما تظنني من اولئك الأبطال الذين لا يلهجون الا بذكر الحروب ، فما انا غير ام حنونة لا يشغلها في هذا الوجود غير هناء أولادها .

وقد فكرت ملياً في طريقة الوصول الى هذه الراحة فوجدت ان الهوكينوت ، وهم سبب شقائنا لم يعودوا شيئاً مذكوراً الا انهم خفت وطأة خطرهم لولا هنري دي بيران وكوليني .

— اذاً انت تريدين ..

فقاطعته امه قائلة: تمهل يا ولدي ، فان الذي اريد قوله هو ان الهوكينوت

اذا لم يكن لهم هذان الزعيمان لا يستطيعان اثارة الحرب علينا .

— ولكنهم لا يثيرون الحرب علي يا أماه .

— هو ذاك ، ولكنهم يثيرونها ، فلنفترض الآن ان هذين الزعيمين قد خضعا .

— هذا محال فانهما لا يخضعان .

فقالت كاترين بلهجة المنتصر :

— اني وجدت طريقة تفصل طريقة خضوعهما وهي ان اجعلهما من خير اصدقاء الملك ومحالفيه .

— انك ان وجدت هذا يا اماه اعترف انك من اذكى النساء .

— اذاً فاسمع ، ماذا تقول بكوليني اذا عقدت له راية الإمارة على جيش وارسلته الى هولندا لحماية اهل مذهبه من الدوق دي الب .

— اقول انه يقابل هذه النعمة بملء الشكر ، ولكننا نكون بهذا قد اشهرنا الحرب على الاسبانيين .

— سنعقد مجلساً يا بني للنظر في هذا الشأن فاني أعرف طريقة تمكننا من اجتناب محاربة اسبانيا فتبقى صديقتنا الوفية فاذا وجدت هذه الطريقة أترافق على ما اقترحته عليك بشأن كوليني ؟

— أوافق بملء الرضى حتى ولو اضطررنا إلى محاربة الإسبان ، فإن الحرب على الحدود خير من الحرب الداخلية .

— واذا تم ذلك فقد قضي القضاء المبرم على حزب الهوكينوت لبعد زعيمه

— هو ذاك ، ولكن يبقى هنري دي بيران .

— إن هنري ألد أعدائك الآن ، وقد خطر لي أن أجعله من خير أصحابك بل أجعله أخاً لك .

— ليس هنري من أعدائي يا أماه ، بل نحن دفعناه إلى هذا العداء ، ولكني أحب أن أعلم كيف تجعلينه من إخواني .

— بتزويجه اختك مرغريت .

— أختي ؟

نعم أختك ، أتظنه يأبى هذا الزواج ، أم تحسب ان أمه على كبريائها لا تجد نفسها أسعد النساء بهذه المصاهرة .

— ان الفكر حسن صالح ، ولكن هل ترضاه أختي .

— ان أختك ترضى بكل ما ترضاه ، فإن ذكاءها يضمن لنا اخلاصها .

فوقف الملك وقد سر لهذا الخاطر سروراً عظيماً وقال : ان هذا الزواج يضمن لنا السلم خير ضمان ، فإن هنري دي نافار إذا انتظم في سلك عائلتي ، وإذا شغل الأمير ال كولديني بهولندا ، تبدد شمل الهوكينوت لا محالة ولا يبقى لهم حزب .

— انك أنعشتني يا أماه فإني لا أطيق سفك الدماء ، فاعقدي المجلس غداً لننظر في هذه الشؤون الخطيرة .

ثم وضع يده على جبينه وقد أصفر وجهه وفاجأته النوبة العصبية لتأثير الفرح عليه ولكن أعراضها لم تطل .

فالتفت إلى أمه وقال لها . أرأيت يا أماه ما يفعل بي التأثير .. ألا نكون أسعد الناس إذا لم يكن حول عرشنا دسائس وحروب وتمتعنا بالسلم .

فوقفت كاترين وقالت له : اطمئن يا بني فسيكون ما تريد أن يكون ، واعتمد على أمك فإنها ساهرة عليك ، والآن فإني معتمدة على موافقتك ، وسأبدأ المداولة بشأن هذا الزواج .

— نعم نعم يا أماه فاذهبي في شانك ، وأنا ذاهب إلى أختي فاقنعها بالرضوخ وعلى هذا افترق الاثنان ، بعد أن اتفقا على هذا الزواج السياسي الذي أريد عقده لضمانة السلم ، فأفضى إلى أعظم مذبحة دموية سجلها التاريخ .

* * *

ولقد بسطنا في هذا الفصل سياسة كاترين دي مدسيس مع كاتم أسرارها ، ومع ولدها ونحن قادمون على بسط سياستها مع جواسيسها فنقول :

لما حين تركت ولدها وقد بلغت منه ما أرادت ، عادت إلى غرفتها فتاة خادمة ايطالية ، وأمرتها ان تدخل اليها اليس دي ليكس .

وبعد هنيهة دخلت اليس فاستقبلتها كاترين باسمة وقالت لها : متى عدت يا ابنتي لك جئت أمس دون ريب .

— كلا يا سيدتي ، فقد عدت منذ أحد عشر يوماً .

— كيف هذا أتكونين في باريس منذ هذا العهد البعيد ، ثم لا أراك غير اليوم .

— أسأل جلالتك العفو ، فقد كنت متعبة .

— نعم نعم ، فقد كنت محتاجة إلى الراحة ، وربما كنت محتاجة إلى التفكير أيضاً ، فلندع البحث في هذه الأمور الآن ، فإني راضية عنك يا اليس فقد فهمت مهمتك خير فهم ، وقمت بما انتدبتك له خير قيام ، وخدمت مصلحتي وهي مصلحة الملك ، بل المملكة فوجبت مكافأتك .

— لقد غمرتني جلالتك بإحسانها .

إني لا أقول غير الحقيقة يا اليس ، فقد عرفت بفضلك خطة ملكة النافار عدوتي الهائلة ، واحبطت مساعيها وبهذه المناسبة اثني عليك لحسن اختيارك الرسل ولحسن انشائك ، فقد كانت رسائلك باتم الجلاء ..

نعم يا ابنتي انك خدمتنا أجل خدمة ، فاخبريني الآن يا اليس كيف خرجت ملكة النافار من باريس ، فقد علمت إنها جاءت اليها وانت كنت تعيينها ...

حدثني بكل ذلك يا اليس ، فقد علمت أيضاً إنه حدث خصام عند الجسر ويعز علي ان تصاب ملكة النافار بسوء فاخبريني بما اتفق

فروت لها اليس عند ذاك جميع ما اتفق مما عرفه القراء في حينه .

فلما أتمت حديثها ضمت الملكة يديها وقالت : رباه ماذا أسمع .. القيتم مثل هذا الخطر الشديد .؟ إني حين أفتكر ان ملكة النافار كادت تقتل انتفض من الرعب ، فإن هذه الملكة عدوتي والحق يقال ، ولكني لا أريد لها الموت ، بل أريد التغلب عليها ، فأنا معها في موقف المدافع عن نفسه ليس إلا ، ودليل هذا إني لا أريد لها شراً ، بل أريد مسالمتها وساعيدك اليها في مهمة خطيرة تتعلق بهذا السلم . ولذلك يجب أن تسافري اليوم فقد ارتحت دون ريب .

فأطرقت اليس برأسها واضطربت اضطراب العصفور الذي يرى مخالب البازي ستنشب فيه .

وكانت الملكة تراقبها من طرف خفي فقالت لها : لقد فاتني أن أسألك عن السبب الذي حمل ملكة النافار على القدوم إلى باريس ، فما هو ؟

— إنها جاءت لبيع مجوهراتها .

— مسكينة وبعد فهل باعتها بمقدار كبير .. لا لا . إني لا أحب أن أكون من أهل الفضول ، وفوق هذا فقد بقي لها ما تبيعه . أما أنا فلم يبق لي غير القليل من الحجارة الكريمة .. وهي ليست لي أيضاً ، فقد خصصتها لأمثالك من المخلصين .. هاتي هذا الصندوق الصغير الموضوع على المستوقد يا اليس .

فامتثلت اليس وأحضرت لها الصندوق .

فأخذت كاترين الصندوق وفتحته أمام اليس ، فظهر ما فيه من جواهر تتألق فتدهش الأبصار .

غير أن اليس لم تكترث لهذه المجوهرات ، ورأت كاترين ما كان من عدم اكتراثها فقالت في نفسها : ترى ما هذا الانقلاب ؟ فمهدي بها تفتنها الجواهر ، ثم قالت لها : ماذا ترتأين بهذه المجوهرات يا اليس ؟

— أرى إنها جميلة يا سيدتي .

— دون ريب ، فإن لآلىء هذين القرطين لا عيب فيها . ولكن ما هذه الجواهر الآن التي أنستنا ما كنا نبحث فيه ، فلقد قلت لي ان ملكة النافار باعت مجوهراتها فمن الذي اشتراها ؟

— تاجر اسرائيلي يدعى اسحاق روبين

— لقد قلت لي أيضاً ان الملكة سافرت ، فإلى أين ؟

— إلى سانت جرمين ، ثم سافرت منها إلى تيورت ، وكان في نيتها أن تذهب منها إلى روشيل ، فلا أعلم إذا كانت غيرت خطة سفرها .

— ولكن مالي أراك قلقة يا ابنتي تظهر عليك علائم التعب في حين انك استرحت عشرة أيام . ولا أنكر ما تلاقينه من المتاعب ، ولكني محتاجة اليك ولا ثقة لي إلا بك ، والأعداء محدقون بي من كل جانب .

واعلمي إني لا اكتم عنك أمراً ، فاعلمي ان الملك يريد الاتفاق السلمي مع الهوكينوت . أفهمت .. وعند هذا تصبح ملكة النافار صديقة لنا وتأتي إلى باريس بل إلى اللوفر . ولذلك رأيت أن أرسلك بمهمة إلى هذه الملكة وهي مهمة عظيمة تقولينها لها شفاهاً ، ثم يتلوها المخاطبات الرسمية .

فحاولت اليس ان تجيب الملكة ، ولكنها قاطعتها قائلة : اسكتي واصغي إلي فان وقتي ثمين كما تعلمين .

إنك تسافرين بعد ساعة حيث تجدين على باب منزلك مركبة تقطع بك الأرض تهباً إلى أن تلحقي بملكة النافار .

والآن فاصغي إلي كل الاصغاء واطبعي كل ما أقوله في ذاكرتك ..

إني سأعهد اليك بمهمة مزدوجة . الأولى هي أن تعرضي على الملكة بلطف ولباقة ما سأخبرك عنه ، والثانية أن تنظري الحالة بعد المخابرة ، فاذا كانت صالحة تهدين الملكة هدية . وستكون الهدية منك إذ لا يجب في السياسة أن يكون لي أقل دخل في هذه الشؤون .. اطمأني يا ابنتي ان الهدية غير باهظة فستكون زوجاً من القفاز

ولك ان تخترعي مـا تشائين وتقولي ما تريدين بشان المهمة التي ساعهد اليك بقضائها ، وأما الهدية فاحذري أن تذكري كلمة تدل على ان لي علاقة بها ، بل تقولين انك اشتريتها من باريس ورأيت ان تهديها اياها .

فقاطعتها اليس قائلة اتوسل إلى جلالتك ان لا تزعجي نفسك بالمزيد فما فائدة منه .

فقالت الملكة في نفسها : يظهر انها فهمت الغرض من هدية القفاز فلنفتحه بالجوهرات .

ثم أخذت صندوق الجوهرات وفتحته بسرعة ، فأخذت منه مشطاً للشعر كان مرصعاً بستة حجارة من الياقوت النفيس وقالت لها : مـاذا تقولين بهذا المشط يا اليس فإنك إذا وضعته بين شعورك يصبح كالتاج ...

وهنا غيرت الحديث فجأة فقالت لها : إنك لم تذكري لي شيئاً عن كيفية دخولك إلى بلاد النافار واتصالك بالملكة فكيف كان ذلك ؟

إني فعلت ما اتفقنا عليه فان سائق المركبة أوقفها في المكان الذي عينته فتحطمت ، وصرت هناك إلى أن مر بي أحد رجال البلاط فسار بي إلى الملكة وانك تعرفين البقية .

وحده

فقالت لها

ـ ماذا يدعى هذا الرجل ؟

ـ فارتعشت اليس وقالت : إني ما عرفت اسمه ، فقد سافر في اليوم نفسه وانت ترين يا سيدتي إني لا استطيع القيام بالمهمة التي انتدبتني اليهـا ، فكيف يصح ان أذهب إلى ملكة النافار من قبلك ، وهي تعلم كما قلت لها إني فارة منك لأنك تضطهدينني .

ـ تقولين انك لا تعرفين اسمه ؟

ـ اسم من ؟

ـ اسم الرجل الذي أوصلك إلى الملكة .. ولكنك قلت لي انـه سافر في اليوم نفسه فلا نبحث به . أما خوفك من أن تسيء ملكة النافار ظنها بك

فلا محل له ، وذلك لأنك اتيت إلى باريس وعلمت إنك متصلة بملكة النافار فأحببت أن اجعلك رسولي اليها لميلي إلى مسالمتها .

وسأريدك ايضاحاً فلنبحث الآن في مسألة القفـاز ، فإني أوصيك بأن لا تفتحي الصندوق المودع فيه

ـ ولكن ذلك محال يا سيدتي .

فرأت الملكة من لهجتها أنهـا صادقة العزيمة فقالت لها : ماذا حدث ؟ لتعريني عن الحائل بينك وبين قضاء هذه المهمة فازيله .

ـ ان الحائل لا يزول ولا استطيع البحث في هذه الأمور ، فإني مـا فكرت بها مرة حتى شعرت ان الخجل يقتلني فان ملكة النافار عرفت .

ـ ماذا عرفت ؟

ـ عرفت ماذا كنت أصنع عندها .

فاضطربت الملكة وقالت : أواثقة أنت مما تقولين ؟

ـ نعم

فهاجت الملكة هياجاً عظيماً ، وجعلت تسير في الغرفة ثائرة مضطربة ، ثم وقفت وقالت لها : أخبريني بكل ما حدث .

ـ سعى كذا على الجسر رمى إلي أحدهم ورقة تتضمن أوامرك ، فلم أرها بل رأيتها كارين وأخذتها ، وكانت مرتابة بي فأزالت هـذه الورقة كل ريب ، فتركتني أعود معها إلى سانت جرمين وهناك طردتني .

وجعلت اليس تبكي وكارين مطرقة تفكر ، ثم التفتت إلى اليس وقالت لها : اسكتي روعك فانك قد لقيت عنـاء شديداً ، ولكن هذا كان في سبيل ملكتك فهو يهون عليك .

ونعم ان كل الضرر عاد إلي في هذا الإهمال ، ولكني لا أؤنبك عليه وقد وجدت لك عملاً خليقاً بذكائك وجمالك فـلا نبحث بعد الآن في ملكة النافار ، ولكن ثقتي لا تزال بك شديدة ، وسأبرهن لك عن هـذا وتكونين

— ولكن ألم تقولي يا سيدتي أن ملكة النافار قادمة إلى باريس .

— هذا ما أرجوه فلا تذكريه لدى أحد ، وأنت تعلمين كيف أعاقب من يخونني ، وانما أقول لك هذا من قبيل الانذار ، فان ثقتي بك شديدة وبعد ، فأي ضرر ترينه من قدوم ملكة النافار إلى هنا ؟

— إلى اللوفر يا سيدتي ؟

— نعم إلى اللوفر .

— ولكنها قد تراني فيه ، ألا ترين يا سيدتي أنها إذا لم ترني كان هـذا خيراً لي ولك على الأخص ، فإذا أذنت جلالتك تغيبت بضعة أشهر أو عاماً إلى أن يصدر أمرك لي بالرجوع .

— لقد أصبت فـلا ينبغي ان تراك ملكة النافار وفوق هذا فان المهمة التي سأعهد اليك بها لا تقتضي وجودك في اللوفر ، ولكنك لا تبرحين باريس وتتداول بالمكاتبات .

فابقي الآن في المنزل الذي تقيمين فيه ، وفي كل ليلة ترسلين إلي تقريرك .

— سأفعل يا سيدتي .

— والان فاصغي إلي فانـك خدمتني خدماً جليـلة أوجبت علي مكافأتك عنها ، فاني استخدمتك منذ عشرة أعوام ، كنت فيها خير العاملات لخير الملك وبجده : نعم إنك اشتغلت كثيراً يا ابنتي فحققت لك الراحة ، وستكون هذه المهمة التي سأعهد اليك بها آخر المهمات .

فظهرت علائم الفرح على محيا الفتاة وقالت ، أحق يا سيدتي ما تقولين ؟

— دون ريب فإني بعد قضاء هذه المهمة أطلق لك الحرية .

ولا اقتصر على أطلاق حريتك يا اليس ، بل أغنيك وأعين راتباً ضخماً تقبضينه من خزينة الملك .

وفوق ذلك فان لي سبعة قصور في باريس أمنحك واحداً منهـا بالاك

وهو كياك ، فيكون مهراً لك عند زواجك لأني أريد تزويجك يا اليس .

فجعلت اليس تقول في نفسها إنها مهمة وتنقضي ، فأصبح غنية وأعيش مع من أحب كما أشاء .

أما الملكة فانها استأنفت حديثها فقالت : والان فاعلمي المهمة التي سأعهد اليك بها وانتبهي جيداً يا اليس فان المهمة خطيرة .. اني غفرت لك فشلك مع فرنسوا مونمورانسي ، ولكني لا اغتفره لك في هـذه المهمة مع هذا الرجل . نعم إني أطلب اليك إغواء رجل ، وأريد ان يكون لك به ملء الثقة فيهتك قلبه وتخترقين حجاب ضميره وتنظرين إلى خفايا نفسه كما تنظرين من خلال زجاج شفاف .

ان هذا الرجل في باريس وهو من ألد أعدائي ، بل هو خطر دائم يتهددني وسأخبرك كيف وأين تجدينه فانه دائم الاختبـاء ، ولكنك ستهتدين اليه بارشادي ، فافعلي ما شئت بشرط ان تظفري به .

— ماذا يدعى يا سيدتي هذا الرجل ؟

— يدعى الكونت دي ماريلياك .

فدوى هذا الاسم في اذني اليس دوي الرعد القاصف ، فانه اسم حبيبها ديودات واصفر وجهها اصفراراً شديداً وبذلت أشد ما يمكن بذله من التجلد كي تخفي ذعرها ، فلا تصيح ولا يغمى عليها ، ولا يظهر من ملامحها ما يثير الريب في نفس الملكة .

غير ان الملكة ما خفي عليها هذا الاضطراب ، وربما كانت أدركت سر الفتاة ، فانها مشت إلى اليس فاخذت يدها وضغطت عليها ضغطاً شديداً وهي تقول : أتعرفين هذا الرجل ؟

فصمتت اليس حتى همت أن تجثو أمام الملكة وتبوح لها بامرها ، ولكنها أجهدت نفسها جهداً عنيفاً فتجلدت وقالت : لا .

فقالت لها الملكة : وأنا أقول إنك تعرفينه .

وكانت ساعة هائلة بين المرأتين ، فان كاترين كانت تنظر إلى اليس نظر النسر إلى الفريسة ، وكانت اليس تضطرب أمامها اضطراب الحمامة بين مخالب ذاك النسر وهي لا تجسر أن تنظر اليها .

فقالت لها كاترين : نعم أنت تعرفينه وتحبينه .

فتمتمت اليس قائلة إني لا أعرفه .

ثم سقطت مغميا عليها .

فأسرعت كاترين عند ذاك إلى خزانة فاخرجت منها زجاجة ففتحتها ووضعتها على أنف اليس فاستفاقت في الحال وقالت لها كاترين : قفي .

فوقفت اليس وجلست كاترين في كرسيها ، وقد ضبطت نفسها بسرعة غريبة وتلبست بملابس الدعة واللطف فقالت :

ماذا أصابك يا ابنتي ، ابلغ منك التعب إلى هذا الحد ، أم فقدت تلك الهمة وتلك البسالة النادرة التي كنت أعهدها فيك .

اعترفي لي بكل دخائلك يا اليس فانت تعلمين إني أحبك وأغفر لك بعض زلاتك .

فوقفت اليس موقف الحائرة بين الخوف من عقاب كاترين إذا باحت لها بأمرها ، والرجاء بأن تحملها الشفقة أو السياسة على اعفائها من تلك المهمة .

وعادت كاترين إلى اغوائها فقالت لها بلهجة المشفق الحنون : اعترفي لي بكل شيء يا اليس ، فاني أرى التعب باديا عليك ، وانما عهدت اليك بهذه المهمة وأنا أنوي نية صادقة أن تكون آخر أعمالك فتعيشين بعدها عيشة هنيئة راضية مغمورة بنعم الملكة والملك .

على إنك إذا كنت لا تستطيعين قضاءها وأردت الراحة منذ الآن فلا أبخل بشيء من وعودي وأمنحك كل ما وعدتك به من قصر ومال ومهر وراتب فإني أقدر غيرتك حق قدرها ولا أريد لك إلا الخير .

وكانت اليس تتمعن في كلام الملكة ولهجتها فلا تستشف منه غير الصدق ،

فخدعت بزخارف كلامها وقالت لها بلهجة المتوسل : التمس من جلالتك أن تأذن لي .

– ماذا تريدين ان أأذن لك يا ابنتي ؟ تكلمي بجلاء .

فأجابتها بصوت يرتجف : إن تعبي فوق ما تتصورين يا سيدتي ، وقد رمت إرضاء جلالتك حين أمرتني باغواء ذاك الرجل، لاسيما وقد كنت واثقة إنها آخر أعمالي ، ولكنك حين عينت الرجل ورأيت ان المهمة قد تقررت شعرت بأن تعبي قد استفحل وكان ما رأيته من ضعفي .

– إذا لم يكن الرجل الذي أثر بك هذا التأثير ؟

– ولكني لا أعرف هذا الرجل بل اني نسيت اسمه .

وقد قالت هذا القول باضطراب ظاهر يكفي الملكة للاستدلال به على كذبها لو كانت في حاجة إلى دليل .

ثم مضت في حديثها فقالت : كلا يا سيدتي ، ليس اسم هذا الرجل الذي اغراني ، فقد قلت اني لا أعرفه ، ولكن التعب انهك قواي وهد حيلي بحيث بت في أشد حاجة إلى الراحة .

وقد عمرتني جلالة الملكة باحسانها ، فأنا غنية بالمال والأرض والجواهر ، وقد نلت من مكارمها فوق ما أرجوه ، ولكني بت أؤثر الراحة على كل غنى وأود لو كنت فقيرة معدمة على ان أكون مطلقة القياد أسافر وأعود وأضحك رأيي كما أريد ولا سيما البكاء .

وهنا شهقت الفتاة بالبكاء فتظاهرت كاترين بالشفقة وقالت : مسكينة هذه الفتاة فقد أنهكتها تعبا وباتت في حاجة الى الراحة .

فركعت الجاسوسة أمامها وقالت : هو ذاك ايتها الملكة العظيمة ، فلا أحتاج إلا إلى الراحة .. إشفقي علي يا سيدتي ، فقد خدمتك بملء الوفاء والاخلاص

ايهي ، فإنه يسوءني أن أراك راكعة أمامي ، تتكلمين بلهجة

المتوسل ، أو لهجة ... المذنب ، انت تريدين الانقطاع عن العمـــل ، اليس كذلك ؟

ـ إذا أذنت لي جلالة الملكة بذلك فلدتني نعمة لا أنساها مدى الحياة .

فابتسمت وقالت : إذاً لا تريدين قضاء هذه المهمة وهي آخر مهمة كما قلت لك يا اليس .

ـ يظهر ان جلالة الملكة لم تعلم حقيقة عذري .

ـ إنها آخر مهمة يا اليس .

ـ سيدتي اشفقي علي .

ـ لقد قلت لك يا اليس إنها آخر مهمة .. اصغي الي ، اني أعطيك هدية لا تقدر بثمن وهي كائنة في أسفل هذا الصندوق ، وان هـذه اللآلىء التي رأيتها لا تذكر بازائها .

ـ سيدتي أتوسل اليك .

ـ دعيني أظهر لك هذه الجوهرة المكنونة التي لا تعادلها عندك جواهر الأرض .

ثم أخذت الملكة الصندوق ففتحته وأخرجت كل ما فيه وأزاحت غطاء مخملياً كان في أسفله وقالت لأليس : انظري الآن .

فنظرت اليس نظرة تدل على عدم الاكتراث ولكنها ما لبثت ان رأت ما عرضته الملكة عليها حتى تقدمت خطوتين وقد امتقع لون وجهها وبسطت يديها وقالت .. الرسالة .. رسالتي .

فأسرعت الملكة إلى أخذ تلك الرسالة وخبأتها في صدرها وقالت لها :

ـ نعم إنها الرسالة التي كتبتها يدك .. أتعلمين ما يكون عقـاب الأم إذا قتلت ولدها واعترفت بالجريمة ؟

ـ إن الكتاب زور فإن ولدي حي لم يمت .

ـ وكذلك إقرارك بالقتل فإنه موجود .. إن قاتلة ولدها يا اليس يحكم

عليها بالقتل .

ـ رحماك يا سيدتي واشفقي علي فإن الولد لا يزال في قيد الحياة .

ـ ولكن امه مذنبة معترفة إنها قاتلة فهي ستدفع إلى يد الجلاد .

ـ رحماك .. رحماك !

ـ لا سبيل إلى الرحمة وأنت مخيرة بين أمرين ، فإما تمتثلين لما أريد ، أو أقضي عليك القضاء المبرم بهذا الكتاب .

ـ سيدتي .. لا أستطيع .. اقسم بالله اني لا أستطيع الامتثال .

فقرعت الملكة مقضبة جرساً أمامها فأسرعت اليها الخادمة فقـالت لها :

أين المسيو ڤانسي رئيس الحراس ؟

ـ انه عند جلالة الملك .

ـ قولي له ان يحضر الي .

فركعت اليس وجعلت تبكي وتقول : رحماك يا سيدتي ، والملكة منشغلة عن توسلها وهي تسير في الغرفة وعلائم الغضب بادية بين عينيها .

إلى أن أقبل رئيس حراسها فوقفت الملكة وقـالت له : اصغ الي يا مسيو ڤانسي .

وفي الوقت نفسه وقفت اليس وقالت للملكة قبـل ان يخرج الحكم من شفتيها : سيدتي اني امتثل .

فالتفت كاترين حديثها مع ڤانسي كأنها لم تسمع ما قالته اليس وقـالت : أتعرف يا مسيو ڤانسي السيدة اليس دي لبكس ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ إذاً فاعلم انها قد تحتاج في هذه الأيام اليك وإلى رجالك فامتثل لأوامرها وسر معها إلى حيث تريد واقبض على كل رجل تسألك القبض عليه ، فاذهب الآن ولا تنس هذه الأوامر .

فانحنى رئيس الحراس دون ان يظهر عليه شيء من علائم الدهشة لكثرة

تمرنه على هذه الخدع .

فلما انصرف قالت لأليس : اعزمت عزماً اكيداً على الامتثال ؟

فأجابتها تلك المنكودة بصوت خافت : نعم يا سيدتي .

ـ وستحتالين على الاتصال بالكونت دي ماريلياك ؟

ـ نعم ...

ـ إذاً اعلمي الآن انك إذا خـــدعتني او خطرت لك خيانتي في بال لا اعاقبك بتسليم هذا الكتاب الى القاضي ، بل بتسليمه إلى سواه واضيف اليه تاريخ حياتك .

ـ الى من تسلمينه يا سيدتي ؟

ـ الى الكونت دي ماريلياك .

فصاحت اليس صيحة ذعر ، وسقطت عند قدمي الملكة مغمياً عليها لا تعي .

وحده قاضيه
مقتدى البلاس

مقابلة

نقدم لنـــا القول في بدء الفصل السابق ان تلك الحوادث التي جرت فيه ، قد حدثت في صباح اليوم الذي خرج فيـــه باردالبان من سجن الباستيل .

وقد عرف القراء كيف ان باردالبان كان قد عول على أن لا يكـــترث

لويزا وأمها .

وان لا يوصل ذلك الكتاب الى فرنسوا مونورانسي ، وكيف انه خرج من قلعته على هذه النية ، فوجد نفسه قرب بيت مونورانسي وشعر ان يداً خفية تردفه الى ذلك القصر .

وقد ذهب الى بابه وطرقه مغضباً حـــانقاً ، وكان غضبه على نفسه وهو لا يعلم .

وبعد هنيهة فتح له جندي من جنود المارشال وهو رجل عظيم الجسم هائل الخلقة فسأل باردالبان عما يريد .

وكان باردالبان قد اشتد غضبه لتأخرهم في فتح الباب فبدأ الجندي بالحدة وأفضت الحدة إلى الخصام والضرب فكان الفوز لباردالبان وجرح خصمه في أنفه جرحاً أسال دمه .

وبعد هذا الخصام عقد الصلح بينهما وعرف باردالبان ان المارشال غير مقيم في القصر وانه قد يعود اليه غداً وقد يتأخر اسبوعاً .

فاستاء لهذا الاتفاق وطلب إلى الجندي أن يخبر الأميرال حين عودته انه جاءه في أمر خطير خاص به وحده وانه سيعود اليه .

ثم تركه وانصرف الى جهة نهر السين فأقام هناك فوق صخر يتأمل في حياته ويسترسل في فلسفة الحياة شأن العشاق . الى ان استقر على هذه الحقيقة ، وهي انه كان كاذباً في كل ما ظنه من عدم مبالاته بلويزا وانه يحبها حباً اكيداً لا سبيل الى الرجعة فيه ولكنه حب من غير رجاء .

ثم جعل يقول في نفسه : نعم لا رجاء لي في حبها ، ولا صبر لي في هواها فلا بقي في الحالين .

ولا ريب عندي اني إذا أنقذتها بحياتي أو بحسامي نال المكافـأة سواي ، فان هي كانت من اسرة مونورانسي لا تحب فقيراً خاملا مثلي .

ومع هذا فاني لا أطيق التخلي عن انقاذها فلا بد لي من البحث عنها ، وعند ذلك اقول لها .. كلا . . لا اقول لها شيئاً .. فلأجدها اولاً ثم نرى ما يكون ؟

وقد استنتج من كل هذا ، انه فقد لويزا في الحالتين ، فهو اما ان ينقذها ولا يطمع في زواجها ، واما ان ينقذها فلا يراها ، ولكنه رأى انه لا بد له من انقاذها ، اذ لا يطيب له عيش وهي في الأسر فعول على البحث عنها دون أن يطمع بمكافأة على الاطلاق ، مكتفياً بأن تكون سعيدة وان كان هو شقياً في هواها .

ولما أقر على هذا الفكر قام من مكانه ، وكان الظلام قد هجم وسار عائداً إلى الفندق الذي يقيم فيه ، فكان يسير الهوينا وهو مطرق مفكر حتى وصل إلى شارع سانت دينيس فشعر ان رجلاً يركض وراءه .

ولكنه لم يتدان الى الالتفات وظل سائراً غير مكترث إلى ان شعر بصدمة عنيفة

فان هذا الرجل الراكض قد ارتطم به وصدمه صدمة شديدة سقط بعدها على الأرض بعيداً عن باردالیان .

وكان باردالیان قد سقط من الصدمة ايضاً ، فنهض وجرد حسامه وهم بقتل الذي صدمه ، ولكنه جمد في مكانه مندهشاً مأخوذاً ، لأنه سمع صوت هذا الرجل يشتم شتماً خاصاً ، وقد نهض من سقطته بعد تلك الشتائم واستمر في الركض .

أما باردالیان فقد كانت دهشته من هذا الصوت عظيمة لأنه ظن انه صوت أبيه ، لاسيما وقد كان الشتم خاصاً به .

فلم يكد يثوب من دهشته حتى جعل يركض في أثر الرجل ، ولكن بعد فوات الأوان ، فان الرجل كان قد سبقه بمراحل وتوارى عنه في شارع سانت دنيس .

وعاد باردالیان الى الفندق فسأل إذا كان قد قدم اليه أحد منذ حين وجيز ، فأجابوه سلباً ، فعلم أنه كان مخطئاً إذ لو كان الرجل أباه لتقدمه الى الفندق .

وبعد ان تعشى خرج من الفندق وذهب الى قصر الأميرال كوليني فقرع الباب ثلاث مرات متوالية كما اوصاه ديودات .

ففتح الرفاج (وهو الكوة الصغيرة في وسط الباب الكبير) ، واطل منه رجل فقال له : من أنت ؟

فذكر له باردالیان كلمة المرور التي لقنه إياها ديودات .

ففتح الباب عند ذلك وقال له حارسه : من تريد ؟

— أريد أن أرى صديقي ديودات .

— اسألك المعذرة يا سيدي فهل تتفضل علي بذكر اسمك ؟

— اني أدعى الشفالييه دي باردالیان .

فهش الرجل اليه وترحب به ثم قال له : أهلاً بك من قادم فاني شديد الشوق الى التعرف بك .

من أنت يا سيدي ؟

انك لا تعرفني ، ولكنك تعرفني بالاسم فيما اظن ، فاني أدعى الليني

وحده قاضيه
منتدى الياليس

- ٣٠ -

الهوكينوت

كان تاليني هذا صهر الأميرال كوليني وهو في الثلاثين من عمره جميل الطلعة شديد البنية حلو الحديث ، وقد كان فوق ذلك من الأبطال المجربين .

فلما دخل باردالیان أقفل الباب الكبير ودفع المفتاح الى حارسه فقال له : اننا لا ننتظر بعد الآن غير رجل واحد لا يمكن ان تنخدع به لأنك تعرفه .

ثم صعد مع باردالیان سلماً من الحجر وأدخله الى غرفة وهو يقول : اني توليت الليلة الحراسة بنفسي لأننا عاقدون اجتماعاً وقد حضر الأميرال ودي كونديه وجلالة ملك النافار .

فلم يستغرب باردالیان ما أبدوه من الثقة به ، ولكنه كان يقول في نفسه: ترى أأحضر مؤامرة الهوكينوت بعد ان حضرت مؤامرة دي كيز .

ولما أدخله تاليني الى الغرفة عانقه وضمه الى صدره بتودد عظيم وهو يقول مرحباً بالبطل الذي انقذ ملكتنا العظيمة . انك يا سيدي الشفاليه قد صنعت خير ما يصنعه انسان لاسيما وانت على غير مذهبنا ، فبات كل منا مديناً لك بما صنعت يود ان يراك فيشكرك .

فقال له باردالیان : الحق يا سيدي اني حين انقذت ملكتكم لم اكن اعلم انها من الملكات .

وبالي أسألك المعذرة ، لقد أتيت لشأن خطير عندي ، ملتمساً فيه مساعدة صديقي ديودات ، فقد تفضل بوعدي بالمساعدة حين أحتاج اليه .

= بل كلنا نبذل أنفسنا في سبيل مساعدتك ، وأما الكونت دي ماريلياك ...

= الكونت دي ماريلياك ؟

= نعم ، فهذا اسم صديقك ديودات الحقيقي ، وهو منذ عرفك لا يحلف إلا باسمك .

= أهو هنا الليلة ؟

= نعم وسأخبره بقدومك .

وعندها نادى تاليني خادماً وأصدر اليه أمراً .

فامتثل الخادم ، ولاحظ باردالیان انه كان مسلحاً مثل تاليني ، كأنما مولاه الهوكينوت كانوا محاصرين في قلعة ، او أنهم قادمون على حرب .

وبعد هنيهة أقبل ديودات فسر سروراً عظيماً حين رأى باردالیان وقال له: أهلاً بالصديق الحبيب فانك ما أتيتني إلا وأنت في حاجة إلي فقل أيها الصديق إني مستعد لسفك دمي في سبيلك .

فتأثر باردالیان لمروءة صديقه وقال : الحق إني لا أعلم كيف أشكرك أيها الصديق .

= أتشكرني أيها الحبيب وانا أحق بشكرك بل نحن جميعنا مدينون لك بإنقاذ ملكتنا .

وعندها تركهما تاليني مختليين وانصرف .

فاستأنف ديودات الحديث فقال : بل انا المدين لك خاصة ايها الصديق فقد جئت إلى باريس قانطاً كئيباً فأقمت ساعة معك أزاحت عني الكآبة وفرجت

عن نفسي الهموم .

" ـ يسرني ان أرى ثغرك يبسم وعينيك تضحكان على نقيض ما رأيتك اول مرة ، فهل حدث ما دعى الى هذا التفريج ؟

ـ بل حدث لي ما أدعوه سعادة ونعيماً ، وهو ليس من الأسرار التي أحب كتمانها عن إخواني لأن ثقتي بهم عظيمة ولكنهم لا يدركون كنهه فأحببت ان أبوح لك به دون سواك .

فابتسم باردالیان وقال : أتظن إني انا أفهمه .

ـ لا أظن بل أثق فاعلم إذاً اني من العاشقين .

فتنهد باردالیان ولم يجب .

وأتم دیودات حديثه فقال : بليت بالحب منذ عام ، فلكني يجملني كما سيملكك يوماً من الأيام ، ولا بد للقلوب النقية كقلبك ان تنفذ اليها أشعة الغرام .

أما أنا فقد بلغ الحب مني مبلغاً لا يبلغه من قلب إنسان ، فما تمثلت لي الحياة إلا بمن أحببت ، فاذا اضطررت إلى الرجوع عنها رجعت من غير عقل ، وإذا علمت يوماً إنها خدعتني ..

ـ ماذا تعمل ؟

ـ أموت ... ولهذا قلت لك إني تفاءلت خيراً بعشرتك وارجو ان تفتح لي صحبتك أبواب السعادة لأني حين جئت إلى باريس كنت معتقداً اني مفارقها فراقاً طويلاً وربما كان فراق الأبد .

وكنت قد تلقيت أوامر تقضي علي بالذهاب الى سانت جرمين حيث كانت ملكة النافار ، فعهدت إلي بمهمات كثيرة ، أخصها ان أذهب اليك لأشكرك بالنيابة عنها .

فلما كنت قادماً اليك لقيت من أحب في فندق قرب باريس ، وهي حكايه طويلة سأقصها عليك في غير هذا المقام ، فاعلم الآن اني اتفقت وإياها

على اللقاء مرتين في الأسبوع ، إلى أن تتيسر لي العودة إلى بيران والزواج بها ، فهي الآن خطيبتي وهي وحيدة في هذا الوجود وسأبقى أخاها إلى أن أعود وزوجها .

ـ وانت فاعلم ايها الصديق إني عاشق مثلك ايضاً .

ـ ما هذا الهناء اننا سنعقد إذاً زواجنا في يوم واحد .

ـ إني أحب كما تحب ايها الصديق أي ان غرامي يشبه غرامك بشدته ، ولكن الفرق بيني وبينك انك ترى خطيبتك مرتين في الأسبوع ، وأنا لم أكلمها كلمة الى الآن .

وأنت واثق من انها تحبك ، وأنا أخشى ان تكون تكرهني .

وأنت تعرف اين تقيم حبيبتك ، وأما التي أحبها فقد اختطفت ولا أعرف أين هي .

وهذا الذي يشغلني الآن ، فاني أريد البحث عنها ، ولو كنت واثقاً من أنها تجازيني بالكره ، ولأجل ذلك ، أتيتك ملتمساً مساعدتك .

ـ إذاً اعتمد علي أيها الصديق لأننا سنبحث في كل أنحاء باريس . فهل لك أن تذكر لي ما تعرفه من حوادث هذا الاختفاء .

فروى له باردالیان جميع ما اتفق له ، من بدء تولعه بلويزا إلى يوم خروجه من السجن ، وكيف ان لويزا استغاثت به في ساعة القبض عليه ، وكيف عهدت اليه أمها بإيصال الكتاب الى صاحبه ، إلى غير ذلك مما عرفه القراء ، ولم يكتم عنه غير اسم مونمورانسي على ان يذكره له حين يبدأ معه بالبحث .

وقد ختم حكايته بقوله : أرى انه يجب أن نبدأ تفتيشنا بضواحي سان ميشيل ، فان الذي أشكك بأنه اختطفها ، مقيم في تلك

— ليكن ما تريد فتى تحب ان تبدأ .

— غداً .

— وسأكون منذ الغد طوعاً لك في كل ما تريد . والآن تعال معي لأعرفك بأولئك الذين يتوقون إلى معرفتك .

— من هم ؟

— ملك النافار والبرنس دي كوندبه والأميرال ... تعال أيها الصديق لأنك لا تجد بينهم غير المعجب بك ، لا سيما بعد أن أخبرهم بحادثة فرارك من الباستيل .

فامتثل باردالیان وسار مع صديقه إلى القاعة الكبرى ووجد خمسة رجال مجتمعين حول مائدة ما عرف منهم غير تاليني والأميرال كوليني .

فأخذ ديودات باردالیان بيده ودنا من المائدة فقال : يا صاحب الجلالة ويا سمو البرنس ويا سيدي الأميرال أتشرف بأن أقدم لكم الشفالييه دي باردالیان منقذ ملكة النافار

فنظر الجميع اليه نظرة إعجاب ومد الأميرال يده إلى باردالیان وقال له أرجوك أيها الشفالييه ان تصافح هذه اليد التي تمد اليك ، فقد كنت قوياً كشمشون وشجاعاً كداوود .

ثم مد له الملك يده قائلا : وأنا أيضاً ، أود أن أصافح تلك اليد التي أنقذت أمي .

فركع باردالیان أمام الملك ، حسب العادة في ذاك العهد ، وقبل يد هنري ملك النافار ، ذلك الذي صار ملكاً لفرنسا ، باسم هنري الرابع .

ثم صافحه بعد ذلك البرنس هنري دي كوندبه ، وقال له : لقد روت لنا جلالة الملكة عن بسالتك ، ما دلنا انك من أبطال ذلك العهد القديم . وقد كان الأبطال ، في ذاك العهد ، يتعانقون حين يلتقون

فلنقتد بهم .

فأجابه باردالیان : إني أقبل هذا اللقب لاتصاله إلي من لويس دي بوربون ، ابن ذاك البطل الذي مات في المعركة ، فكان فخر المعارك ، وحلية التاريخ .

فسر البرنس بهذا الثناء على أبيه وقال له : أنت ذكي الفؤاد أيها الشفالييه كما انت قوي الساعد .

ثم تقدم القائد أندلوت فقال له : إذا كانت صداقة مثلي تفيدك أيها الباسل فانا من الأصدقاء .

فأجابه باردالیان : أنت منخدع يا سيدي بعرض الصداقة وانت تريد أن تعرض علي مثال بسالتك لأنهج مناهجك .

فقال له الملك : إني شديد الاعجاب بك ايها الشفالييه ، واذا كنت ترى قائدنا أندلوت مثالاً يتبع ، فقد اتبعنا هذا المثل ، وتلقينا دروسنا من هذا البطل .

فاحمر وجه القائد الشيخ سروراً وقال : مولاي ...

فأجابه الملك قائلا : إني أعرف ما أقول واذا كنت لم تعين مارشالاً بعد فما ذاك ذنبي ولكن ستبلغ ما تستحقه فتعين أمير الجيوش كما يعين ابن عمي دي كوندبه القائد العام والأميرال رئيس الوزارة وتاليني قائد الفرسان ودي ماريلياك رئيس رجال البلاط .

نعم ، اني أريد ان يجازى كل مخلص لي بما يستحق من حسن الجزاء ولا أريد ان أرى حولي غير شفاه باسمة وعيون ضاحكة .

فصبراً ايها الأبطال ، ولا يعقب المطر غير الصحو ، ودعوني أكبر ، وسوف ترون .

فضحك الجميع كأنهم يريدون بهذا الضحك إرضاء الملك

وسر الملك لضحكهم وقال : هذا الذي أتمنى أن أراه بين الذين

يحيطون بي .

ثم التفت الى باردالیان وقال له : ماذا تقول بملكة يضحك جميع أبناؤها هذا الضحك .

فأجابه باردالیان : إن هذه المملكة يا مولاي يكون ملكها من التوابع .

فأثنى الملك عليه لجوابه وقال له : ان ملكاً يريد أن يجعل رعيته سعداء لا يقتضي ان يكون تابعة ويكفيه ان يريد ذلك .

ثم نظر الى باردالیان نظرة رضى ، كأنه يبحث في أن يضمه الى حاشيته .

وعندها فتح الباب ودخل خادم مدجج بالسلاح فسار إلى الأميرال كوليني وكلمه همساً .

ووقف الأميرال وقال بلهجة شفت عن سروره مخاطباً الملك :

— مولاي ان المارشال دي مونمورانسي أجاب دعوتي وهو الآن في قاعة الانتظار .

فبرقت عينا الملك ببارق من الرجاء ، ولكن هذا البارق ما لبث أن انطفأ ، وعادت اليه سكينته العادية وقال : اني سعيد برؤية هذا العزيز فرنسوا فليدخل . وأنت يا ابن عمي إبق معي لأني احب ان تحضر هذه المقابلة .

فنهض الجميع عندها بغية الخروج من القاعة .

والتفت ديودات إلى صديقه باردالیان فقال له : بماذا تفتكر أيها الصديق ؟

فارتعش باردالیان كمن صحا من حلم مزعج لأن اسم فرنسوا مونمورانسي قد كهربه فاعتذر لصديقه ثم انحنى أمام الملك .

ومد له يده مرة ثانية وقال له : لقد أخبرني الكونت دي ماريلياك أنك تؤثر الاستقلال ولكني أرجو مع ذلك أن لا يكون هذا اللقاء آخر لقاء لنا لو كنت منا .

فأجابه باردالیان قائلاً : أسأل مولاي المعذرة ، فلا أجد ميلاً الى الحروب الدينية ، لأن أبي أهمل تعليمي علوم الدين ، فصرت كأني من غير دين .

على أني أسفك دمي في خدمة مولاي الخاصة ، إذا كان سفك دمي يفيد مولاي الملك .

— حسناً . سنعود الى هذه الأبحاث في فرصة أخرى .

وعندها خرج باردالیان وديودات وجميع من في القاعة ، فقال ديودات لباردالیان : ماذا أصابك أيها الصديق ، وما هذا الاصفرار الذي اعتراك ؟

— أهو المارشال دي مونمورانسي الذي جاء لمقابلة الملك ؟

— هو نفسه .

— إنه فرنسوا دي مونمورانسي اليس كذلك ؟

فذهل ديودات لتكرار سؤاله ، وقال له : انه هو بعينه ، فلماذا هذا السؤال ؟

— إذاً فاعلم أيها الصديق أن هذا المارشال هو والد الفتاة التي أحبها ، وعجب أن أعطيه رسالة إمرأته التي أخبرتك بها ، وهي معي الآن تكاد تلهب صدري . فإذا لم أعطه إياها كنت خائناً سافلاً ونزعت من لويزا ما تطمع به من الحماية ، وإذا أعطيته إياها كرهني وفقدت لويزا الى الأبد .

وحده قاضيه
منتدى ليلاس

- ٣١ -

فرنسوا دي مونمورانسي

ان هذا الرجل الذي جاء لمقابلة ملك النافـــار ، كان يظهر أنه في الأربعين من عمره ، وهسو فرنسوا دي مونمورانسي ، زوج حنة ، ووالد لويزا .

وكان يستغرب الناظر اليه أن يرى فيه مخائل الشباب من نضارة وجهه وخفة حركاته ، ثم يرى دلائل الهرم في شعر رأسه ، وهو يتوهج شيبـــاً كشعر الشيوخ .

غير أن الحزن كان بادياً عليه ، يدل على احتقاره الحياة ، أو يأسه من هنائها ، فقد تمثل له أن الحياة قد توقفت في ذلك اليوم الهائـــل الذي رجع فيه من الأسر ، وهو يحسب نفسه أسعد الناس بلقاء زوجتـــه ، فأصيب بتلك النكبة الهائلة ، التي جعلت حياته الى هذا اليوم ، حملاً ثقيلاً عليه .

وقد كان مثله مثل ذاك المسافر يعود بعد سفر طويل فيجد بيته قد احترق وشمل عائلته قد تبدد

وكان فرنسوا مونمورانسي من أهل الوفاء والاخلاص ولكنه لا يحب قلبه غير مرة واحدة في العمر .

وقد كان وهب هذا القلب لامرأته حنة ولا يزال قلبه لها ولكن المحبة كانت

بصيغة أخرى فانه كان دائم الذكرى لها لا يفتر لحظة عن التفكير بها ولكنه لا يذكرها ولا يفكر بها إلا ليلعنها .

وقد خطر له مراراً أن يبحث عنها ويراهـــا ، ولكنه كان يغالب هذه الرغبـة حتى يغلبها ، فاذا خشي أن تغلبه شغل نفسه بالحرب او بالحلات السياسية بغية النسيان ، ولكنه لم ينس ، فان خيـال حنة كان ممثلا له في كل سبيل .

ولم يخطر أخوه هنري في باله إلا نادراً ، وليس لأنه غفر له زلتـه بل لأنه حاول أن ينساه فنسيه خلافاً لحنة ، أنه لم يستطيع نسيانها .

فهو لم يطمع بشيء من ملاذ الحياة وانما تزوج ديانا دي فرانس اجابة لرغائب ابيه وفراراً من ظلمه فقد كان من العتاة .

وفوق ذلك فقد كان يرجو أن يميل إلى زوجته الجديـــدة وان يتصل من الميل إلى الحب فيخلص من عناء ذلك الحب القديم ولكنه وجد أن هذا الحب لا ينقذه منه غير الموت فلم تكن ديانا زوجته إلا بالأسم .

وقد خطر له يوماً ان يعرف تفاصيل تلك الجريمة التي كدرت صفو حياته فذهب باريس إلى حصن ابيـــه وهو يقول في نفسه اني لا أعرف من تفاصيل الجريمة سوى ان أخي اتهم امرأتي وان امرأتي لم تدفع التهمـة فلا بد لي من التحقيق للوقوف على كل هذه التفاصيل .

وسار مع حراسه حتى وصل إلى قمـة أطل منها على حصن مونمورانسي ، فوجف قلبه واضطربت اعضاؤه وخشي أن يرى الحراس اضطرابه فامرهم أن يعودوا إلى باريس كي يبقى وحده في ذلك المكان .

وقد هاجت تلك المناظر تذكاراته القديمة فكان يرى حنة ممثلة في كل ما يقع نظره عليه في تلك الربوع التي أحب فيها الحب الأول .

ثم رأى البستان الكبير وهو بستان والد حنة الذي عقد فيه ذلك الغرام تحت اشجاره الغضة فلم يطق اجتيازه للبلوغ إلى الحصن ووقف مطرقاً حزيناً

والدمع يسيل من عينيه ، ثم أقفل عائداً الى باريس .

وكان ذلك آخر عهده بتلك الربوع فلم تعد تخطر زيارتها في باله .

انما كان يحاول زيارة الحصن والتحقيق في الجريمة لأن قلبه كان يحدثه ببراءة زوجته ولولا سكوتها الصريح حين كان يتهمها أخوه بالخيانة امامها لما صدق شيئاً ولكن سكوتها كان اعترافاً بيناً . وكيف يمكن أن تخطر له حيلة أخيه وهو لا يعلم أن امرأته ولدت بنتاً في غيابه .

وكأنما الأقدار كانت تساعده على تأييد براءة حنسة فانه في سنة ١٥٦٧ حدثت معركة بين الهوكينوت والكاثوليك في سانت دانيس ، كان النصر فيها للهوكينوت .

وكان امير الجيوش والد فرنسوا يحارب في طليعة فرسانه فاصيب بجرح قاتل في ذلك اليوم .

وبعد المعركة حملوا الجريح إلى قصر مسيم وهو قصر ولده هنري .

وكان هنري غائبـــاً عن باريس في ذاك اليوم ، فلما اتصل الخبر بفرنسوا اسرع ليرى اباه ولم يكن رآه منذ ثلاثة اعوام .

وانما ذهب بعد ما وثق ان اخاه مسافر ، فوجد اباه مشرفاً على الموت والكاهن يصلي والخدم راكعون يبكون .

فلما رأى الشيخ ولده البكر ظهرت عليه علائم السرور فامر الخدم بالخروج وفرغ الكاهن من صلاته وانصرف وبقي فرنسوا امام ابيه ونفسه يجشرج في صدره فلا يخرج كلامه إلا متقطعاً .

فنظر الشيخ نظرة حنو إلى ولده وقال له أن المرء متى اشرف على الموت يرى الأمور على غير ما كان يراها في حال العافيـــة ، فاجبني الآن بجلاء ، هل أنت سعيد ؟

قال اطمئن يا ابي فاني سعيد بقدر ما أذن لي أن أسعد في هذه الحياة .

ـ وأخوك ألا تسأله .

فارتعش فرنسوا وأجاب بصوت أجش : كلا !

ـ ربما كان ذنبه يا بني أخف مما تظن .

فهز فرنسوا رأسه دون أن يجيب .

فقال له أبوه : والمرأة الصبية ماذا جرى لها ؟

ـ من تعني بها يا أبي .

ـ إينة .. السيد دي بيانس .. اواه يا فرنسوا إني أموت ..

ـ إطمئن يا أبي علي ، لقد نسيت الماضي ..

ـ فرنسوا ... أقول لك ... إسمع ... يجب أن ترى هذه المرأة و ..

وهنا تلجلج لسان الشيخ ، فلم يستطع إتمام جملته وبدأ دور النزاع فجعل يتمتم بكلمات غير مفهومة وأسلم الروح .

وعلى هذا فقد بقي سر حنة مدفونـــاً بصدر الشيخ ، ولم يعلم فرنسوا السبب في إلحاحه كي يرى حنة .

* * *

بعد إنتهاء تلك المعركة وبعد دفن أمير الجيوش عرضت الملكـة كاترين على فرنسوا قيادة حملة على الهوكينوت فأبى وقال : انه لا يعتبر الهوكينوت أعداء يجب قتالهم .

فارتابت كاترين في أمره وعهدت إلى اليس دي ليكس إغواءه واصطياده بحبائل غرامها بغية الوقوف على أسراره .

وقد عرف القراء كيف ان اليس حبطت باستغواء هذا القلب ، وفوق ذلك فإن فرنسوا لم يكن يكتم أسراراً ، وإنما أراد اعتزال مقاتلة الهوكينوت فإنه لم يكن يندفع فيها إلا بأوامر أبيه .

وقد كان تألف حزب من الذين أنفوا إراقة الدماء باسم الدين وجنحوا إلى السلاح ، فدعي حزب السياسة ، فعين فرنسوا رئيساً له ولم يقبل هـذه

الرئاسة إلا لخدمة السلم المجردة .

ولأجل هذا ، زاره يومـــاً الكونت دي ماريلياك ، أي ديودات ، بدعوة من ملكة النافار ، تسأله فيها مقابلة ولدها هنري فوعـده فرنسوا بتلبية الدعوة .

وكان ملك النـــافار قد جاء سراً إلى باريس مع البرنس دي كونديه ، وكوليني وعين يوماً لمقابلة فرنسوا .

وفي الساعة المعينة جاء فرنسوا كما رأيناه ، وقد عرف القراء ما كان من تأثير ذكر اسمه أمام باردالیان .

ولندع الآن باردالیان مع ديودات يباحثه بشأن فرنسوا ، ونتبع فرنسوا إلى قاعة ملك النافار .

ولما دخل استقبله الملك باسماً وقال له : السلام على المدافع الشهير عن تيرنوان .

فأثرت هذه الجملة تأثيراً عظيماً في فرنسوا ، ولا ندري أكان ذلك لأنه كان يفتخر حقيقة بحسن صبره في هذا الحصار ، أم لأنه كان يحسب نفسه في ذلك العهد أسعد إنسان بغرامه .

فانحنى أمام الملك الفتى وقال له : مولاي إنك دعوتني للمباحثة في حالة الأحزاب الدينية العمومية ، وأنا أنتظر أن توضحوا لي نياتكم فأجيب جلالتكم بملء الحرية والجلاء .

وكان الملك كثير الحيلة والدهاء فلم يجد سبيلا إلى الحيلة بعدما سمع من جواب المارشال الجلي فقد كان يتوقع منه الابهام والالتباس .

ودعاه إلى الجلوس وصمت هنيهة ثم قال له : إني لا أذكر لك شيئاً عن ثقتي بك واحترامي إياك فإن وجودك هنا خير دليل على هذه الثقة لا سيما وانه لا يوجد في باريس من يعلم بقدومي اليها سواك .

— إنك تشرفني يا مولاي بهذه الثقة ، ولكني أتجاسر بالقول لجلالتكم انه

لا يوجد رجل شريف يخونكم بفضيحة هذا السر .

فابتسم هنري إبتسام المشكك وقال : اني لا أرى رأيك في هذا ، أيها المارشال .

بل أقول لك ، انت الوحيد الذي وثقت به ودعوته الي وأنا واثق بأن أمام الليلة مطمئناً .

فانحنى المارشال دون أن يجيب .

ومضى هنري في حديثه فقال : ولي برهان آخر على حسن ثقتي بك وهو اني سأخبرك بحقيقة مأربي من القدوم إلى باريس .

فنظر الأميرال والبرنس دي كونديه نظرة انذهال إلى الملك .

ولكنه تظاهر انه لم ير شيئاً ، فأتم حديثه وقال :

— إعلم يا حضرة المارشال اني قدمت إلى باريس بغية اختطـــاف شارل التاسع ملك فرنسا ، فماذا تقول بهذا الرأي ؟

فاصفر وجه الأميرال وقطب البرنس حاجبيه ولم يظهر فرنسوا شيئاً من علائم الانذهال ، بل أجاب بملء السكينة قائلا .

— أتريد جلالتكم يا مولاي أن تسألني عن إمكان حدوث الاختطاف أم عن نتائجه في حالتي الفوز والفشل ؟

— سنتكلم عن هذا .. وأما الآن ، فأحب أن أعرف رأيك بشأن هذا المشروع نفسه ، الذي لم يعد بد منه ، فهل انت معنا أم علينـــا ، أم تلزم الحياد ؟

— إن كل هذا يتعلق بما عساك ان تصنعه بملك فرنسا ، فإني لا أمدحه ولا أذمه ، ولكنه ملكي ويجب علي ان أساعده في كل حال ، وأي شريف لا يبذل ملكه في ساعة الخطر .. فـــإذا كنتم تريدون نزع العرش من الأسرة المالكة والاستئثار به أكون عليكم ، وإذا أردتم باختطـاف الملك ان تجعلوه بيننا لتنالوا حرية مذهبكم الزم الحياد ، وفي الحالتين لا أساعـدكم على هذا

الاختطاف ..

ـ يسرني أيها المارشال ان أسمع هذا التصريح بهذا الجلاء ، وأنا مجيبك بمثله فاسمع ..

إننا نريد اختطاف الملك شارل لأننا واثقون من أن أمه الملكة تتأهب لحروب جديدة ، ولا قبل لنا بهذه الحروب ، فقد نفد ما لدينا من المال ، وقل من عندنا من الرجال فلا نلقى بعد هذه الحروب الجائرة غير الخسران والوبال ..

والذي أسعى اليه لا يلومني فيه عارف بنظام الحروب ، فلو زحف شارل الي بطليعة جيشه ألا يحق لي أخذه أسيراً ؟

ـ هذا لا ريب فيه ، ولو كنت من اتباع جلالتكم بدلاً من أن أكون من أتباع ملك فرنسا ، لكنت من أشد المتشيعين لهذا المشروع .

ـ لقد بقي إذاً أن تعلم ماذا نصنع بملك فرنسا بعد القبض عليه .

ـ هو ذاك يا سيدي .

ـ إعلم ايها المارشال اني إبن انطوان دي بوربون ، حفيد روبرت سادس أبناء لويس التاسع الملقب بالقديس لويس ، فأنا أول أمير من السلالة الملكية الفرنسية ، ولذلك فقد حق لي أن أتداخل في شؤون هذه المملكة ، وإذا خطر لي يوماً ، أن تاج تلك المملكة قد يوضع على رأسي ، فلا أكون من الطامعين ..

إن أسرة فالوا تملك الآن بفضل الله ، وأنا أنتظر فضل الله لأعلم اذا كان يحق لأسرة بوربون أن تملك بدورها وتتولى هذا العرش ، وهو من أعظم العروش .

ـ مولاي اني لا أبحث في عدالة ما تقولونه بل أعيد ما قلته وهو أني شارل التاسع ملكي ولا أكون ضده .

ـ لقد قلت لك جلياً اني انتظر فضل الله ، ولا أسعى إلى مزاحمة ابن

عمي في عرشه فليملك هذا القريب العزيز بقدر ما يستطيع أن يملك من تكون أمه كاترين دي مدسيس .

ولكني إذا كنت لا أريد بشارل شراً فلماذا يريد الأذية لي ... وما هذا الاضطهاد الذي يضطهدون به الهوكينوت ، بعد أن عقدنا الصلح في سانت جرمين .

وإذا كنت غير قادر على مقارعتهم بالقوة أينكر علي أن أقارعهم بالحيلة؟ اني أريد أن أتحدث مع ابن عمي شارل بملء السكينة ، كما أتحدث معك الآن ، ألا ترى بعد هذا أننا مصيبون بعزمنا على اختطاف الملك ..

ومما لا ريب فيه إننا لا نسيء اليه أقل إساءة بل إننا ندع له الخيار في قبول شروطنا أو رفضها .

وعلى الجملة فإني أريد أن أحادثه في خلوة دون أن يكون لأهل بلاطه تأثير عليه ، فإذا كان هذا كل قصدي أأستطيع الاعتماد عليك ؟

ـ بماذا ؟ أبالقبض على الملك ؟ اني أكلمك يا مولاي بملء الحرية كما كلمتني ، فاني وحدي وأنتم كثيرون ، ومع هذا فاني أكلمك بملء الحرية إذ ليس لدي ما أخشاه غير الموت .

فتقدم الأميرال خطوة منه وقال له : أيها المارشال إنك في منزلي وأنت ضيفي .. قل ما تشاء فلا تسقط شعرة من رأسك عندي .

ـ اني أقول هذا القول ، وهو اني سأنسى ما تشرفت بسماعه من جلالتكم واني سأبذل كل ما أستطيعه في حماية ملكي والدفاع عنه دون أن أنبهه إلى ما عرفته منكم .

ـ وأنا احسد ابن عمي شارل لوجود امثالكم بين اتباعه ، وأود لو كان كل أعدائي مثلك .

ـ إن مولاي منخدع في الحالين فاني لست من أصدقاء الملك شارل ، بل من خدام فرنسا ، وأما قولكم اني من أعداء جلالتكم فشهد الله اني أود ما

تودونه من معاملة الهوكينوت بالعدل والانصاف .

ـ اشكرك يا حضرة المارشال ، وعلى هذا لا يمكن ان أعتمد عليك وعلى أصحابك .

ـ كلا يا مولاي ، ولكني اذا دعيت يوما لحضور جلسة تعقد بينكم وبين ملك فرنسا ، انسى كيف اتفقت هذه المقابلة وأعينكم في كل مطالبكم ، وأجاهر أمام ملكي اني أنا الكاثوليكي أخجل مما يفعله الكاثوليكيون مع الهوكينوت .

فاتقدت عيناه وقال : أتعمل هذا ؟

ـ بل أتعهد به .

ـ وأنا واثق بوفائك أيها المارشال وأرجو أن تعقد هذه الجلسة قريباً وان يدعوك شارل لحضورها .. اذهب ايها الدوق فقد سرني انك لست من أعدائي .

ـ وأنا أؤكد اني من أصدق المخلصين لجلالتكم في كل شأن ما خلا بعض المشروعات .

ثم انحنى المارشال أمام الملك وانصرف يشيعه الأمير ال .

* * *

وبينما هو يسير في الرواق يتقدمه خادمان من غير نور دنا منه رجلان ، فقال له احدهما اتأذن لي يا سيدى المارشال أن أقدم لكم أحد اصدقائي .

فعرف فرنسوا ان الذي يحدثه الكونت دي ماريلياك وقال له : ان اصدقاءك أصدقائي يا كونت .

ـ اذاً أقدم لكم الشفالييه دي باردالیان فانه يرغب مقابلتكم في مهمة خطيرة .

فقال المارشال لباردالیان اني اكون غداً في قصري كل النهار واكون

سعيداً باستقبالك فيه

فأجابه باردالیان بصوت يضطرب التمس من سيدي المارشال ان يأذن لي بمقابلته الآن .

فأجفل فرنسوا لاضطراب صوته والحاحه بطلب المقابلة .

ودهش الأميرال ايضاً لهذا الالحاح ولكنه كان واثقاً من ان باردالیان لا يريد بالمارشال شراً .

وتداخل في الأمر وقال للمارشال : ان الشفالييه دي باردالیان يا سيدى ابسل واصدق رجل عرفته .

فقال فرنسوا لباردالیان : إن هذا الثناء وحده من فم الأميرال كاف لأن تكون من اصحابي ، فتعال ايها الصديق ما زال الأمر خطيراً لا يمكن إرجاءه إلى الغد .

فارتعش باردالیان لكلمة (صديق) فودع ديودات واسرع بالخروج مع فرنسوا ..

وسار الاثنان إلى قصر مونمورانسي ، وقد عجب فرنسوا كيف ان باردالیان لم يفه بكلمة وهما على الطريق .

حتى اذا وصلا الى القصر ادخله فرنسوا الى غرفة وذهب الى غرفة ملابسه ليغير ملابسه الرسمية .

وهذه الغرفة التي كان فيها باردالیان هي نفس الغرفة التي وقعت فيها حنة على صك الطلاق .

ولكن فرنسوا لم يعلم شيئاً مما جرى فان أباه كتم عنه هذه الحادثة الفظيعة كل الكتمان فظل يعتقد ان امرأته مجرمة .

وبقي باردالیان وحده في الغرفة يمسح العرق المنصب من جبينه فقد حانت الساعة التي ينبغي فيها التصريح ، وهو التصريح الذي كان يرغب فيه بقدر ما يخشاه .

فان فرنسوا مونمورانسي سيعلم ان امرأته شريفة طاهرة ، وسيعلم ان له فتاة ، وسيعلم ان امرأته فدته بنفسها ، وانها ظلمت ظلماً لم يظلمه انسان وهو سيعلم كل هذا بفضل بارداليان ، كما سيعلم ان كل هذه النكبة كانت من بارداليان .

وقد ذعر حين تمثل له هذا الخاطر فجعل ينظر الى ما حواليه نظراً تائهاً فاستقر نظره على صورة معلقة بالجدار .

وقد دهش حين رأى الصورة ودنا منها وهو يقول : لويزا لويزا .

ثم وقف باهتاً بعد أن تمعن بالصورة وجعل يقول في نفسه : كيف ان المارشال لا يعلم ان له بنتاً ، وهو يضع رسم بنته في منزله ؟

وعاد الى التمعن بالصورة وهو معجب لهذا الاتفاق ، فعلم انها صورة الأم ، وانها كانت تشبه في حداثتها بنتها لويزا هذا الشبه العجيب .

وعندها ، عاد فرنسوا ورأى بارداليان واقفاً أمام الصورة يتأملها بامعان ، فمرت غمامة كثيفة على تصوره ، ودنا من بارداليان فوضع يده على كتفه .

فانتبه بارداليان كمن يصحو من رقاده وقال له : أسألك المعذرة يا سيدي .

— انك تنظر الى صورة هذه المرأة .

— هو ذاك يا سيدي .

— وهي جميلة اليس كذلك ؟

— بلا ريب ، فهي من أجمل النساء .

— وانت تحسب نفسك سعيداً اذا التقيت بمثلها ؟

— انك يا مولاي كأنك تقرأ افكاري ، نعم اني أحسب نفسي سعيداً اذا لقيت مثل هذه المرأة فأجعلها معبودي .

— يلوح لي أيها الفتى انك طاهر القلب شريف العواطف ، وقد كفى

شهادة الأميرال كوليني فيك ، ولكني أرى قلبي ميالاً اليك حتى اني احببت ان أروي لك قصة صاحبة هذه الصورة التي أرى بك جمالها ، وان اكن لم أرو حكايتها لأحد ، فاني لا اعرفك ، ولكن لو كان لي ولد لما وددت الا ان يكون نظيرك .

فاجلس بجانبي تجاه هذه الصورة التي راعك جمالها .

فامتثل بارداليان وهو يقول في نفسه : ان لهجته تدل على مـــا لقيه من أصناف العذاب .

وبدأ فرنسوا الحديث فقال : ان هذه الصورة رسم امرأة أحد أصحابي ، أو إنها كانت امرأته .

وقد كانت فقيرة ، وكان أبوها عدو أسرة صديقي .

فرآها صديقي وأحبهـا وتزوجها ، ولكنه لم يكن يستطيع زواجها إلا باغضاب أبيه ، فلم يعبأ بذلك وتزوج .

وقد اتفق لنكد طالعه انـه اضطر في يوم زواجه أن يسافر إلى الحرب ، فلما عاد من تلك المعارك ، أتعرف ماذا علم ؟

فسكت بارداليان ولم يجب .

— علم ان هذه المرأة التي كان يعبدها ، وعادى أهله من أجلها كانت خليعة متهتكة خائنة .. أيها الفتى أحذر من النساء .

فاختلج بارداليان وذكر وصية أبيه التي أوصاه بها قبل سفره .

وعاد فرنسوا إلى الحديث فقال :

ان رجاء صديقي كان مفقوداً بهذه المرأة ، وقـــد وهبها قلبه وحياته فاستعاض عن الرجاء باليأس وعن الحب بالكره .

وماذا كان ذنبه في كل ذلك ؟ ان كل ذنبه انه لقي تلك الفتاة في مساء يوم من أيام الربيع ، فأحبها وهو يحسبها من ملائكة الله ، فكانت كما وصفتها لك

فوقف باردالیان عنـــد ذلك وقال له بلهجة خطيرة : ان صديقك مخطىء يا مولاي .

فنظر فرنسوا إلى باردالیان نظرة المتذهل ولم يفهم ما يقول .

فقال له باردالیان بل أنت المنخدع يا سيدي .

فحسب فرنسوا لأول وهلة ان باردالیان يحتج على كلامه احتجاجاً عاماً ، شأن بعض الرجال في دفاعهم عن النساء وقال له : دع الدفاع الآن يا حضرة الشفالیيه ولنبحث في الشأن الذي قدمت إلي من أجله .

— ليكن مـــا تريد يا سيدي ، فاعلم إني مقيم في فندق دفينير في شارع سانت دينيس .

ويوجد تجاه هذا الفندق منزل يقيم فيه كثير من الفقراء ، وبينهم امرأتان أتيتك للمباحثة في شأنهما .

— امرأتان ؟

— نعم ، وهما أم وابنتها .

— وماذا تدعيان ؟

— لا أعلم يا سيدي . واني لا أحب أن أذكر لك اسمهما الآن قبل أن أروي لك حكاية هاتين التعيستين المظلومتين .

— إني مصغ اليك فقل ؟

— ان هاتين المرأتين على فقرهما وجمالهما يحترمهما الناس كل الاحترام ، ولا سيما الأم .

وهما تقيمان في هـــذا المنزل الحقير منذ أربعة عشر عاماً ، وكل ما يقال عنهما أنهما تنهكان جسميهما بالعمل ، وان الأم قـــد ربت البنت تربية الأميرات .

وهو كذلك يا سيدي المارشال فان هذه الفتاة تعرف جميع الفنون ، فضلاً عن ان لها جمالاً باهراً ، وأدباً ظاهراً ، يأخذان بمجامع القلوب .

— إنك تذكر من فضائلها أيهـا الشفالیيه ما حببها إلي ، فقل ماذا يجب أن أصنع لهما .

— صبراً يا سيدي فقد فاتني أن أقول لك ان هذه الأم التي لا يعرف اسمها أحد ، تلقب بذات النقاب الأسود ، فإنها ما خلعت ملابس الحداد منذ عرفها أهل الشارع ، مما يدل على إنها نكبت نكبة شديدة .

واني أود أن أذكر لك تفاصيل أمرها ، فإن السبب في نكبتها كان واحداً من أهلي .

— نعم يا سيدي ، وهو أبي .

— كيف أبوك ؟

— ستعلم كل شيء يا سيدي حين أخبرك بتفاصيل هذه النكبة التي أصابت تلك السيدة النبيلة ، فاعلم قبل كل علم إنها كانت متزوجة ، وان زوجها غاب غياباً طويلاً ، فهي كما ترى تشبه قصتها قصة امرأة صديقك .

— أتم الحديث أيها الشفالیيه .

— ان السيدة بعد سفر زوجها بستة أشهر ولدت مولوداً . ثم عاد الزوج .. وفي ذلك الحين ارتكب أبي الجريمة .

— الجريمة ؟

فسالت دمعتان على وجنتي باردالیان وقال : نعم يا مولاي الجريمة . ولو أعاد أحد هذه الكلمة التي أقولها لقتلته قبل أن يتمها .

— ان أبي اختطف المولودة الجديدة ، وكانت أمهـــا تعبدها عبادة ، فوضعوها في شر موقف بين أمرين وهما : أما أن توافق على اتهامها أمام زوجها بالخيانة أو تقتل طفلتها .

فاصفر وجه فرنسوا وقال بصوت أجش : ما اسم هذه المرأة ؟

— لا أقدر أن أقوله يا سيدي .

— فوقف فرنسوا وقد كاد يجن فقال له : كيف عرفت هذا ؟

... اسمع نهاية الحديث يا سيدي ، وهي ان الأم والبنت اختطفتا ، فتمكنتا من أن ترسلا لي كتاباً فيه كتاب باسم رجل عظيم كلفتاني أن أوصله اليه .

ثم ركع باردالیان فأخرج الكتاب من صدره ودفعه اليه قائلا : هـذا هو الكتاب يا سيدي .

فلم ينتبه فرنسوا لما عامله باردالیان من معاملة الملوك ، ولم ينظر إلى وجهه المضطرب ، بل كان كل اهتمامه بهذا الكتاب .

ولكنه لم يأخـــذه ، فجعل ينظر اليه شاخصاً باهتاً ويقول في نفسه : ماذا أرى ؟ إني في يقظة لافي حلم .. وهذا الفتى قد روى لي حكاية امرأتي حنة دي بيانس . وهو لم يلفظ اسمها ، ولكني أسمعه يدوي في قلبه دوي الرعد القاصف .

رباه ماذا أسمع ، ألا تزال حنة في قيد الحياة ... أهي تشتغل كالعاملات البسيطات لتربي بنتهـا ... بنتها ... ألها بنت ... إنها بنتي دون ريب ... وان حنـة شريفة طاهرة .. نعم كل ذلك أكيد ، وإنها رضيت أن تقبل التهمة لانقاذ بنتهـا .. رباه ، أذلك ممكن .. وهـذا الكتاب . انه لا ريب بخط حنة .

ورأى باردالیان ما كان من جموده فقال له : اقرأ يا سيدي ، ومتى قرأت هذا الكتاب سلني أجبك ، فاذا لم أشاهد الجريمة فأنا ابن مرتكبها .

وقد قال لي أبي أموراً كثيرة لم أفهم شيئاً منها في البدء ، ولكنها بقيت منطبعة في ذاكرتي . اقرأ يا سيدي .

فأخذ فرنسوا عند ذلك الكتاب بيد ترتجف وقال في نفسه :

لقد عدت أحسب نفسي حالماً ، وسأستفيق من هـذا الحلم ، فأرى الحقيقة الهائلة .. كن رجلاً يا فرنسوا ، فانك تحملت أشد دواهي اليأس ، ألا تتحمل هذا الفرح الـكاذب ؟

نعم انه فرح كاذب ، فان كل مـا أراه حلم ، وهذا الفتى شبح وهـذه الرسالة خيال ..

كلا إني لا أصدق شيئاً مما أسمع وأرى ، ولكن لأقرأ هذه الرسالة .

وعند ذلك فض الرسالة فعرف لفورة خط حنـة ، فحاول ان يضع ذاك الخط على شفتيه ، ولكنـه أجهـد نفسه جهداً عنيفاً كي لا يظهر هـذا الضعف أمام باردالیان وجعل يقرأ الكتاب .

فلما أتم تلاوته نظر إلى صورة حنة المعلقة على الجدار ، فركع أمامها وقال بصوت خنقته العبرات :

رحماك أيتها الحبيبة واصفحي عني !

ثم سقط مغمياً عليه لا حراك به .

فأسرع باردالیان اليه ، ورأى من الحكمة ان لا ينادي الخدم لاعانته في هذا الموقف ، فجعل يتولى بنفسه ايقاظه وينضح وجهه بالماء حتى استفاق .

وقد صحا فرنسوا وعيناه تتقدان ببارق غريب ممتزج بين الفرح والحزن والرجاء والأسف ، وغير ذاك من العواطف المتناقضة .

وأراد باردالیان ان يتكلم فقال له : اسكت أيهـا الصديق فسنجول في الحديث بعد حين وانتظرني هنا ، اتعدني ان تفعل ؟

– نعم يا سيدي .

فخرج فرنسوا من الغرفة ونزل إلى الاصطبل فامتطى جواداً وسار به .

وكانت الساعة الأولى بعد انتصاف الليل ، فاجتاز فرنسوا باريس حتى وصل إلى بابها الخارجي فأمر الحارس ان يفتح له بأمر الملك .

فعرفه رئيسهم وفتح له الباب ، فخرج فرنسوا يسابق الرياح بجواده وهو يصيح في ذاك السكون إنها حية . إنها بريئة .. امرأتي .. ابنتي .

وما زال على سيره حتى وصل إلى مونفورانسي ، واقترب من مرجنسي فسكن تأثره بعض السكون ، وذهب تواً إلى منزل تلك المرضعة الذي اجتمع

فيه بحنة وبأخيه هنري يوم حدوث تلك الجريمة الهائلة وهو يقول في نفسه
ترى ألا تزال هذه المرضع في قيد الحياة ؟

ووصل إلى المنزل فطرق بابه بيد ترتجف .

فناداه صوت من الداخل قائلا : من الطارق ؟

فأجاب فرنسوا قائلا : افتحوا بالله فاني فرنسوا مونورانسي .

فأسرعت تلك العجوز مرضعة حنة ، فأيقظت زوجها وقالت له : قم فهذا هو .

فانتبه زوجها مذعوراً وقال من هو ؟

قالت سيد مونورانسي ومارجنسي ، قم وافتح له الباب فان قدومه دليل على عرفانه كل شيء .

ففتح زوجهـــا الباب واسرعت العجوز الى فرنسوا فقالت له : ادخل يا سيدي إني انتظرك ، وما كنت اخشى إلا ان اموت قبل ان تعود .

وكان زوجها قد انار مصباحاً ، فدخل فرنسوا وجلس على كرسي وامامه تلك العجوز واقفة .

وكأنما قد أدركت السبب في قدومه فمنعها السرور عن التقيد باحـــترام النبلاء وبدأت قبله الحديث وقالت :

— إنك قادم لتعلم كل شيء اليس كذلك ؟

— هو ذاك .

— إذاً لقد عرفت الحقيقة فتعال معي يا ابني .

فلم ينفر فرنسوا من ان تدعوه مثل هذه الحقيرة بابنها ومشى معها يتبع خطواتها البطيئة وزوجها يتقدمها بالمصباح .

ففتحت باب غرفة صغيرة ودخلت منه مع فرنسوا وهناك كرسي وسرير وعلى الجدار بعض رسوم منها تمثال العذراء .

وقد دنت العجوز من السرير وقالت لفرنسوا : إلى هنـا جاءت حنة في

اليوم التالي لسفرك .

وفي هذا السرير أقامت أربعة أشهر وهي بين الموت والحياة ، لأنهم قالوا لها انك هجرتها وتخليت عنهـا ، وفي هذه الغرفة كانت تبكي وتصلي وتتوسل وتذكر إسمك في أحزانها .

فركع فرنسوا أمام ذلك السرير وبكى .

وسكتت العجوز إحتراماً لبكاء فرنسوا .

فلما نهض استأنفت حديثها فقالت :

— وهنا عادت اليها الحياة تباعاً فانتشحت منذ ذلك العهد بالسواد

فتمتم فرنسوا قائلا : « ذات النقاب الأسود »

فقالت العجوز : وهنا يا سيدي وفي هذا السرير ولدت إبنتك لويزا ، فأنقذتها إبنتها من الموت يأساً ، لأنها رغبت في الحيـــاة من أجل ابنتها ، وكانت كلما نمت البنت تعافت الأم .

ولم تبتسم تلك الأم المنكودة إلا يوم ظهرت أول إبتسامـة على شفتي إبنتها لويزا .

أتريد أن أقول لك البقية يا سيدي ؟

— نعم .. نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفينه .

— إذاً تعال معي ..

ثم خرجت به العجوز إلى خارج المنزل ، وذهبت به إلى قمة عالية تكتنفها الأدغال الكثيفة ..

وكان القمر يتوهج في كبد السماء ، فصعدت إلى القمة يصحبهـا فرنسوا وقالت له :

— أنظر يا سيدي ، ألا ترى من هذه القمة نافذة غرفة منزلي .. إنـه لو وقف رجل فوق هذه القمة في النهار وأشار اليه آخر من تلك النـافذة ألا يرى إشارته ؟

وصاح فرنسوا قائلا : أكان أخي هنري في تلك النافذة .
فالتفتت العجوز إلى زوجها وقالت له : قل ماذا رأيت ؟

فانحنى زوجها أمام فرنسوا وقال :
ـ إني لا أزال أذكر هذه الأمور كأنها حدثت بالأمس ، فقد كنت أشتغل في صباح ذلك اليوم بالحقل الكائن وراء هذه القمة التي نحن عليها .
ولما تعالى النهار ، دنوت من هذه القمة كي أستظل بظلها من الشمس وأستريح ..
فغفوت ، ثم لما صحوت رأيت رجلا مختبئا بين الأدغال وهو يحمل في يديه ما لم أعلمه .
وكان مرتديا بملابس ضباط حضنكم فاختبأت لخوفي منه ، فإن الضباط لا يرحموننا .
وأقمت نحو نصف ساعة أراقبه وهو لا يراني ، ثم رأيته خرج من الأدغال وسار مسرعا لا يلوي على شيء .
فرأيت عند ذلك انه كان يحمل في وشاحه طفلا ، ولم يخطر لي في بال ان هذا الطفل بنت سيدتي حنة .
ولما عدت في المساء إلى المنزل ، علمت انك عدت من السفر وان سيدتي قد سافرت .
هذا كل ما رأيته يا سيدي رويته لك والله شاهدي على صدق ما أقول .

ثم تنحى فدنت إمرأته من فرنسوا وقالت له : إني لم أعلم ، يا سيدي ، ما حدث بينكم وبين أخيكم هنري ، في تلك الساعة التي التقيتما فيها في منزلي ، ولكني علمت بعضه ، مما كنت أسمعه متقطعاً من فم تلك الأم القانطة .
وبعد حين أقبل رجل ورد الطفلة إلى أمها وكادت تجن من فرحها .
ثم حملت طفلها وركضت بها بغية لقائك وإخبارك بالحقيقة بعد أن أمنت

على طفلتها وقد منعتنا عن مرافقتها فلم نعلم شيئاً مما جرى لها .
هذا ما أعلمه يا سيدي ، ولكني علمت يقيناً شقاء هذه المرأة المنكودة التي أهانها زوجها بالخيانة وهي أعف النساء وأشرف الزوجات .

وقد كنت ، يا سيدي ، منذ سنوات مضت ، أي حين كان لي قوة على السير ، أذهب مرة في مثل يوم سفرها ، من كل عام ، إلى باريس وأطوف في تلك العاصمة المتسعة باحثة عنها ، فلا أجدها ، وأعود قانطة من لقائها .
أما الآن ، فلم أعد أستطيع البكاء ، لقد نضب الدمع من عيني ، ولكني أباركك قبل موتي ، من يقول لي أنها في قيد الحياة وأنها سعيدة ، وان آية العدالة قد محت آية الظلم ، العلك يا سيدي قادم كي تقول هذا القول لمرضعة حنة .

فركع فرنسوا أمام هذه العجوز وقال لها بصوت مختنق : باركيني إذاً لأن حنة في قيد الحياة وستكون أسعد إمرأة في الوجود .
فباركته العجوز وعاد الثلاثة صامتين إلى المنزل .
وعند ذلك دخل فرنسوا إلى الغرفة التي ولدت فيها حنة ابنتها ، فاختلى فيها وأقام ساعة دون نور ، وكانت العجوز وزوجها ، يسمعان من الخارج صوت بكائه ، وكان يكلم نفسه بنبرات تختلف بين الوعيد والحنو .

وبعد ذلك ، خرج من المنزل وسار إلى الحصن ، ولما رآه الحراس دهشوا لقدومه الفجائي ، وحاولوا أن يقرعوا الأجراس إشارة إلى قدومه ، فمنعهم عن ذلك وأمرهم أن يأتوه بورقة من تلك الأوراق التي تكتب عليها الأوامر الرسمية ، فكتب عليها أمراً يقضي بأن يكون المنزل الذي تقيم فيه المرضعة العجوز وكل ما يحيط به من الحقول ملكاً لها ولورثتها من بعدها ، وأضاف إلى ذلك ٣٠ الف فرنك نقداً ، فأرسلت تلك الهبة في الصباح إلى العجوز .

ثم نادى وكيل الحصن وأمره أن يصلح القصر ويجعله صالحاً للسكنى فإنه سيقيم قريباً فيه مع أميرتين .

وفي الليلة نفسها سافر عائداً إلى باريس وهو مضطرب لهذه الحوادث التي قلبت نظام حياته .

وكان عندما يخطر له ان إمرأته بريئة وانه متزوج بسواها يطرد هذا الفكر بعنف ويقول : إنها الآن في خطر ويجب إنقاذها منه ، بل يجب أن تلقى من السعادة أضعاف ما لقيت من الشقاء .

وكان حائراً في أمره ، لا يعلم كيف ينيلها هذه السعادة ، وكيف يستطيع الافتراق عن ديانا دي فرانس ، وكانت إذا ازدحمت في مخيلته هذه الأفكار ، بذل جهداً عنيفاً لتشتيتها وهو يقول : يجب في البدء أن أجدها ثم نرى ما يكون .

وما زالت هذه الأفكار تتنازعه حتى وصل إلى قصره في باريس حيث كان ينتظره باردالیان .

* * *

أما باردالیان فقد قضى تلك الليلة وهو في أشد حالات الاضطراب ، وكان أخص ما يشغله افتكاره بأبيه وما عسى أن يكون حكم المارشال عليه .

وكان عزاؤه في ذلك ان أباه هو الذي رد الطفلة إلى أمها وهو الذي أعطاها تلك الماسة التي أخذها جزاء الخيانة فردها التماساً للغفران .

على أن كل ذلك يعد عذراً بسيطاً بالنظر إلى الجريمة الهائلة ، فان أباه لم يختطف الطفلة لما حدث شيء من تلك النكبات على الاطلاق .

وأي نكبة أعظم من هذه النكبة فان المارشال طلق إمرأته التي قضت إمرأته ستة عشر عاماً تعاني أعظم الشقاء وكل ذلك بذنب أبيه .

وليث باردالیان على هذه الحالة إلى أن بزغ الفجر ، ثم أشرقت الشمس

فأقبل فرنسوا ، وكان أول ما بدأ به الاعتذار إلى باردالیان ، وقال له : أسألك عفواً يا شفالیيه لمغادرتي إياك هذا الزمن الطويل ، ولكني كنت على أشد حالات الاضطراب بحيث لم أكن أعي وأعلم ماذا أصنع .

أما الان وقد عادت إلي السكينة يمكننا أن نتحدث .

وقال له بتلك البساطة التي امتاز بها على أقرانه في معرض التعبير اني طالما سمعت الناس يتحدثون عن نبل طباعك ، كما اني سمعتهم يضربون الأمثال بكبرياء أسرة مونمورانسي وفخامة هذا البيت ، ولكن هذه الفخامة والنبل والكبرياء لم تظهر أمامي بمظهرها الحقيقي ، إلا حين رأيتك تبكي أمام هذه الصورة .

فأجابه المارشال : صدقت أيها الشفالیيه ، اني بكيت وشعرت أن البكاء في مثل موقفي عذب أمام الأصدقاء .. دعني القبك بلقب صديق ، لأنك أنت السبب في عودة النعيم إلى قلبي .

– العلك نسيت يا سيدي المارشال اني ابن باردالیان .

– كلا ، لم أنس ، واني لا أقتصر فقط على صداقتك وحبك ، بل اني معجب بك لما ضحيته ، لأنك دون شك تحب أباك .

– نعم أحب أبي حباً ليس بعده حب فاني ما عرفت غير أبي ، وهو الذي رباني منذ دببت ، إلى أن شببت ، ثم هو الذي دربني على هذا القتال وهو الذي كان يحميني بحسامه معرضاً نفسه للأخطار ، بل انه كان يؤذي نفسه كي يزود عني الأذى ، فقد طالما رأيته يغطيني بوشاحه في الليالي الباردة وينام دون غطاء .

وعلى الجملة ، فقد كان أبي وأمي وصديقي ، ولم أعرف سواه ، فمن أحب غيره .

فتأثر المارشال من كلامه وقال له :

– لم يبق شك لدي بأن قلبك من أطهر القلوب ، لأنك على عرفانك ما

في هذا الكتاب من تهمة أبيك ، وعلى فرط حبك له لم تتأخر عن تسليمي هذا الكتاب .

– إني لم أقل لك كل شيء بعد يا سيدي المارشال ، فإني إذا كنت أحضرت لك كتاب زوجتك المظلومة بغية كشف ظلامتها على عرفاني ان أبي متهم فيه ، ذلك لأني مستعد للدفاع عن أبي دفاعاً شديداً ، لا يخطر في بال ، أي اني أكون عدواً لدوداً لكل من يجسر أن يقول ان أبي ارتكب جريمة .

وقد قال هذا القول بلهجة خطيرة فاحمرت عيناه ، ورقص شارباه وظهر اضطرابه ، فانه سيعلم بلحظة ما يكون من جواب المارشال والد حبيبته لويزا ، فاما أن يكون من أعدائه أو من أصدقائه .

وبعد أن سكت لحظة عاد إلى حديثه فقال :

– التمس من سيدي المارشال أن يعاملني هنيهة معاملة الأكفاء للأكفاء ، ولذلك أقول قبل الأخذ في الحديث ، ورجائي أن تجيبني بمثل ما اتكلم به من الحرية والجلاء ، إنك إذا اعتبرت ابي عدواً لك كنت أنا من اعدائك ، واذا حاولت الانتقام منه عما اساء به اليك دافعت عنه والسيف متصلت بيدي دفاع المستميت .

وقد كان فرنسوا مصغياً اليه يتمعن بما يبدو على وجهه من مخائل النبل والبسالة ويعجب به منتهى الاعجاب .

ولما أتم حديثه مد المارشال اليه يده وقال دون تردد .

– اني لا اعرف غير باردالیان واحد ، وهو ذلك الذي أنقذني من وهدة اليأس بعد ان تخبطت اعواماً في ظلماتها واذا اتيح لي ان ارى يوماً ابناً ، فأول ما اقول له انني اهنئه بأن يكون له ولد مثلك .

فشد باردالیان على يد فرنسوا وقال له وعلائم الامتنان بادية بين عينيه :

اشكرك يا سيدي فاني استطيع ان اقول لك الآن ان ابي حاول اصلاح ما بدر منه من الخطأ .

– كيف كان ذلك ؟

– لقد اخبرني بما اتفق له في زمن لم يكن يخطر له فيه اني سأتشرف بمقابلة المارشال دي مونمورانسي .

فما علمته منه يا سيدي ان أبي قد اختطف الطفلة ، ولكنه هو الذي أرجعها إلى أمها خلافاً للأوامر التي صدرت اليه .

– نعم ، نعم لقد عرفت كيف حدثت هذه الفاجعة فليس فيها غير مجرم واحد يسمى باسم عائلتي وآسفاه .

ثم شد على يد باردالیان وقال له : من يجسر أن يظن أن مثل هذه النكبة الهائلة ، يصيب الأخ فيها أخاه ، وكيف يخطر في بالي أن يختلق أخي هذه التهائم عن إمرأتي بعد أن أوصيته بها قبل سفري ، وأقسم لي ثلاثاً على الوفاء .

ولكن لندع الآن هذه الأبحاث ولنبحث في وسيلة لانقاذ إمرأتي . فهل لك أن تخبرني بتفصيل ما علمته عنها ؟

فحكى له باردالیان كيف إنهم قبضوا عليه ، وكيف انه بعد خروجه من الباستيل وجد كتاب إمرأته مفتوحاً ، إلى آخر ما يعرفه القراء .

وقد بقي أمر غامض في حكايته ، وهو كيف ان حنة قد اختارته دون سواه لإيصال الرسالة إلى زوجها ، فلم يفه بشيء عن ذلك .

وأما عن اختطافها ومكان وجودها ، فلم يقل شيئاً لأنه لم يكن عالماً بشيء .

ولما أتم حكايته قال له : ليس لدي غير اثنين اتهمهما بهذا الاختطاف ، لقد قلت لك اني رأيت الدوق دانجو يرود حول المنزل مع أعوانه فقد يكون هو المختطف

فهز المارشال رأسه وقال : إني أعرف الدوق دانجو فهو يكره الاغتصاب حذر الفضيحة .

ـ إذاً ليأذن لي سيدي ، أن أذكر اسم الرجـــل الاخر الذي اتهمه وهو أخوك .

وعندي انه قد يكون رآها اتفاقاً فأقدم على هذه الجريمة ، وانه يجب علينا أن نبدأ البحث في نواحي قصره .

وهذا الذي كنت أقوله ليلة أمس لصديقي الكونت دي ساريلياك ، وقد زرته مستنجداً لمساعدتي في هذا البحث .

ـ أظن انك مصيب في ما تقول وسأذهب بنفسي إلى أخي ، ولكنك لو لم تجدني في باريس ، أكنت تتولى أنت إنقاذها ، ومـاذا يـدفعك إلى هذه المروءة ؟

ـ يدفعني اليها الواجب يا سيدي وإصلاح شيء مما أفسده أبي .

ـ إنك في الحقيقة نبيل النفس فلا تؤاخذني لهذه الأسئلة .

ـ أشكرك يا سيدي لهذا الثناء والتمس منك العفو لاعتراضي على مـــا ارتأيته من زيارة أخيك فإنها زيارة مخطرة فيما أراه .

فظهر كل حقد فرنسوا على أخيه بين عينيه وقال له . دعني اجتمع بـه وسوف ترى في أي جانب يكون الخطر .

ـ اني لا أخاف عليك يا سيدي من هذه الزيارة بل عليها .

فارتعش فرنسوا وقال : ماذا . عليها ؟

ـ إنها إذا كانتا حقيقة عنده كما نتوهم ، ثم رآك قادماً اليه لخصامه فقد يدفعه حب الانتقام إلى ما تحمد عقباه ، وقد يصدر أمراً تجهد بشأنها فلا يكون منه غير الشر .

ـ لقد أصبت يا بني فاني كلما سمعت قولاً من أقوالك زدت إعجاباً بك ولا أرى اجتماعي بك الا من دلائل حسن التوفيق .

ـ أشكرك ، يا مولاي ، وأرجوك أن تصبر يوماً وليلة ، على أن أتولى أمر البحث عنها بنفسي رابداً منذ الآن بالبحث في قصر أخيك ، فـاذا كانتا فيه ، عملنا على إخراجهما بالحيلة ، فاذا أردت الانتقـــام بعد ذلك فاستعمل القوة .

ـ بورك فيك يا بني فان هذا الرأي رأي العاقلين .

ـ إذاً تأذن لي بالبحث بنفسي .

ـ إلى غد فقط .

ـ بل إلى أن يتيسر لي الدخول إلى قصر أخيك حيث أعرف حقيقة الأمر ومع ذلك فاني أرجو أن أفوز في هذه الليلة .

ـ أصنع ما أنت صانع فاذا نجحت أكون مديناً لك بالحياة

فنهض عند ذلك باردالیان مستأذناً بالانصراف فشيعه المارشال إلى الباب الخارجي .

وهناك عانقه شاكراً وقد مال اليه كل الميل ، وسار باردالیان إلى الفندق المقيم فيه ، فغير ملابسه وهو يقول : لقد مهدت السبيل للسعادة فلنقرع بابها في قصر هنري .

وحده قاضيه
مقتدى
الياس

- ٣٢ -

باردالیان الاکبر

قبل شهرين من هذه الحوادث التي رويناها للقراء ، كان رجلان يسيران في ليلة باردة وقد وقفا عند فندق بونديكيه قرب أنجر .

وكان أحد هذين الرجلين بملابس الضباط والآخر بملابس الأتباع .

أما هذا الضابط فقد كان الدوق دامفيل ، أي هنري دي مونمورانسي وكان عائداً من بوردو إلى باريس ، فعرج في طريقه على هذا الفندق .

ولم يكن يصحب معه حراسه كما كان يفعل الأسياد في ذلك العهد ، ولعله كان يريد بذلك أن لا ينبه اليه الأنظار .

ثم انه لم يعرج على هذا الفندق لجمال موقعه وطيب طعامه ، بل لأنه كان قد ضرب موعداً فيه للقاء .

وقد كان تابعه ، يخرج من حين إلى حين ، ويراقب الطريق من جهة انجر .

ولما كانت الساعة الثامنة أراد صاحب الفندق إقفال باب الفندق فقال له هنري لا تفعل فاني انتظر زيارة زائر .

ودام انتظاره إلى الساعة التاسعة ، واقبل فارس من جهة انجر ورجل عند باب الفندق .

وكان تابع هنري واقفاً في انتظاره عند الباب فأدخله إلى مولاه وتبودلت

بينهما إشارتان سريتان .

ثم بدأ هنري الحديث فقال له : ألست قادم من قصر انجر ؟

— نعم يا مولاي .

أجئت لتحادثني من قبل الدوق ؟

— أي دوق يعنيه سيدي .

— ولكنه ... الدوق الذي ، اضطر في هذه الأيام .. إلى زيارة القصر .

— تفضل يا مولاي بالايضاح .

وقال له هنري بصوت منخفض : الدوق دي كيز .

— هو ذاك يا سيدي ، وأرجو معذرتي فيما قلته ، لأن الرقباء علينا كثيرون .

— حسناً فقل الآن أين هو الدوق ، الا يزال في أنجر ؟

— كلا ، لقد برحها منذ ثلاثة أيام وسافر إلى باريس ، وامسا الدوق دي انجر فقد سافر أمس .

— هل علمت إذا كانا قد اجتمعا أو حدث بينهما اتفاق ؟

لا أظن ، يا سيدي ، فان الدوق دي أنجر كثير الاهتمام بأهوائه وحظاياه .

إذاً ، لا بد ان تكون قادماً إلي بأمر من الدوق دي كيز .

— هو ذاك يا سيدي فاسمع ..

ثم دنا الرجل من هنري وقال بصوت منخفض ما يأتي :

في ٣٠ مارس القادم .. الساعة التاسعة ونصف مساء ... في فندق دفنيير . شارع سانت دنيس في باريس .. أتتذكر ذلك ، يا سيدي المارشال .

— نعم سأتذكر .

— وستسأل هناك عن المسيو رنسار الشاعر ، وتضع برقعاً على وجهك ، وريشة حمراء على قبعتك .

— في ٣٠ مارس مساء في شارع سانت دينيس .. في فندق دفينير أهذا كل ما أتيت لأجله .

— نعم يا سيدي فأذن لي بالانصراف كي لا ينتبه أحد لغيابي .

— إذهب ايها الصديق بأمن الله .

— ارجوك يا مولاي قبل ان اذهب ان تذكرني بالخير لدى مولاي الدوق دي كيز ، واني اتممت المهمة التي عهدت إلي .

— سيكون ذلك ، فماذا تدعى ؟

— مورفرن .

ثم انحنى أمامه وانصرف ، وبعد هنيهة سمع هنري وقع حوافر جواده ، فقال في نفسه : اني اعجب لهنري دي كيز كيف يستخدم مثل هؤلاء الناس فان هذا الرسول الذي ارسله الي في خدمة الدوق انجر وهو قد خانه اليوم فلا بد ان يخون دي كيز غداً .

أما الاجتماع في الفندق فسأذهب اليه في الموعد المعين ولكني سأتخذ كل ما ينبغي اتخاذه من الاحتياط .

وقد عرف القراء في بدء هذه الرواية كيف ان هنري وفى بوعده في حضور تلك الحفلة التي خطب فيها الشعراء وذبحوا فيها تيساً ، وعرف باردالیان كل ما جرى من تلك المؤامرة .

ولما يسافر مورفر صعد خادم هنري اليه وقال له : أتريد يا سيدي ان نواصل السفر ؟

— كلا ، فاني أحب المبيت الليلة في هذا الفندق فاحضر لي عشائي .

وذهب الخادم مسرعاً لتلبية الأوامر ، وبقي هنري وحده في الغرفة فسمع حديث مشاجرة تحت نوافذ غرفته بين صاحب الفندق وأحد المسافرين وسمع

صوت صاحب الفندق يقول للمسافر : لقد قلت لك اني لا أريد ان تربطه هنا الست أنا صاحب الفندق .

واجابه المسافر قائلاً : وانا اقسم ببيلاطس انه لن يكون إلا في هذا المكان .

وارتعش هنري لسماع الصوت .

وعاد صاحب الفندق إلى الاعتراض فقال : ان هذا الاصطبل خاص بجياد الأسياد .

— وانا اقول لك إن جوادي شريف الأصل فلا أضعه بين البقر .

— يظهر يا حضرة المتشرد انك تريد ان اطردك .

— وانت يا حضرة صاحب الفندق يظهر انك تحب ان تجلد بالسياط .

ولم يعد يسمع هنري بعد ذلك غير صوت الاستغاثة والتوجع ، فان المسافر كان يضرب صاحب الفندق ضرباً موجعاً دعا صاحب الفندق إلى الاستغاثة .

فأسرع هنري إلى مكان الحادثة فوجد المسافر يضرب صاحب الفندق دون إشفاق ، وصاحب الفندق يصيح ويستغيث ، وقد ارتفع صوته حين رأى رجلاً قادماً اليه .

اما المسافر فانه حين رأى هنري ، ورأى انه بملابس الضباط قال له: اني ارى على جنبك حساماً يدل على انك من الأشراف يا سيدي وانا منهم ، فاذا احببت ان تكون الحكم بيني وبين هذا الرجل اخبرتك بأسباب الخلاف .

فهز هنري رأسه إشارة إلى الموافقة .

وحاول المسافر ان يتبين وجه هنري فلم يستطع لشدة الظلام فقال له : إن الخلاف بسيط يا سيدي ، وهو ان هذا الرجل يريد إكراهي على ان اخرج جوادي من الاصطبل واضعه في زريبة البقر .

فقال صاحب الفندق : إن الاصطبل يا سيدي لا يتسع إلا لثلاثة جياد

وهي موجودة فيه فأين اضع جواده الرابع .

وقال المسافر لا تصدقه يا سيدي ، لأن الاصطبل يتسع لأكثر من ثلاثة جياد ، وان جوادي من خيرها ، اتريد ان تراه ؟. إنك ستراه يا سيدي ، وترى إذا كان يليق به ان يبيت مع البقر .

فأمر هنري صاحب الفندق ان يأتي بمصباح .

ولما جاء به نظر هنري نظرة احتقار إلى ذلك الجواد الذي اثنى عليه صاحبه هذا الثناء ، ثم نظر نظرة سريعة الى صاحبه وقال : هو . هو بعينه وقد عرفته من صوته .

اما المسافر فانه دنا من جواده الهزيل وجعل يصف محاسنه ويقول : ارأيت يا سيدي اكرم منه فرساً ... امثل هذا الجواد الكريم يبيت في الزرائب .

وقال له هنري : لقد اصبت يا مسيو باردالیان فان جوادك خير الجياد .

وذهل باردالیان حين سمع هنري يناديه باسمه وعرفه للفور وكاد يلفظ اسمه غير ان هنري اوقفه بنظرة وقال له :

— ان صاحب الفندق مخطىء ولكنه سيصلح خطأه ويضع لجوادك خير العلف ، وأما انت يا سيدي فهل لك ان تتعشى معي ، فأغدو لك من الشاكرين .

وذهل صاحب الفندق مما رآه ولم يسعه إلا الامتثال ، لقد عرف ان هنري من كبار الأغنياء ، وللغنى حرمة كيفما كان .

واما هنري فانه تأبط ذراع باردالیان الأكبر دون كلفة وصعد به الى غرفته ، وجعل باردالیان يفكر في نفسه ، وقد وضع يده على قبضة حسامه من قبيل الحذر .

ولما دخلا إلى الغرفة اقفل هنري بابها فقال له باردالیان : يسرني يا سيدي ان اراك بعد هذا الفراق الطويل ، ولكن يسؤني ان اراك تكاد تبلغ

مبلغ الكهول وانت لا تزال في عنفوان الشباب .

انني فارقتك ، يا سيدي ، منذ ستة عشر عاماً ، وكنت في ذاك العهد زين الشباب ، فمن اين جاءك هذا الشيب وانت لم تبلغ الحلقة الرابعة من العمر .

اليس عجيباً ان يكون عمري ضعف عمرك ، ويبقى شعر رأسي كحافية الغراب .

انني فارقتك يا سيدي وانا في الأربعين من عمري ، فمضى هذا العهد الطويل وانا باق على ما تعهدني ، اليس كذلك .. نعم انني اتجاسر وارجو ان اعيش مائة عام ، ويقيني انني اذا بلغتها بقيت كما انا . ماذا تقول يا سيدي انك لا تقول شيئاً ... اسمح لي ان اطعم جوادي وانصرف ، لأني مضطر الى الرحيل في هذه الليلة .

فأجابه هنري مبتسماً : كلا فانك تتعشى معي .

— اسألك المعذرة ، يا سيدي ، فانهم ينتظرونني ، ولا بد لي من الذهاب .

— كيف تقول انهم ينتظرونك ، وانت كنت تخاصم صاحب الفندق بشأن ايواء جوادك الليلة في الاصطبل ، فابق معي للعشاء او احسب انك خفت .

فضحك باردالیان وقال : امثلي يخاف الناس ، يا سيدي الدوق وانا تخافني الأبالسة .

وكأنما كبرت عليه تهمة الخوف ، فوقف وخلع ردائه وقبعته ومنطقته فألقاها فوق السرير وجلس على المائدة بازاء هنري وهو لا يزال متقلداً حسامه .

وكان هنري يراقبه ، فلما رآه خلع ملابسه ، نزع سيفه والقاه على السرير فلم يجد باردالیان بداً من الاقتداء به وفعل فعله .

وجلس الاثنان حول المائدة يأكلان وهنري ساكت مفكر وبارداليان يفكر في سبب تفكيره .

الى ان فرغا من العشاء فبدأ هنري الحديث فقال :

— وانه يسرني ايضاً ان اراك يا بارداليان وان تكون قوي العضل خفيف الحركات لم يقدم منك غير ثيابك فانها هي نفس التي كنت تلبسها منذ ستة عشر عاماً كما ارى وما اشبه هذا الطيلسان الذي تلبسه بطيلسان ابن حرب والفرق بينهما ان ذلك كان مرقعاً مرفوءاً وطيلسانك لا تزال الثقوب فيه كالنوافذ في البيوت، لا جرم فهي ثقوب السيوف والحراب ولعلك استبقيت هذا الطيلسان لتفتخر بثقوبه ، وفي كل حال فقد سرني ان اراك .

فأجابه بارداليان قائلاً بلهجة المتهكم : لقد خلقت يا سيدي ميالاً الى الفقر وهي لذة لا اجد الحياة هنيئة الا بها على انني لو أردت ان البس كل يوم ثوباً جديداً لما عدمت سيداً مثلك يهبني ما اريد .

— بل تنال ما تريد بمجد حسامك واقدامك وصبرك على الخطوب ، فاني لا انسى بسالتك لطول عهد اتصالك بي ، ولكني لم اعلم شيئاً مما حدث لك بعد ذلك الفراق ، فماذا حدث لك بعده ؟

— عدت الى ما نشأت عليه قبل ان يعينني ابوك الشهير في خدمتك .

— وماذا كنت تصنع بعدما بارحت القصر .

— كنت اعيش ..

— واين كنت تقيم .

— حيث تطيب لي الاقامة فأفترش الأرض ، والتحف السماء ، على اني اقمت نحو عامين في باريس .

— ولماذا برحتها ؟

فظهرت علائم الخبث في عيني بارداليان واجابه : اني اذكر اقامتي فيها بالخير ، فقد كنت في تلك العاصمة من اسعد الناس .

ولكني كنت أطوف في الشوارع في ليلة من ليالي أكتوبر ، فلقيت رجلا كنت أعرفه منذ عهد بعيد وأحب اجتنابه لأنه إذا رآني كره ان يبقيني معدماً فقيراً وأنا أحب عيشة الفقر كما ذكرت لك فاضطررت ان أبرح تلك العاصمة مكرهاً إذ كنت مقيماً فيها مع ولدي .

فقال له هنري إني كنت في ذلك العهد في باريس ، وأذكر انه حدث لي حادثة فيها ، وهي ان اللصوص باغتـــوني ليلة وكادوا يتغلبون علي لكثرة عددهم ، فأنقـذني منهم رجلا لا أعرفه ، فأهديته جواداً كريماً يدعى كالور .

والآن ، ألم تلاحظ يا بارداليان ، إني لم أرك منذ ستة عشر عاماً ، وإني مقيم معك منـذ ساعتين في غرفة واحدة ، ولم أسألك بعـد عن خيانتك .

فقال بارداليان في نفسه : لنتأهب لقد دنت ساعة الحساب .

ثم قال لهنري . أية خيانة تعني يا مولاي ، العلك تريد بها خيانتي باطلاق سراح ذلك الرجل الذي اصطاد ايلا في أراضيك فأذقته العذاب ألواناً وقيدته بالأصفاد .

نعم لقد ذكرت يا سيدي وأنا أعترف بهذه الخيانة فما دفعني اليها غير إشفاقي على هذا الرجل المنكود .

— ليس هذا الذي أعنيه لأني أجهل هذه الحوادث .

— إذا كان مولاي يجهل مثل هذه الحوادث ، فلا أعـــد إنقاذي ذلك المنكود خيانة . . ولكن أية خيانة يعنيها مولاي ... لقد ذكرت ... نعم ، فان مولاي كان قد اتفق ليـلة مع أحد البارونات على اختطاف امرأة حسناء ، كانت قد تزوجت في اليـــوم نفسه ، واتفقوا على ان يقترعوا عليها بعد اختطافها ، فمن أصابتـه القرعة كانت تلك المنكودة حصته .

فلما ذهب مولاي مع البارونات في تلك الليلة ، وجدوا الطير قد فر من القفص .

نعم يا مولاي، إني أعترف بجريمتي فأنا الذي أنذرت الزوج في النهار فهرب بزوجته لأني لم أطق احتمال هذا الظلم .

فأجابه هنري دون ان يخجل لهذا التقريع : إني نسيت الطير ، ونسيت القفص .

ـ إذاً ... أية خيانة تعنيها ، يا سيدي ، لأني قد أفرطت في الطعام ، فأضعفت التخمة ذاكرتي ، وما تعودت ان أذكر منسياً إلا إذا كان سيفي بجانبي .

ثم أسرع إلى السرير فأخذ سيفه وعاد به إلى مجلسه ، وهو يتنهد تنهد الارتياح .

فابتسم هنري ابتسام المتهكم ، وقال له : لقد نعم بالك الآن ، ولا بد أن تذكر .

فأجابه باردالیان ببرود : وهو ذاك ، فقد ذكرت خيانة تشبه الخيانات التي ذكرتها .

مثال ذلك حادثة مرجنسي التي فارقت مولاي بعد حدوثها ، العلها الحادثة التي يعنيها ؟

ـ نعم ، فأنت ما تركتني إلا لخوفك من ان تعاقب بالشنق .

ـ إنما الشنق والقتل والموت واحد ، ففي كافتها فراق الروح والخلاص من أدناس الناس .

أما هذه الحادثة فإني أعترف وأقر بأني خنت فيها مولاي ، لأني في ذاك اليوم نفسه أرجعت الطفلة إلى أمها ، وذلك لأني سمعت الأم المنكودة تبكي بكاء اليماً يقطع القلوب ، ولم يتمثل لي الشقاء الانساني إلا بما كنت أسمعه منها .

وقد قلت يومئذ في نفسي انك لو رأيت ما رأيته من يأس تلك الأم لصدر لي أمرك ، دون ريب ، بإرجاع طفلتها اليها ، فتوليت صنع هذه المروءة عنك .

ثم قلت في نفسي إني أخطأت إلى هذه الأم باختطاف طفلتها فلأصلح بعض خطائي بردها .

وأما فراري فقد أحسنت به إلى نفسي لأني لو بقيت لسجنتني في أظلم السجون هذا اذا لم تشنقني كما قلت .

ودعني يا مولاي أتم اعترافي ، فاني منذ ستة عشر عاماً إلى اليوم لم تمر بي ساعة ، دون أن يقرعني فيها ضميري لتلك الجريمة التي ارتكبتها بأمرك .

وليست الخيانة بردي الطفلة الى أمها بل بارتكابي الجريمة التي خنت فيها كل شعور إنساني .

وأنت يا سيدي ، ألم تكن بعد تلك الفعلة من النادمين ؟

فوجم هنري هنيهة ثم قال له بعد سكوت قصير : أرى يا باردالیان انك حسن الذاكرة ، ولكني أعود الى ما قلته لك ، وهو انسك خنتني ، ولا أبالي بمعرفة الأسباب التي دعتك الى الخيانة ، بل أكتفي بأن الخيانة قد حصلت ، فاعلم الآن إني لا أؤنبك عليها ، لأني أحب أن أنساها .

ثم وقف وقال : نعم إني أحب ان أنسى ، كما إني أحب أن أنسى ما فعلته الآن ، حين أخذت سيفك كأنك تحسب إني أبارزك بالسيف .

فوقف باردالیان ايضاً وقد كبر عليه هذا القول فقال لا يجب لمثلك ياسيدي ان يأنف من قتال مثلي .

ونعم لست من أولئك البارونات الذين يختطفون النساء .

ولست من اولئك الدوقات الذين يستعينون برجالهم على قتل الضعيف وسفك دماء الأبرياء .

وليس لي قصور أظهر فيها كبريائي، ولا سجون أحبس فيها من قضى عليهم نكد الطالع أن يكونوا من أتباعي ..

نعم لست يا سيدي من اولئك الذين يدعونهم بالأسياد ، ولكن يخلق بعض الأحيان بكبار الأسياد امثالك ان يصغوا لكلام امثالي .

ولذا أكلمك دون غضب ودون خوف لعلمي ان لا فرق بيننا بالرجولية وان حسامي يعادل حسامك .

فهز هنري كتفيه وقال له : إجلس يا باردالیان كي نتحدث .

وقد سمع هنري كل مغامز باردالیان ، ولكنه ربما جل نفسه عن أن تمسه هذه المطاعن لصدورها من رجل كان من اتباعه او انه اعجب بشجاعة باردالیان ورآها موافقة لمشروعه الذي ينويه فقال له :

— ارى يا باردالیان انك لا تزال اشد من نصل حسامك ، فاذا اردت فابق حسامك في غمده فستجرده في غير هذا المقام ، اذ سيعرض لك كثير من الظروف .

على اني اعتبرك من الأشراف ، واحترم حسامك ، فاصغ الي الآن إذا شئت ، فإني مقترح عليك اقتراحاً لك ان ترضاه او تأباه ، فاذا ابيته افترق كلانا عن صاحبه ، واذا رضيته فلا يكون لك بعده غير الشرف والكسب .

فقال باردالیان في نفسه : لقد تغير الناس ، واستحالت الأخلاق . فلو قلت قديماً بعض هذا القول لما اجابني إلا بالسيف ... ولكن لا بد ان يكون له بي مأرب بدليل ما يبديه من الملاينة ، فلنر ما يريد .

ثم قال له : لقد اعجبتني ، يا سيدي ، حرية مقالك . فتفضل واقترح ما تشاء

فقال له هنري : أتعلم يا باردالیان ، ان كثيرين من أهل الشباب والفتوة يحسدونك ويتمنون ان يكون لهم ما لك من الصفات ، فقد كنت حين عرفتك مخيفاً اما اليوم فقد اصبحت هائلاً كما ارى .

— اني افعل ما يمكن فعله يا مولاي .

— ولكن ألم يؤثر عليك العمر ؟

— لقد قلت انت يا سيدي اني لا ازال كما كنت في الشباب .

— وهذه القوة النادرة التي كنت اعجب بها إعجاب كل الناس .

— لا تزال بحمد الله ، بل زادت بعد ان برحت قصركم ، وهجرت عيش الرخاء

— إذاً ، إصغ إلي ولا تدع كلمة من كلماتي تفوتك ، فإني محدثك بأمر خطير .

وظهرت على هنري علائم التردد ثم زالت تلك العلائم فقال له ؟ ماذا تقول يا باردالیان بملك فرنسا ؟

— ملك فرنسا .. وماذا تريد ان يقول رجل معدم جوّاب أفاق مثلي عن ملك فرنسا سوى انه ملك فرنسا ، أي ذاك الملك الذي هو أضعف من الله وأعظم من الانسان .

ذلك الشمس المشرقة التي لا يجسر مثلي أن ينظر اليها فيذهب توقد شعاعها بنور عينيه .

— قل ما تفتكر به يجلاء ، يا باردالیان ، فلست من الذين يبهر عيونهم الشعاع .

— أوثر يا مولاي ان تكون البادىء بالتصريح .

— ليكن ما تريد فاعلم اني لا أعد شارل التاسع ملكاً .

فارتعش باردالیان ورأى كأنما هوة قد فتحت أمامه فقال :

– إني لا أعرف جلالة الملك ، ولكني أسمع الناس يقولون عنه انه ضعيف الارادة ، شرير الطبع ، وانه مصاب بمرض يهيج أعصابه فيجرده من الرحمة ...

هذا ما أسمع الناس يقولونه عنه . . أما أنا فإني لا أعرف شيئاً من أمره ، إلا ان ملكاً تكون له هذه الصفات لا يزرع في قلوب رعيته عاطفة الاخلاص .

– إذا كانت هذه مبادئك .. فقد سهل اتفاقنا . لأنك حر باسل ذكي الفؤاد ، ويخلق بمن كانت له هذه الصفات أن يستخدمها في عمل عظيم .

ولا أنكر ان المشروع محفوف بالخطر ، ولكن من كان مثلك ، لا يهاب المخاطر .

فماذا تقول ، إذا ارتقى العرش ، بدلاً من هذا الملك الخامل الضعيف ، ملك ملؤه الحزم والنشاط ، والمروءة والاقدام ... ملك يجعل هذه البلاد من أرقى الممالك ، ويجعل من يستحق من رجالها من أشهر الرجال .

– أرى مولاي يطلب إلي المؤامرة على الملك .

– هو ذاك يا باردالیان ، وأنت ترى مبلغ ثقتي بك ، وما كان ذاك إلا لأن أمثالك نادرون .

– لا أنكر ما تقول يا سيدي ، غير ان تشريفك إياي بهذه الثقة قد يؤدي بي إلى المشنقة .

– هل خفت ؟

– ما أخاف اذا كنت لا أخافك .

– إذاً ، ما يمنعك عن موافقتي ، وفوقها فأنت لا تلج هذه المؤامرة مباشرة .

– أرجو سيدي ان يكلمني بايضاح لأني لم أفهم كل ما يريد .

– إذاً فاسمع ، اني اندفعت في هذه المؤامرة ، بحيث بات يستحيل علي الرجوع .

وهي مؤامرة شديدة الخطر ، وقد يتفق لي ان أحتاج إلى بعض الرجال المخلصين

فإذا كان حظ هذه المؤامرة الفشل ، وكنت وحيداً ، كنت ضعيف الدفاع .

وأما ، اذا كان لدي من أعتمد عليه في المهمات ، ضاعف هذا الاعتماد بأسي .

ولذا كنت في أشد حاجة الى بطل مجرب مثلك ، شديد الذكاء ، كثير الحيلة طلق اللسان ، لأني قد أضطر ان أجعلك سفيري في بعض المهام فتنوب عني في قول ما أريد .

– لقد فهمت يا سيدي ، فأنت تريد ان تجعلني اليد العاملة ، وتكون انت الرأس المرشد .

– نعم هذا هو مرادي فهل توافق عليه ؟

– أرضاه بملء الارتياح بشرط ان تكون لي منه فائدة .

– ماذا تريد أن تكون فائدتك ؟... سل ما تشاء ، ولا تخف أن تسأل .

– اني لا أطلب شيئاً لنفسي ما خلا نفقاتي

– إذاً سأجعل لك راتباً قدره خمسمائة ريال تقبضه في كل شهر الى انتهاء المهمة . أيكفي هذا الراتب ؟

– بل هو كثير ولكنه راتب لا مكافأة .

– اذا كنت لا تريد شيئاً لأجلك مما ترجوه من الفائدة ، فلمن تريد ان يكون ؟

– لولدي .
– هل لك ولد ؟
– ألم أقل لك يا سيدي .
– نعم لقد ذكرت .. فقل ماذا تريد لولدك ؟
– مائة الف فرنك اذا حبطت المؤامرة يعطاها بشكل هبة .
– واذا نجحت ؟
– أي اذا استوى على عرش فرنسا الملك الذي تختاره ؟
– نعم .
– اذا كان ذلك فلا اطلب لولدي مالاً ، بل اطلب له منصباً رفيعاً في الجيش يناسب بسالته وإقدامه .
– أما المائة الف فرنك فإني أتعهد بها منذ الآن ، واما المنصب فإني أتعهد ان أكتبه ضمن شروطي التي سأقترحها حين أرضى الرضى التام بخدمة الملك الجديد .
– وانا أكتفي بكلامك ، متى تبدأ هذه الحملة ، او بعبارة أخرى متى تريد ان اكون في باريس ؟

فتمعن هنري هنيهة ثم قال : بعد شهرين ، إذ لا ينتظر حدوث أمور ذات شأن قبل هذا التاريخ ، ولذا يجب ان تكون في قصري في أوائل شهر أفريل .
– سأوافيك وربما جئت قبل هذا الموعد .
– كلا لا يجب ان تحضر قبله إذ لا أحب ان يراك احد في باريس الا بعد هذا التاريخ . وعندما تصل الى باريس اذهب توا الى القصر ولا تدع احداً يراك من الذين يعرفونك .
– سأحضر ليلا في اليوم الثامن من افريل .
– وانا أنتظرك في ذاك اليوم ، فماذا عولت أن تفعل في خلال

هذه المدة ؟
– علي ان أسير الهوينى الى باريس ، وأرود ضواحيها ، الى أن يحين الميعاد
– هل انت محتاج الى النقود ؟

ولم ينتظر هنري جواب باردالیان ، بل نادى تابعه وكلفه همساً . وذهب الرجل وعاد بكيس صغير محشو بالدنانير ، ووضعه على المائدة وانصرف .

فقال باردالیان في نفسه : ما اطيب الفاكهة بعد الطعام لأني لم اذق طعمها منذ عهد بعيد .

ثم تناول الكيس ووضعه في جيبه .

وبعد ساعة كان جميع من في الفندق نياماً ما خلا هنري وباردالیان فكان هنري ساهراً في سريره يناجي نفسه ويقول :

لقد ظفرت برجل يساوي ثقله ذهباً عند الدوق دي كيز .

وكان باردالیان يراقب النجوم باسماً وهو يقول :

اني غاطر بحياتي ولكني ضمنت مستقبل ولدي .

وحده قاضيه
منتدى الياسين

- ٣٣ -

الاسيرتان

في اوائل شهر افريل ، اى في ذلك اليوم الذى ابدل فيه باردالیان الأكبر ملابسه القديمة البالية بملابس جديدة ، ودنا من ابواب باريس ، وهو اليوم الذى كان باردالیان الأصغر يسعى فيه الى الاجتماع بفرنسوا مونمورانسي ، نذهب بأذهان القراء الى قصر مسيم اني قصر هنرى مونمورانسي الذى سجنت فيه حنة وابنتها لويزا منذ عشرة ايام .

وكان هنري في ذاك اليوم عابس الوجه مقطب الجبين يسير جيئة وذهاباً في غرفة ملسعة ، وقد تاه في مهامه التفكير . فانه حين وجد حنة استحالت حياته وعادت اليه ايام صباه ، وهاجت في قلبـــه الشره براكين ذلك الغرام القديم .

وقد عرف القراء من الفصل السابق ان غرام هنرى كان قد تناقص وكاد يتلاشى بدليل انه لم يقل كلمة سخط لباردالیان الأكبر لانه كان قد نسي حنة لتقادم العهد بغرامه او حسب انه نسيها .

ولكنه حين وجدها واسرها شعر ان غرامه القديم قد تجدد .

وربما لم يكن هذا الحب يماثل الحب السابق ، فقد كان للكبرياء والعناد دخل فيه .

وقد كان ، فيما مضى ، يستسهل الجريمة إرضاء لعواطفه في هذا الحب ،

أما الآن فقد بات يستسهل الشدة والعنف ، وكل ضروب النـــذالة في هذا السبيل .

وكان يفتكر وهو يمشي انه حين كان يراقبها ايام صباه من خلال الادغال التي كان يتوارى فيها يشعر ان قلبه يكاد يخرج من صدره ويرى انه لا يجسر على الدنو منها .

وكان يرضى ان لا تكون له على ان لا تكون لسواه .

وحين جرحه اخوه في الغابة وحمله الحطابون الى الحصن لم يكن يشغـــله ويخيفه غير إمكان اجتماع حنة بزوجها واتفاقهما فيكون كل ما كاده قد ذهب ادراج الرياح .

ولكنه لم يحدث شيء مما خافه ، ولما علم ان اياد قضى بطلاقها من اخيه كان سروره لا يوصف وقنع بهذا الانتقام .

هذا ما كان يفتكر به وهو يسير في غرفته ذهاباً وإياباً بخطوات مضطربة ، ثم وقف فجأة وقال في نفسه : اني فرحت لطلاقها ، ورضيت ان لا تكون لي بعد افتراقها عنه ووجدت في ذلك سروراً وارتياحاً ، فمن اين جـــاء هذا الارتياح ...

انه نتج ، دون ريب ، من بغضي لأخي . فإني كنت اكرهه اكثر مما كنت احبها ...

ولذا لما تعاقبت الأيام محت ذلك الحب ، ولكنهـــا لم تقو على محو ذلك الكره الدفين ..

نعم اني اكره اخي كرهاً عظيماً ، واني لم انتظم في سلك هذه المؤامرة التي قد لا اخرج منها حياً الا لأتغلب على اخي واسحقه سحق الزجاج لأن كرهي اياه لا يقف عند حد .

اذاً قد امحى ذلك الغرام ، وقد عرفت السبب في زواله وهو حلول بغض اخي محله .

ولكن ما بالي اضطربت حين رأيتها ... وكيف انقدت جذوة ذاك الغرام وانا احسبها قد انطفأت ...

بل كيف أراني أحبها اليوم فوق ما كنت أحبهـا أمس ... وأخي أين هو الآن .. إنه بعيد عن باريس دون ريب ، فما يمنعني عن ان أبلغه انهما في قبضة يدي .

وفيما هو يناجي نفسه بهذا القول ، وقد بلغت نفسـه أبعد غايات الانتقام طرق الباب .

فظهرت عليه علائم الجزع وفتحه ، فدخل منه ذلك الرجل الذي كان مع هنري في الفندق الذي اجتمع فيه بباردالیان الأكبر فقال : لدي خبر هام يا مولاي .

— ما هو ؟

— هو ان أخـاكم في باريس ، وقد رأيته وقفوت أثره حتى دخـل إلى قصره .

فاصفر وجه هنري وقال :

— أواثق مما تقول ؟

— لقد رأيته يا سيدي كما أراك .

— حسناً دعني وحدي .

فانصرف الرجل وجلس هنري على كرسي يضطرب ، وهو منذ هنيهة كان يحدث نفسه بابلاغ أخيه ان امرأته وابنته في أسره .

ثم جعل الآن يفكر في طريقة اجتنـابه والفرار منه ، ويقول في نفسه : فرنسوا في باريس ... إذاً لا بد لنا من أن نلتقي ... واني أشعر بيد خفية تدفع كلا منا إلى الآخر ..

وعبثاً كنت أحاول اجتنابه ، وأذهب إلى الشرق ، حين يكون في الغرب ...

نعم ، قد كان ما خفت ان يكون وسنلتقي بعد أسبوع بل ربما التقينـا اليوم ، فماذا يقول لي وماذا أقول له ؟

ثم قام يمشي في أرض تلك الغرفة وهو يحاول ان يسكن الخوف الذي استولى عليه لما علمه من قدوم أخيه .

وقد مر وهو يمشي بمائدة فضرب عليها بيـده وهو يقول : إني لو كنت وحدي لما خشيت لقاءه ..

بل كنت أذهب اليه فأقول له : أنت أتيت لتبحث عني وقد أتيت اليك فقل ما تريد .

ولكني لست وحدي ... وهي معي واني أحبهـا ... ولا أحب أن يجدها ، وان يلتقيا ، لأنها قد تكون لا تزال تحبـه ، فماذا أصنع ... وأين أخبئها ؟

وبقي على هذه الحالة ساعة ، إلى ان ظهرت عليـه علائم السكينة ، فابتسم وقال :

— نعم إنها ستكون هناك بأمن ، فإني أعرف طريقة تضمن لي وفاء تلك المرأة التي سأقيمها عندها ...

وعنـد ذلك ذهب الى تلك الغرفـة ، التي كانت مسجـونة فيها حنة وابنتها .

فلما وصل إلى بابها وقف هنيهة يصغي ، فلم يسمع حسـاً ففتح الباب بمفتاح كان معه .

ثم دخل ووقف وقد ظهر عليه الاصفرار .

وكانت حنة وابنتهـا جالستين . فلما سمعتا صرير المفتاح في القفـل ، تعانقتا كأنهما تحميان نفسيهما بهذا العناق ، وجعلتا تنظران إلى هنري نظرات الرعب .

أما هنري فانه أقفل الباب وتقدم منهما فقال لحنة :

— أعرفتني يا سيدتي .

فاحمر وجه حنة وقالت له : كيف تجسر ان تظهر لي أمام هذه الفتاة ، بل كيف تجسر ان تكلمني أمامها .

— أرى الآن انك قد عرفتني ، فأهنىء نفسي لوثوقي من اني لم تظهر على علائم الكبر ، كما قال لي أخيراً رجل لا بد ان تذكريه ، فانه يدعى باردالیان .

فنطت لويزا وجهها بيديها حين سمعت اسم باردالیان .

وقالت له حنة : إنك جردتنا من آخر نعيم بقي لنا ، وليس ذلك يذكر في جانب آثامك ... نعم إننا أسيرتاك ولكنني عازمة عزماً أكيداً على ان لا أدعك تتمادى في هذه الجرائم

فانتفض هنري وضم يديه وحاول ان يقدم على عمل وحشي غير انه ملك نفسه ، وكظم غيظه فقال :

— أنت لا تزالين على ما كنت أعهده بك ، لأني ما قابلتك مرة إلا قرأت سور الكره والحقد بين عينيك .ثم رأيتك اليوم بعد كرور الأعوام ، فرأيت هـــذا الحقد وهذا الرعب لا يزالان فيك على سابق العهد بهما .

فاعلمي يا سيدتي إني أحب محادثتك الآن في بعض الشؤون ، وأود ان أكون معك في خلوة ورجائي ان تدعنا ابنتك وحدنا .

فطوقت لويزا عنق أمها بيديها وقالت لها :

— أماه اني لا أبتعد عنك .

فقالت لها حنة : إطمئني يا ابنتي فلا نفترق ، ولا تخشي هذا الرجل ، لأن أمك تحميك .

فاضطرب هنري اضطراباً شديداً ، وخطر له في البدء ، أن يجنح إلى العنف . ولكنه رأى ، من عيني حنة ، انها واقفة مع ابنتها وقوف اللبوة مع أشبالها فخاف ومع ذلك فإنه كان يريد ان يكلمها .

وقد هاجت عواطف غرامه السابق ، حتى لم يعد يعلم في أي موقف يقف بإزائها .

وسكت هنيهة ، ثم قال لها ، بلهجة جمعت بين الالتماس والوعيد معاً : مما تخافين يا سيدتي ، فاني لو شئت التفريق بينك وبين ابنتك لفعلت ، ولكني لم يخطر لي هذا التفريق في بال .

قولي عني ما تريدين ، وظني بي ما تشائين ، فإن ذلك لا يمنعني عن ان اكلمك بملء الحرية والجلاء .

نعم اني نهجت معك مناهج العنف الشديد ، وربما عدت ايضاً إلى هـذا العنف إذا احتجت اليه .

اني وفي لنفسي ولست من اولئك الذين يخدعون النساء ، فيتزوجون بهن خدعة ونفاقاً ، ثم يطلقونهن طلاقاً غير مشروع .

إني أرى من عينيك احتجاجاً عنيفاً ، ولكن هذا الاحتجاج لا يمنع كون ما قد كان . إن فرنسوا قد هجرك هجر الزعانف الأسافل ، وأما أنا فقد بقيت على الوفاء .

فصاحت حنة صيحة كره وأنفة ، فـان هنري عرف كيف يكرهها على أن تجيبه . ونسيت ابنتها وتمثل لها زوجها فرنسوا فقالت لهنري :

— أيها الشقي ، أنت السافل وأنت الذي فرقت بيننا بآثامك ، وأمـــا فرنسوا فانه لا يزال يبكيني كما أبكيه .

ثم شهقت بالبكاء فعانقتها لويزا وقالت لها :

— أماه إني لا أزال لك .

فضمت حنة ابنتها إلى صدرها وقالت لها :

— نعم ، يا ابنتي ... فأنت كل ما بقي لي في هـذا الوجود ، وأنت كنزي الوحيد .

فجعل هنري ينظر إلى الأم والبنت نظرات ساهية ، وقد أدرك خطأه

Noor.k.k-1994

بعدم التفريق بينهما ، وعلم ان الكلام معها لا يفيد ، وانه لم يبق له غير سياسة العنف ، فقال لها بلهجة الاعتدال :

— لا بأس ، فستعرفين في مستقبل الأيام أنك مخطئة بالحكم علي ، بل ستعرفين اني أنقذتك مع ابنتك من أشد الأخطار ، فلا تنظرين إلي بهذا الرعب

والآن يجب ان تعلمي انه لا يمكن ان تقيما في هذا القصر ، لأن الخطر الذي كان يتهددكما في شارع سانت دينيس يتهددكما هنا أيضاً فاستعدا للذهاب بعد ساعة في مركبة تحملكما إلى بحر المانش .

ثم تركها وانصرف وهو يقول : سأختار بعدها فرصة مناسبة

وبقيت الفتاة وأمها بعد ذهابه حائرتين واجمتين ، وقد رعبت حتى رعباً شديداً ، وقالت في نفسها : ألم يبق لنا حيلة فقد وقعنا بين براثن هذا الوحش ، فان الرجل لا يزال كما عرفته منذ غرور الصبى .

ثم قالت لابنتها ، واليأس ظاهر بين عينيها : ما عساه يصنع بنا هذا الرجل ؟

فقالت لها لويزا : تشجعي يا أماه ، وليرسلنا إلى حيث يشاء بشرط ان لا نفترق .

وقد مضى ذلك النهار ، ومضى الليل دون ان يقدم اليهما أحد خلافاً لما قاله لهما هنري من انهما ستنتقلان بعد ساعة .

« تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني »

وحدة
القاضية

https://t.me/NoorAlbersi_Library